

تاريخ المغرب الإسلامي

دكتور
عصام الدين عبد الرؤوف الفقي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين
وبعد :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة محاضرات ألقيتها على طلابي في عدة
جامعات في مصر وخارج مصر عن تاريخ المغرب والأندلس •

ودراسة تاريخ المغرب والأندلس له أهمية خاصة بالنسبة لنا
كعرب ، ذلك أن أسبانيا حكمها العرب عدة قرون ، وازدهرت فيها
الحضارة الاسلامية ، وشهدت نهضة ثقافية اسلامية كان لها أثرها في
أوروبا ، وأقيمت فيها المساجد الضخمة ، التي كانت منارة للإسلام والعلم
والحضارة في القارة الأوروبية عدة قرون •

ولكن العرب — كما هو حالهم اليوم — أضاعوا هذه البلاد ،
وفقدوها كما فقدوا غيرها فيما بعد ، بسبب ما يسود بينهم من انقسام
وخلافات ومنازعات ، متناسين الصالح العام ، ومتطلعين فقط الى تحقيق
مآرب شخصية زائلة •

لذلك فدراسة تاريخ الأندلس ، يوضح لنا ، كيف وصل العرب الى
قمة المجد ، بفتحهم لاسبانيا أو لقطعة من أوروبا ، وكيف اقتربت جيوشهم
الظافرة المنصورة من باريس واستوطنوا هذه البلاد ، ونشروا الاسلام
واللغة العربية والثقافة الاسلامية ويسعد الانسان حينما يدرس هذا
الازدهار ، وهذا التقدم الحضارى • ولكن الدارس يعبر مع دراسته
القرون ، شأنه شأن دارس التاريخ ، فيصاب بالحزن والأسف ، حينما

يرى أن مجد العرب والاسلام في هذا البلد الى زوال ، حتى ينتهى حكم العرب في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

وقسمت بحثى الى عدة موضوعات ، بدأت بدراسة الفتح العربى للمغرب ثم أسبانيا قبل الفتح العربى ، وانتقلت الى بحث الفتح العربى لأسبانيا ، والنتائج التى ترقبت على هذا الفتح ، ثم درست عصر الولاة فى الأندلس ، وفيه حاول المسلمون فتح فرنسا ولكنهم هزموا فى بلاط الشهداء . وفى عصر الولاة اشتد الصراع بين القيسية واليمينية .

وظلت بلاد الأندلس فى اضطراب حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ، وأقام فى أسبانيا امارة مستقلة تماماً عن الدولة الاسلامية ، وخلفه أبناؤه فى حكم الأندلس حتى ولى عبد الرحمن الناصر ، فصول الامارة الى خلافة ، وظلت الدولة الأموية تحكم فى الأندلس حتى سقوطها سنة ٤٢٢ هـ .

اضطربت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية ، وتنافس أمراء الأقاليم فى حكم الأندلس . هنا انتهزت الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا الفرصة ، وأنقضوا على مدن الأندلس ، منتهزين فرصة النزاع بين ملوك الطوائف ، وحاول المرابطون ثم الموحدون من بعدهم أن ينقذوا المسلمون فى الأندلس ، ولكن محاولاتهم كانت مسككات وقتية . وظل أمر الأندلس فى ضعف والنصارى فى قوة حتى لم يعد للعرب سوى غرناطة ، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م . وبسقوطها زال الحكم العربى عن الأندلس .

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

دكتور عصام الدين عبد الرؤوف الفقى

مصر الجديدة

١٩٨٤/٨/٤



بلاد المغرب

خريطة رقم ٢٠

الفصل الأول

التعريف ببلاد المغرب والأندلس

١ — أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

٢ — التعريف ببلاد المغرب

٣ — التعريف ببلاد الأندلس

٤ — الفتح العربي للمغرب

٥ — الفتح العربي للأندلس

أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

لتاريخ المغرب والأندلس أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الإسلامي العام والخاص . فبخصوص المغرب والأندلس دراستهما متصلة ووثيقة الصلة ، لأن ما كان يجرى في المغرب له صدى في الأندلس وما يحدث في الأندلس له رد فعل في المغرب .

وانضمام المغرب والأندلس الى الدولة الإسلامية الكبرى ، أعطاها طابعاً مميزاً وقسم الدولة الإسلامية الى قسمين كبيرين ، قسم شرقي له نظمه وحضارته وتقاليده ، وقسم غربي له مقوماته وثقافته ، ولعب القسم الغربي دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام ، فقامت الدولة الفاطمية في المغرب ، وانتقلت الى المشرق فسيطرت على مصر والشام والحجاز واليمن .

ومن ناحية التاريخ العام يتضح لنا أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس ، ذلك أن الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في المشرق ، انتقلت الى المغرب والأندلس ، وانتشرت العلوم والفنون العربية المتقدمة في الأندلس وصقلية وانتقلت الى أوروبا . وبذلك لعبت المغرب والأندلس دوراً كبيراً في ازدهار الحضارة الانسانية .

نظرة عامة حول بلاد المغرب

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الأغريق يسمون القسم الشمالي منها الذي كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الاحباش السود . أما لفظ افريقية ، فقد أطلقه الرومان على الأقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غرباً ، وكان يعرف باسم ولاية افريقية القنصلية ، وأطلقه العرب على كل ما يلي : طرابلس غرباً . ثم تحدد مدلول

أفريقية ، فأصبح في معظم المصادر العربية ، يعنى الأقليم الذى تتوسطه القيروان ، ويمتد من طرابلس حتى بجاية •

أما المغرب فيشمل كل ما يلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى وتتوسطه أفريقية • وقد أستخدم على تقسيم المغرب الى ثلاثة أقسام كبيرة ، بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة فى المشرق وهى :

١ — المغرب الأدنى ويسمى أيضاً أفريقية ويشمل تونس وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر وعاصمته القيروان أيام الأغالبه ، والمهدية أيام الفاطميين ، ثم مدينة تونس فيما بعد وحتى اليوم •

٢ — المغرب الأوسط ويشمل بلاد الجزائر ، ويمتد من تاهرت حتى وادى ملوية وجبال تازة غرباً ، وقاعدته تلمسان •

٣ — المغرب الأقصى : وعاصمة المغرب الأقصى ترددت بين مدينة فاس ومراكش ، فالأدراسة العلويون أسسوا مدينة فاس سنة ١٩١ م ، واتخذوها عاصمة لهم ثم جاء المرابطون وبنوا مدينة مراكش سنة ٤٦٣ م واتخذوها عاصمة ، والمغرب الأقصى يشمل المملكة المغربية اليوم التى عاصمتها الرباط •

ولفظ أفريقية مشتق من كلمة أفرى التى أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا وقرطاجنة ، ثم عممه اليونانيون بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسى •

أما لفظ المغرب فالمراد به ، هو كل ما يقابل المشرق من البلاد وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون فى تحديد مدلوله فجعله البعض يشمل بلاد شمال أفريقيا بالإضافة الى الأندلس وجميع الممتلكات الإسلامية فى حوض البحر المتوسط مثل صقلية وجنوب إيطاليا وجزيرتى سردينية وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية ، وقد اعتبر بعض المؤرخين مصر من بلاد المغرب ، باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية لهذه المنطقة المغربية فى الفترة الإسلامية الأولى • لأن الخليفة

هشام بن عبد الملك مثلاً ، قند عبد الله بن الحبحاب ولاية مصر والمغرب
والأندلس •

وفي العصر العباسي زاد مدلول كلمة المغرب ، فانضمت التسام الى
هذا القسم ذلك ان العباسيين قسموا مملكتهم قسمين ، وهما المغرب
ويشمل الشام ومصر وأفريقية وما يليها غرباً ، والمشرق ويشمل بلاد
فارس وما يليها شرقاً • ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السانفة
فان جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب
بالأراضي الإسلامية الممتدة غربى مصر الى المحيط الأطلسي • فهناك المغرب
الأفريقي والمغرب الأندلسي • وعلى هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية
هى الحد الفاصل بين المغرب والمشرق ، ولهذا عرفت بأسم باب المغرب ،
لأنها كانت معبراً لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدين اليها
سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج •

تبدأ أفريقية المغربية من حدود برقة الغربية شرقاً الى المحيط
الأطلسي غرباً ويحدها من الشمال البحر المتوسط ثم منطقة ساحلية ضيقة
تشمل إقليم التل ، ويحدها من الجنوب صحراء مترامية الأطراف هى
الصحراء الكبرى ويفصلها عن مصر برقة ، التى كانت امتداداً للصحراء
الغربية وتخترق هذه المنطقة سلاسل من الجبال العالية تمتد من مراكش الى
تونس ، مختركة المنطقة كلها من الغرب الى الشرق فاصلة السهل الساحلى
الضيق عن بقية البلاد حيث تكثر الاغوار ، بينما تحصر السلاسل بينها
سهولاً طولية ضيقة • لذا فطبيعة البلاد الجغرافية وعرة والدفاع عنها
ميسور ، بينما يتطلب الهجوم مشقات كبيرة •

أما سكان المغرب فيمكن تقسيمهم الى ما يأتى :

- ١ — الروم وهم البيزنطيون •
- ٢ — الأمازيغة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاق من المستعمرين
اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية
وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين •

٣ — البربر وهم سواد سكان المغرب •

أطلق الرومان اسم البربر على سكان بلاد المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، وينقسم البربر الى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضري ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويشغلون بالزراعة والصناعة ، والحضارة البيزنطية تأثير عليهم والبربر الرحل ويعيشون على الرعى ، ويميلون للاغارة وعلى ما يجاورهم من عمران ، وينقسم البربر عموماً الى قسمين كبيرين ، برانس وبتتر ، وينسب البرانس الى برانس بن بر كما يزعمون ، لذلك سموا برانسا ، ويسكنون المدن ، ويتأثرون بالحضارة البيزنطية • وأما البتتر ، فهم بدو ، يسكنون البادية •

وينقسم بربر البرانس الى سبع قبائل كبرى هي :

أوربه وآصنهاجه وكتامه ومصموده وأوريفه وأزدواجه وتعتبر قبائل صنهاجه أكبر قبائل البربر ، وقد غلب على صنهاجه التبدى ، وتفرقوا في بلاد المغرب •

ومن القبائل البرانسية الكبرى ، كتامه التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب فعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية وتنتشر قبائل البرانس في كل بلاد المغرب • ولكن بعض قبائلهم ، توغل في قلب قارة أفريقيا حتى تصل الى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، معظمها ينزل في مواضع زراعية متحضرة •

أما بربر البتر ، فينقسمون الى أربع قبائل هما : —

ضريسه ونفوسه ، وأداسه ولواته ، وتنزل هذه القبائل في السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التي تمتد من طرابلس الى تازة ، وينتشرون في إقليم النخيل الذي يمتد من غدامس الى السوس الأقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية ، وللبتربطون في داخل أفريقية وفي إقليم التل قرب طرابلس وعلى سفوح جبال أوراس •

والعداء بين البتر والبرانس قديم ، ويتمثل بصفة خاصة بين زناقته أكبر قبائل البتر وصنهاجه أكبر قبائل البرانس ، ويرجع سببه الرئيسي الى العداء بين البدو والحضر ، فالبتر يشنون الغارات بين البادية على المدن العامرة للبرانس ، والبرانس يتأثرون بالحضارة البيزنطية ، أما البتر فيتميزون بالبداءة • لذلك تقارب البتر من العرب بسرعة على حين حمل البرانس عبء المقاومة مع العرب • ولما آلت البلاد الى العرب أنضم البرانس الى الحركات المعارضة للدولة الاسلامية •

الفتح العربى للمغرب

كان من الطبيعى أن يتطلع عمرو بن العاص الى فتح أفريقية ، بعد أن أتم فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، وهو نفس السبب الذى ألح فيه عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب بفتح مصر بعد فتح الشام •

ذلك أن الشام ومصر وبلاد المغرب كانت تتبع الدولة البيزنطية ، فلما تم فتح بلاد الشام كان ضروريا فتح مصر لتأمين حدود الشام ، من الخطر البيزنطى فى مصر • ولما تم فتح مصر كان لابد من تأمين حدود مصر غربا ، أى فتح افريقية لحماية مصر من خطر بيزنطى فى غربها •

بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، قاد حملة لغزو برقة سنة ٢٢ هـ وفتحها وصالح أهلها على الجزية ، وواصل زحفه حتى فتح طرابلس بعد حصار دام شهرا لكنه انسحب بقواته منها عائدا الى مصر •

ولما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص ، سار على سياسة سلفه فى غزو أفريقية فسار الى برقة ، وكان يليها عقبة بن نافع الفهري من قبل وإلى مصر ، وضم الى جيشة حامية برقة ، وسار الى طرابلس ولكن الروم تصدوا للحامية العربية بقيادة جريجوريوس — حاكم افريقية الرومانى — أو جرجير — كما يسميه العرب •

رفع العرب حصارهم عن طرابلس ليتفرغوا لمقاومة الحاكم الرومانى ، ونشبت بين الفريقين معارك ضارية فى ظاهر ٠٠٠٠ سيطله بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة — وهى عاصمة أفريقية حينئذ • وهزم فى هذه المعركة القائد الرومانى وقتل سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م ، واستولى عبد الله بن سعد على سبيطله ودمرها تدميرا ، وبث جيوشه فى تلك الانحاء وصالح أهل هذه البلاد على الجزية • ولكنه لم يتخذ قاعدة اسلامية فى هذه البلاد ولم يعهد لاحد القادة المسلمين بحكم هذا

الاقليم ، انما انسحب عائدا الى مصر بعد خمسة عشر شهرا ، تاركا حامية في برقة وأخرى في زويلة .

ولكن الدولة الاسلامية توقفت عدة سنوات عن الفتح ، بسبب الفتنة الكبرى في عهد بن أبي طالب ، وثورة معاوية والخوارج عليه ، والتي انتهت بمقتله في رمضان سنة ٤٠ هـ .

حملة عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب

يجمع المؤرخون على أن معاوية بن أبي سفيان ولى عقبة بن نافع الفهري أفريقية سنة ٥٠ هـ ، وأمره بفتح هذه البلاد ويبدأ الفتح الحقيقي للمغرب بحملة عقبة هذه والجدير بالذكر أن انقواد الذين تولوا فتح المغرب ، بعضهم امتاز باللين والحكمة السياسية ، والبعض الآخر امتاز بقوة الشكيمة ، والمقاومة العسكرية دون السياسية ، وكان للجانب السياسى أهميته ، في تثبيت أقدام المسلمين في المغرب ، واندماج البربر في الحياة الاسلامية .

وعقبة بن نافع الفهري من الشخصيات الكبيرة في التاريخ الاسلامى فهو أحد رجال عمرو بن العاص الذين حاربوا معه في فتوحه الأولى في أفريقية ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، ومن أوائل المجاهدين في المغرب ، دخل برقة سنة ٢٣ هـ ، دون العشرين وشبارك في الغزوات التى شنّها العرب في أفريقية بمقدرة عسكرية فائقة ، وشجاعة منقطعة النظير .

وقاد الحملة التى أخضعت قبيلة لواته في طرابلس ، وانضم الى جيش عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وتولى حماية برقة منذ فتحها ، وظل مجاهدا مرابطا في سبيل الله ما يقرب من ربع قرن .

اتخذ عقبة بن نافع الفهري طريقه في داخل البلاد مباعدا الساحل ، ولقد لزم هذه الخطة في كل أعماله ، لأن السواحل مليئة بالحصون

والمحارس ، أما انداغل فليس فيه تحصينات قوية ، ومقاومة البربر في الداغل ، أقل من مقاومة البيزنطيين على الساحل • وجاز وهاد برقة على رأس عشرة آلاف مقاتل وسار في أقليم الواحات منتقلا دون أن يلقي مقاومة تذكر ، اذا لم يتوقعوا قدوم العرب في هذا الوقت ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيرا ، وتوغل غربا حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع الثغور والعواصم الأفريقية تباعاً وهزم جيوش البربر والروم التي اعترضته حتى استحق لقب « قاهر الروم والبربر » وتوغل في مفاوز المغرب الأقصى •

رأى عقبة ضرورة اقامة مدينة اسلامية جديدة في افريقية لتكون عسكراً للمسلمين وعزاً للإسلام حتى آخر الدهر ، فشرع في اخطاط هذه المدينة ، لتكون قاعدة لنشر الاسلام في هذه البلاد ، يلجأ اليها البربر لاعتناق الاسلام ، ودراسة تعاليمه على أيدي الفقهاء والوعاظ وانعلماء في مسجد القيروان الجامع وموضع القيروان يناسب المزاج العربي ، فهي بعيدة عن البحر وعن الخطر البيزنطي الكائن في الساحل ، ومن حيث قربها من الصحراء لتصعب محاصرتها • وموضع القيروان متوسط بين الساحل والهضبة القريب من السفوح الصالحة للرعى • ولهذا الموقع أهمية عسكرية ، فيمكن منه مراقبة تحركات العدو من بعيد ، ومباغتته اذا تطلب الأمر ، واتخذ منها — بالإضافة الى نشر الاسلام — قاعدة عسكرية يجمع فيها عدته وعتاده ، ويرسل منها التجريدات العسكرية لشحن الحملات الحربية ، والعودة الى القيروان بالغنائم ، واعداد الحملات من جديد وهكذا ظل عقبة بن نافع واليا على أفريقية خمس سنوات (٥٠ — ٥٥ هـ) (٦٧٠ — ٦٧٥ م) حيث عزله والي مصر مسلمة ابن مخلد ، الذي جمع له معاوية بين حكم مصر وأفريقية ، وعهد الى أبي المهاجر دينار بحكم أفريقية ، ويختلف هذا الأنصارى عن عقبة ، اذ يعتمد على السياسة في تعامله مع البربر أكثر من القوة العسكرية ، وأثبتت هذه السياسة نجاحها ، وأثمرت ، فهادن البربر واستمالهم ، ليضرب بهم العدو المشترك وهو الروم ، وبذلك استطاع أن يوجه قوة البربر وشدة

بأسهم في ضرب العدو القوى المتمثل في البيزنطيين ، وتجنب مواجهة عدوين في وقت واحد • ولجأ إلى الحيلة والدهاء في جذب البربر إليه فأقنعهم بأنهم — أي البربر — أقرب إلى العرب من الروم ، والعرب دخلوا المغرب ليحاربوا الروم ، وليس البربر ، وأنضم إليه كسيله — زعيم البربر البرانس — هو وقومه ، واعتنقوا الاسلام ، واعتنقته قبيلة أوربه • وهذا مكسب كبير للاسلام والعرب ، وزحف أبو المهاجر دينار وكسيله إلى تلمسان ، وفتحها • وبذلك اجتاحت المغرب الأوسط (الجزائر) واحتل مدنه الساحلية حتى بلغ تلمسان •

ولم يلق المؤرخون الأضواء على ولاية أبي المهاجر دينار التي استمرت سبع سنين (٥٥ — ٦٢ هـ) ربما لأنها تقع بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، ودور أبي المهاجر دينار في المغرب لا يقل عن دور عقبة •

ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة رأى ضرورة اتمام فتح المغرب فعزل أبا المهاجر دينار ، وأعاد عقبة بن نافع إلى حكم أفريقية لما عرف عنه من الشجاعة وقوة البأس وحسن البلاء •

اتخذ عقبة سياسة مخالفة تماماً عن سياسة سلفه ، فنظر إلى كسيله وقومه نظرة شك وريبة ، بل قبض على كسيله وعلى سلفه أبي المهاجر دينار • وبذلك انشق عليه البربر البرانس وقبيلة أوربه بالذات ، ومما لا شك فيه أن عقبة أخطأ في سياسته هذه ، فقد جلب على نفسه عداوة البربر البرانس بعد أن كانوا في عهد سلفه أنصاراً للعرب والمسلمين وسفري الآثار السيئة التي ستترتب على هذه السياسة •

ومهما يكن من أمر فقد قاد عقبة جيشه في حملة مشهورة في تاريخ المغرب ، وجاس خلاله من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسي ، وخاض في حملته هذه معارك ضارية وحرباً مريرة مع قبائل البربر ، فقد فيها طائفة من خيرة رجاله •

ولما بلغ عقبة ساحل المحيط ، وانتهى إلى ساحل المحيط دفع فرسه

الى الماء حتى بلغ نحره ، هنا أخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وتطلع الى تحقيق آمال عريضة للاسلام وأهله وقال : « اللهم انى اشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود ولو لا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك » .

عاد عقبة بجيشه الى القيروان ، ويبدو أن عودته المفاجئة سببها ما نرى الى علمه من حدوث قلاقل واضطرابات فى أفريقية ، وفى أثناء عودته ، مر بالجزائر ، واتخذ بها قاعدة اسلامية على غرار القيروان ، وهذه القاعدة هى تاهوده بالقرب من مدينة يسكره بالقرب من قسطنطينية ، وفرق عقبه قواته فى أنحاء المغرب ، وبينما ينسحب من الجزائر فى قلة من الجند ، فر من أسره كسيلة ، وقوى أمره وعظم بأسه بمن انضم اليه من البربر والروم ، وباغت عقبة — الذى كان فى قلة من الجند — ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين كسيلة وعقبة ، وحارب أبو المهاجر دينار الى جوار عقبة ، واستشهد فى هذه المعركة — التى دارت قرب تاهودة ، عقبة وأبو المهاجر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م .

ولا يزال موضع تاهوده يعرف بسيدي عقبة ، وهو عبارة عن واحة جميلة من النخيل ، وبها مقام هذا الفاتح العربى الكبير ، وزحف كسيلة الى القيروان ، واستولى عليها ، كما استولى على البلاد والمواقع التى آلت الى العرب ، وزال الحكم العربى من المغرب وذالت دولتهم ولكن الى حين .

لما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، رأى ضرورة استعادة بلاد المغرب والقضاء على مقاومة البربر فى هذه البلاد ، فعهد الى زهير بن قيس البلوى بحكم أفريقية وأمدّه بجيش ضخم كيما ينفذ الاستراتيجية الاسلامية فى هذه البلاد سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) والتقى زهير بن قيس بجيش كسيلة فى معركة انتصر فيها العرب على اعدائهم ، وقتل كسيلة وجمع من البربر ، ومزق البربر فى هذه المعركة كل ممزق ، وأرسل فرقاً من جنده فى أنحاء أفريقية لاختضاع البربر ، وأنهاء الفتنة ، واسترد القيروان ، وترك فيها حامية للدفاع عنها .

ولم يكد العرب ينتهون من اخضاع ثورات البربر حتى داهمهم خطر جديد أشد هولا وأقوى بأسا ، ذلك هو الخطر البيزنطى •

فالبيزنطيون لا يستطيعون الوقوف مكتوفى الايدى ازاء احتلال العرب لبلاد المغرب التى يخضع جزءا كبيرا منها لسيادتهم • ذلك أن البيزنطيين انتهزوا فرصة توغل المسلمين غربا ، وأمدهم قيصر قسطنطينية بأسطول من صقلية ، ونزلوا فى قرطاجنة ، ثم زحفوا على برقة فى حشد كبير ، وهزم الروم العرب شر هزيمة ، وقتل زهير وكثير من جنده ولم ينج من المعركة الا من لاذ بالفرار • ومرة أخرى يفقد المسلمون بلاد المغرب ، ويتوقف الفتح العربى لهذه البلاد بضع سنين • ونستدل من ذلك أن مقاومة البربر البرانس للعرب من ناحية والروم من ناحية أخرى قد صرفت المسلمين عن فتح هذه البلاد بعض الوقت ، يضاف الى ذلك أن الدولة الاسلامية فى أوائل عهد عبد الملك بن مروان شغلت بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وثورات الخوارج •

لم يكد عبد الملك بن مروان ينتهى من اخضاع الثورات فى دولته ، ويعيد اليها الأمن والطمأنينة ، والاستقرار والهدوء حتى تطلع الى استعادة فتح المغرب ، فولى عليها حسان بن النعمان النصابى وسيره الى أفريقية على رأس جيش كبير ، تذكر الرواية العربية أنه أقوى جيش سار الى أفريقية منذ بداية الفتح ، واخترق حسان بجيشه برقه ، واتبع سياسة أبى المهاجر دينار فى استمالة البربر ، وضمهم الى جانبه ، وضرب العدو المشترك بهم بدلا من مواجهة عدوين فى وقت واحد • ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى لبلاد المغرب ، تولى حكم هذه البلاد بين عامى ٧٨ — ٨٦ هـ •

انضم البربر البرانس الى العرب فى محاربة الروم ، وزحف الفريقان الى قرطاجنة فخر بها حسان ، وهزم الروم ، ولم تعد بذلك قاعدة للبيزنطيين يشنون منها الهجمات على العرب ، ولم يستطع المسلمون غزوها من قبل لمناعتها وحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية ، حيث كانت ترسل اليها الامدادات بسرعة •

لم يقف امبراطور الروم مكتوف الأيدي ازاء تدمير قرطاجنة لأن انهيارها هو فى الحقيقة انهيار للحكم البيزنطى ، ففى — كما قلت — قاعدة للعمليات الحربية البيزنطية والنفوذ البيزنطى فى بلاد المغرب ، فسير الامبراطور اليها جيتسا بقيادة يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة أرسلها ملك القوط ، الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ولم يستطع العرب التصدى لهذه القوة المتحالفة ، فانسحبوا الى القيروان ، واستقروا فيها حتى أرسلت دمشق اليهم الامدادات ، فعاودوا الهجوم على قرطاجنة وهزموا الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستولى حسان بعد قرطاجنة على المدن الساحلية ، وطرد الروم فيها ودمر تحصينات الروم القوية ، وخرّب قرطاجنة ، وفر الروم والنقوط وبذلك أخرج من الميدان عنصرا هاما من عناصر المقاومة فى المغرب ، وهو العنصر البيزنطى • وبهزيمة الروم تمكن حسان من سحق كل مقاومة بربرية ، واستعاد الاسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط •

عاد حسان بعد هذه الانتصارات الرائعة الى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم فى حملة قرطاجنة ، وعرف بظهور خطر جديد وهو خطر امرأة من البربر تعرف بالكاهنة ويختلف المؤرخون فى شأن الكاهنة اختلافا كبيرا ، بل يميل بعضهم الى انكارها أصلا معتمدا على ما يشوب اخبارها من أساطير ولكن تجمع الآراء على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذى قامت به أثناء فتوح افريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة فى حاجة الى كثير من التوضيح •

يبدو أن الكاهنة كانت زوجه لرجل من رؤساء القبائل ، وتوفى تاركا لها ولدين صغيرين استبدت بهما ، وحكمت القبيلة باسمهما ، وملكّت البربر خمسا وثلاثين سنة وهذه القبيلة هى قبيلة جراوه احدى قبائل البتر المقيمين فى الاوراش ، وكانت هذه القبيلة على صلة بالروم ، ويبدو أن الكاهنة كانت مسموعة الكلمة فى قومها ، مهية الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحتفظ بالامر لابنيها القاصرين •

ثورة كسيلة على العرب هى مقاومة البرانس المستقرين يعززهم

الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفاعهم كان عن النواحي العامة الفسيحة التي كان هؤلاء انبرانس يعمرونها ويفلحون ويرسلون سوائبهم في مراعيها وسفوحها •

أما ثورة الكاهنة فثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف احكام البيزنطيين ، وعجزهم عن اخضاع البتر في الصحراء والهضاب واثراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان الا حين تسامعت بمسير حسان اليها ، وأنها كانت مطمئنة في نواحيها ترقب مصير كسيله ثم مصير الروم على يد حسان فلما رأت حسان ينوى السير نحوها ، أخذت تستعد لقتاله وردة عن بلادها •

ويغلب على الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب اليها لأنها لم تكذ تتسامع بمسير حسان اليها حتى رحلت من الجبل في عدد لا يحصى ولا يدرك ، وحطت رحالها عند باغاية ، وهي مدينة حصينة على سفح الاوراش تقوم بين الجبال مقام الباب من الدار وقد أرادت الكاهنة من ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلين على الأوراش ، لكي نستمد منها العون ، أو تطلب النجاة عند الضرورة ، وأمرت بهدم باغاية حتى لا تسقط في يد العرب ، وهذا يدل على أنها كانت تحارب العرب منفردة دون عون من الروم • لذلك فحركة الكاهنة حركة بربرية صرفه لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الاسوار وانما اسلوبها هو اللقاء في الارض انفضاء بالحراب والسيوف •

والتقى حسان بالكاهنة على نهر نينى ، وكان لا يفكر أيضا في الاحتماء بالحصون •

كانت معركة نينى شديدة حامية اضطر حسان وجنده الى خوض غمارها ، وكانوا مجهدين من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا ضعفت عزائمهم ، ووهنت قواهم عن خوض هذه المعركة ، واذا اضفنا الى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون قوماً مثلهم واستثارت الكاهنة حماسهم بما لها من مكانة في نفوسهم وهيبة في قلوبهم وبذلك ثبت البربر للعرب ، وهاجموا

العرب هجموا لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب ، واضطروا الى التقهقر بعد قتال شديد ، وقتل من العرب كثيرون • ولم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الاوراش ، وانما تتبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية ، واطمأنت على سلطانها منه ، ثم عادت ادراجها • ولم تدخل الكاهنة القيروان ، وانما عم أهلها الفزع والهلع ، واستعدوا للرحيل من تهديد مرتقب وعادت الكاهنة الى الاوراش ، وهذا يدل على أن حركة الكاهنة كانت ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض عام ، وأقام حسان في طرابلس ينتظر المدد ، وينظم أموره هناك ، فشيد لنفسه منازل على مقربة من برقة سميت قصور حسان •

ولكن حركة الكاهنة لم تؤد الى هدوء البلاد ، وانما عمها الاضطراب ذلك ان الكاهنة ملكت افريقية ، وأساعت السيرة في أهلها ، فعارضها بعض البربر ، بل راسلوا العرب ولاحظت الكاهنة ان العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همتهم الى المدائن والنواحي العامرة يبذلون وسعهم في الاستيلاء عليها ، فاذا تم لهم ذلك ، انقضوا على الخيرات — والنفائس والاموال فانتهبوها ، ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً ، ثم ينصرفون بعد ذلك عن افريقية ، كأنما كانوا يأتون لهذا وحده ، فاعتقدت أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد الا امرا واحدا ، الأموال والغنائم والأسلاب والسبى ، فلا بد من قطع رجاء العرب في البلاد والقضاء على معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صافساً ، كأن لم تكن بالامس • وقد اخطأت الكاهنة في سياستها هذه ، وغاب عنها ان العرب أمة زاحفة الى الامام ، وان حركة الفتوح الاسلامية تسير قدما دون توقف ، وأن العرب يهدفون الى فتح بلاد المغرب ونشر الاسلام في هذه البلاد ، مهما كانت القضيضات ، ووجهت الكاهنة أهلها يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، وخرج يومئذ من النصارى والبربر خلق كثير مستغيثين بما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا في البلاد المجاورة •

أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً كبيراً ، فقد عارضها فريق كبير من أهل البلاد حينما رأوا الخراب والدمار قد عم حقولهم ومنازلهم ،

وتعقدت سبل معيشتهم ، وبلغ من استياء الناس من الكاهنة ، أن استتجد بعضهم بحسان ، وعارضوا الكاهنة ، وقاوموها فاضطرب الامر من يدها وعم الاضطراب البلاد ، ونظر البربر الى العرب كمضئفين ومنقذين من سياسة الكاهنة الغاشمة ، الامر الذى سيكون له أبعد الأثر فى اتمام فتح البلاد .

انتهاز حسان فرصة معارضة البربر للكاهنة ، واستتجاد بعضهم به ، وقاد جيشا ضخما سنة ٨٠ هـ ضم فريقا من البربر لمحاربة الكاهنة ، والتقى حسان بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس ، وهزمها شر هزيمة ، ونكل بقواتها ، وقتلها سنة ٨٢ هـ فى موضع يعرف ببئر الكاهنة فى جبل أوراس .

وجد الروم فى خروج حسان من أفريقية فرصة سانحة لاستعادتها ، ويسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الامبراطور انبیزنطى الجديد ليونتيوس ، قد اقلقه سقوط قرطاجنة فى يد العرب وتدميرها ، واسترد البيزنطيون مدينة قرطاجنة وقتلوا الحامية العربية التى فيها ، فاغار عليها حسان واستعادها وخربها حتى لا يعود الروم اليها .

اتخذ حسان سياسة رشيدة فى جذب البربر الى جانب العرب فولى على النواحي عمالا وولاه من البربر بل عهد بحكم الاقاليم لابناء الكاهنة ، ولكى يضمن حماية سواحل المغرب من الخطر البيزنطى تشيد ميناء تونس ، لتحل محل قرطاجنة وليبنى فيها أسطولا يغير على ساحل الروم ، فيشغلهم بأنفسهم عن الاغارة على أفريقية ، ولا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، وبهذا يستطيع العرب سكتها ، لانها ليست على البحر مباشرة ثم ان موقعها يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة ، وأعجب هذا الميناء اليونانى القديم حسان ، وأعاد تخطيطه ، وزودها بدار صناعة لبناء الأساطيل ، واستعان فى ذلك بألف أسرة من أقباط مصر الذين كانوا على علم وخبرة بالشئون الملاحية وبناء السفن . وهكذا أصبحت أفريقية بعد أن فتحتها العرب مثل الشام ومصر ، مركزاً تجارياً تخرج منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام فى غرب البحر المتوسط .

بعد أن أتم حسان فتح أفريقية ، نظم المشيخون العسكرية والادارية والمالية في البلاد ، وأنشأ الدواوين ، ورتب الخراج والجزية ووطد سلطان الحكم الجديد في التغور والنواحي ، ثم جدد مدينة القيروان ، وأنشأ بها المسجد الجامع ، ولبث في منصبه حتى توفي عبد الملك بن مروان ، ولما ولي الوليد بن عبد الملك ، أبقى حسان في منصبه ولما كانت أفريقية تابعة لمصر ، فقد عزل عبد الله بن مروان — وإلى مصر — انذى خلف عبد العزيز بن مروان ، عزل حسان بن النعمان سنة ٨٦ هـ ، وعهد الى موسى بن نصير بحكم بلاد المغرب •

يعتبر حسان بن النعمان — كما قلت — الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب ، فلما ولي موسى بن نصير هذه البلاد ، وجد نظاماً ثابتاً وقائماً واقتفى أثر حسان في معاملة البربر وسأوى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وجذبهم اليه ، واحسن اليهم واتخذ منهم جندا لجيشه ، وكان البربر هو العنصر الرئيسى في جيش طسارق بن زياد في فتح الأندلس كما سنرى •

يجب أن نشير اشارة سريعة الى نشأة موسى بن نصير ، فالرواية العربية تشير الى أنه من التابعين ، وولد سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب في قرية من قرى الجزيرة أو بوادى القرى من شمال الحجاز ، وينسب الى بكر بن وائل ، وأن أباه نصيرا كان ممن سباهم خالد بن الوليد في معركة عين التمر سنة ١٢ هـ ، وقيل أنه ينسب بطريق الولاء الى بنى لخم ، وتشير الرواية العربية ان نصيرا كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان وأعتقه •

تدرج موسى في بعض الوظائف قبل ولايته على أفريقية سواء الحربية أو الادارية وقاد بعض الحملات البحرية في عهد معاوية ، وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة ، ودخل في خدمة عبد العزيز بن مروان — أمير مصر — وتولى مكانة رفيعة في بلاطه حتى ولي أفريقية في سنة ٨٦ أو ٨٩ • ومنهما يكن من أمر فقد اضطربت بلاد المغرب بعد عزل حسان

وتولية موسى ، فاضطرب البربر من جديد ، وعادوا الى الثورة فسحق موسى الثورة في كل ناحية ، وأخضع هواره وزناته وصنهاجه وكثامه وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار الى طنجة وفتحها ، وكان العرب لم يصلوا اليها بعد ، وولى عليها قائداً عظيماً هو طارق بن زياد الليثي ، وطهر مغاور المغرب الأقصى من العصاة والمتمردين ، وأحرز في هذه الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، ولما هدأت البلاد ، وانتهت الثورات استمال اليه البربر وحشد في جيته آلافاً من البربر ، ونشر الاسلام بينهم وأقبلوا على الدين الجديد بحماس منقطع النظر . وانتشر الأمن في البلاد ، وحلت الطمأنينة محل الفتن والاضطرابات .

واهتم موسى بانشاء اسطول قوى ، قاوم هجمات البيزنطيين على طول سواحل المغرب بل هاجم جزر البليار وجزر ميورقه ومنورقه — وكانت من أملاك ملك أسبانيا القوطي — وسارت حملات أخرى الى صقلية وسردانية ، وعادت محملة بالغنائم والاسلاب .

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال أفريقية كله البر والبحر ، ولم يبق في يد النصارى من شمال أفريقية كله سوى ثغر سبته الواقع في نهاية البحر المتوسط شرقي طنجة وكانت يومئذ من أملاك أسبانيا .

نتائج الفتح العربى لبلاد المغرب

كان من نتائج الفتح العربى لبلاد المغرب تطور المجتمع ، وتغير عاداته وتقاليده بعد أن اندمج العرب والبربر . وكان لابد لهذا المجتمع الجديد أن يتخذ صوراً وأشكالاً متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة .

انتشرت اللغة العربية في بلاد المغرب ، نتيجة لهجرات القبائل العربية الى هذه البلاد ، ومما ساعد على انتشارها انها لغة الدين الجديد ، كما أن العرب سبغوا في جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة ، والناس كما يقول ابن خلدون تبع السلطان وعلى دينه ، فسار

استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة ومن عوامل انتشار اللغة العربية تعريب الدواوين الذي بدأ في عهد عبد الملك بن مروان ذلك أن عبد الملك شرع في صيغ الدولة بصيغة عربية بعد أن استقرت فيها الأمور ، واتسعت خبرة العرب وساعد تعريب الدواوين على ذبوع اللغة العربية وانتشارها فقد اقبل الموظفون من البربر على تعلم اللغة العربية حتى يستمروا في عملهم ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والادارة والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة .

انتشر الاسلام بين البربر بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب وأرسلت الخلافة فقهاء وعلماء ساهموا مساهمة كبيرة في نشر الاسلام ، وكانت الديانات الرئيسية في بلاد المغرب ثلاثة . المسيحية على الساحل واليهودية بين البربر البتر ، والوثنية والمسيحية بين البربر البرانس .

ورأى المسيحيون الوثنيون من البربر في الاسلام عقيدة بعيدة عن تعقيدات الكنية وفيها البساطة والوضوح تدعو الى فعل الخير ونبذ الرذائل والمؤاخاة ، وأدراكا للحقائق الأساسية انتمى تقوم عليها الطبيعة البشرية ، وأدى انتشار الاسلام بين البربر الى تحمسهم للدين الجديد ، فانضموا الى صفوف المجاهدين ينشرون الاسلام في غير بلاد الاسلام .

استغرق الفتح العربي للمغرب ثمانين عاماً منذ سنة ٢٣ هـ حتى نهاية القرن الأول الهجري ، وهي مدة طويلة اذا ما قورنت بفتح الشام والعراق ومصر ، الذي لم يستغرق أكثر من عشر سنوات ، وهذا راجع بطبيعة الحال الى عناد البربر وقوة بأسهم ، وشدة مراسهم ، وشدة مقاومتهم للفتح يضاف الى ذلك تصدى البيزنطيين للفتح العربي ، وتوقف الفتوحات العربية لبضع سنين ، نتيجة للفتنة الكبرى وفي عهد عبد الملك بن مروان فترة من الوقت لقمع ثورة عبد الله بن الزبير .

والخلاصة أن الفتح العربي للمغرب أوجد تغييرا شاملا في المجتمع

المغربى ، فدخل المغاربة فى دين الاسلام الامر الذى أوجد تقارباً بين الشعبين العربى والبربرى اللذان يتشابهان فى بعض الصفات والسمات ، وصارت للبربر نفس العقلية العربية ، وظهر منهم فقهاء وشعراء وخطباء ، وازدهرت المذاهب الدينية والسياسية المعروفة فى الدولة الاسلامية فى بلاد المغرب وصارت معاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الاسلامية .

وهكذا نرى أن الفتح العربى للمغرب قد غير الحياة المغربية تماماً ، بعكس الغزو الفينيقى أو الرومانى أو البيزنطى الذى لم يمس الحياة المغربية ، وكانت جيوش هذه الدول مجرد جيوش احتلال لا أثر ولا تأثير لها على البربر . أما العرب فقد نقلوا الحياة المغربية الى وضع جديد وعصر جديد . الفتح العربى للمغرب ثورة فى تاريخ البربر . فيها تحولت البلاد الى عهد مختلف تماماً عن العهد السابق ، تغير اجتماعى وثقافى وسياسى ودينى وأصبحت بلاد المغرب جزءاً من الدولة الإسلامية .

وكان لتغير وضع البربر أثره فى فتح الأندلس وساهم البربر مساهمة كبيرة فى هذا الفتح ، وكان معظم القادة منهم ، ورأوا فى ذلك فرصة للجهاد والحرب ، وأشبع فيهم موسى بن نصير رغبتهم فى الحرب والجهاد والحصول على الغنائم .

أسبانيا قبل الفتح العربى

كانت أسبانيا جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية الرومانية ، ولما سقطت روما في يد الجرمان ، استولى الجرمان على أملاك الرومان في ايطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وكانت أسبانيا من نصيب القوط .

والقوط إحدى القبائل الجرمانية التى نزحت من شمال أوروبا ويقال من استكنوا بالذات وبين القوط والوندال تشابه عظيم فى العادات والتقاليد ، مما يؤكد رأى القائل بانتمائها الى شعب واحد ، ونشط القوط فى عهد الامبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ – ٢٣٥م) وزحفوا صوب البلقان تدريجيا ، وزحفوا الى اليونان ، وألحقوا بها الخراب والدمار . وظلوا يواصلون العبث والرعب فى البلقان ، حتى دهرم الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير ، وأجبرهم على الانسحاب الى أقاصى داسيا سنة ٣٢٢ هـ ، وألقى فى قلوبهم الرعب ، وتتبعهم الاباطرة وأضعفهم ، وأجبرهم الهون على الفرار الى ضفاف الدانوب . وتعرضوا بعد ذلك لملاحقة القادة الرومان .

لكن القوط لم يستكينوا طويلا لما لحق بهم من ويلات وبطش وتكيل ، فقوى أمرهم واشتد بأسهم فى عهد قائدهم ألاريك ، وثاروا فى اليونان وراقيا ، وخرّبوا البلاد ودمروها ، وواصلوا زحفهم فى أوروبا حتى دخلوا روما سنة ٤١٠م ونهبوها . ولكن الامبراطور الرومانى هونوريوس عقد معهم صلحا ، بهمقتضاه تعهدوا بالهدوء والسكينة ، بل وافق على دخولهم فى الجيش الامبراطورى ، وساهموا فى قمع الثورات التى اجتاحت أوروبا ضد الامبراطورية الرومانية ، ثم استقروا فى أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهر اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز عاصمة لهم بموافقة الامبراطور وأقاموا فى هذا الاقليم مملكة قوطية خاضعة لروما . ومن أبرز ملوك القوط – تيود وريك الأول ولد ألاريك – الذى أشرنا اليه – وقسوى أمر

هذه المملكة في عهد تيود وريك الثانى الذى دخل أسبانيا ، وضمها الى مملكته الناشئة ، وطرد منها الوندال والسويف ، واعترفت الامبراطورية بالمملكة القوطية التى واصلت اتساعها حتى شملت شبه الجزيرة اليبيرية في نهاية القرن الخامس الميلادى . لكن الفرنج طردوا القوط من فرنسا ، وشملت مملكة القوط أسبانيا فقط متخذة طليطلة عاصمة لها ، وطبق القوط الأنظمة والقوانين الرومانية في أسبانيا ، واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون أسبانيا قرنين من الزمان حتى الفتح العربى .

لم يمتزج القوط بالشعب الاسبانى ، انما شكلوا أرستقراطية حاكمة تستأثر بثروات البلاد ، وتحالف القوط مع رجال الدين الذين أمتلكوا الضياع الشاسعة والارقاء ، وأراضيههم معفاة من الضرائب ، ووجه الاشراف ورجال الدين القوانين والنظم حسب مصالحهم الخاصة ، ووفق حياتهم الاقطاعية ، أما سائر الشعب فاما طبقة متوسطة تجار وموظفين يتقاضون الأجر الزهيد ، واما أرقاء يعيشون لخدمة سادة الأرض ، وأدوات انتاج لخدمة السادة رجال الاقطاع .

قاسى الشعب الاسبانى في ظل حكم القوط ويلات البؤس والحرمان والشقاء ، وكان عبء الضرائب يقع على عاتقهم ، بل ان القوط بعد أن حكموا أسبانيا تخلوا عن الروح الحربية والمقدرة القتالية التى تحلوا بها قبل مقدمهم الى أسبانيا ، وحينما حاربوا ضد الرومان والى جانب الرومان . واعتمد القوط على الشعب الاسبانى المكادح في الحرب واستكانوا الى الراحة والسكينة ، وأصبح قوام الجيش الاسبانى من الاسبان واليهود أنتظموا في سلك الجيش غير راضين عن حكومتهم التى سلبتهم حقوقهم المشروعة في الحياة الحرة الكريمة وكان من الطبيعى الا تخلص هذه العناصر المضطهدة في الحرب لصالح القوط ، بل تمنوا الخلاص من حكومتهم الظالمة الغاشمة وهذا يفسر أسباب هزائم جيش أسبانيا القوطى .

اشتد اضطهاد اليهود في أسبانيا ، وكانوا يشكلون الطبقة العاملة والتجار والمرايين ، وقاسوا صنوف الاضطهاد من القوط

وأجبروهم على التتصر أو النفي أو المصادرة فاعتنق النصرانيون كثير منهم كرها . ولما اشتد اضطهاد القوط لهم راسلوا يهود المغرب ودبروا معهم انقلابا ضد القوط ، ولكن أمرهم انكشف ، فز القوط في اضطهادهم في عهد الملك اجيكا سنة ٦٩٤م ، وأصد مرسوما بالتفكيك بهم ، وصاحر أملاكهم على اعتبار انهم خوة أعداء الوطن ، وفرض عليهم العبودية ، وحرر الارقاء النصرانيون من السادة اليهود ووهبهم بعض أملاكهم ، ونزع الابناء اليهود من السابعة لتربيتهم على النصرانية ، وألا يتزوج رجل يهودي نصرانية ولا تتزوج يهودية نصراني . وهكذا عاش اليهود في ظلم واضطهاد ، وتمنوا الخلاص من بطش القوط ، وناصروا العرب حينما قدموا الى أسبانيا ، واعتبروهم منقذين مخلصين .

وحينما فتح العرب بلاد المغرب ، واقتربوا من شواطئ أسبانيا ، كان يحكم المملكة القوطية في أسبانيا وتيزاوتسمية المراجع العربية غيطشه — وهو ابن الملك اجيكا — وكانت مملكة القوط في عهد هذا الملك في آواخر أيامها ، فرققتها الخلافات وعمتها القلاقل والاضطرابات ، وكثرت فيها الفتن ، وقضى وتيزا سنين حكمه في سحق معارضيه ، ومن خصومه الاقوياء تيود وفريد الذي نفاه الملك اجيكا الى قرطبة ، واستطاع الفرار ، والانضمام الى الثوار الناقمين على الملك ، وزاد أمر البلاد اضطرابا اقترب الجيش العربي المنتصر الظافر من شواطئ أسبانيا المضطربة ، وكان العرب قد حاصروا سبته وردهم عنها حاكمها القوطي يوليان ، وأمد وتيزا يوليان بخير جفده ، لأن سقوط سبته يشكل خطرا على بلاده ولكن الأمور في أسبانيا زادت اضطرابا ، وأعلن الثورة ضد الملك ، رودريك ابن تيود وفريد ، وانضم اليه المعارضون للملك ، وكانت ثورة قوية عنيفة ، بل نادى بنفسه ملكا وخلع وتيزا وقتله ، وولى الملك سنة ٧١١م .

هدأت البلاد بتولية رودريك الملك ، فتمكن من قمع الثورات ، والقضاء على الفتن في كل مكان ، واعادة الامن والطمانينة الى

الناس . وقد لجأ الثوار والمعارضون الى يولييان — حاكم
سبته والمضيق .

تختلف الروايات حول أصل يولييان فيرى البعض أنه يحكم
سبته نيابة عن الامبراطور البيزنطى ، ويعتقد البعض الآخر انه
قوطى يحكم سبته نيابة عن ملك القوط ، وينكر البعض وجود يولييان
على الاطلاق ، لأن أخباره لم ترد الا في القرن الثلثى عشر ، ولكن
الحقيقة ان يولييان شريفا نصرانيا ، حكم سبته نيابة عن ملك
القوط ، وأنه كان واسع النفوذ ، — يعتصم بالبحر لجأ اليه الاشراف
والمعارضون لحكم رودريك ، وكان من أنصار العهد القديم يعارض
حكيم رودريك ، ويرى ضرورة عبادة العرش الى بيت ويتر ،
فتحالف يولييان مع موسى بن نصير لعزل رودريك عن العرش .
وتضيف الرواية العربية سببا آخر لتحالف يولييان مع موسى بن
نصير ، يعتقد أرسل يولييان ابنته الحسناء فلورندا الى بسلام القوط في
طليطلة لتلقى ما يليق بها من التربية والتعليم بين البنات الأسر
الارستقراطية ولكن رودريك أفتتن بجمالها ، واعتدى على عقابها
فغضب يولييان ، ورأى ضرورة الانتقام من رودريك . وبعض
الروايات تذكر هذه الرواية من أساسها ، وتعتبرها من نسج خيصال
الرواة . ولكن الرواية الأسبانية لا تنكرها وترجع الى القرن الثامن ،
ويؤيد بعض الكتاب الاوربيين هذه القصة ، وينكرها البعض الآخر .

وهما يكن من أمر يمكن أن يكون سبب موقف يولييان من الفتح
العربى لاسبانيا راجعا الى مناصرة يولييان للعهد القديم وانصاره ،
ومعارضته للعهد الجديد ، فضلا عن قصة فلورندا . وكان تدخل
يولييان أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لاسبانيا .

الاندلس :

المراد بلفظ الاندلس اسبانيا الاسلامية بصفة عامة ، أطلق هذا
اللفظ في بادئ الأمر على شبة جزيرة ايبيريا كلها ، على اعتبار
أنها كانت جميعا في يد المسلمين ، ثم أخذ لفظ اندلس يكل مدلوله

الجغرافى شيئاً فشيئاً تبعاً للوضع السياسى الذى كانت عليه الدولة الاسلامية فى شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قابراً على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهى آخر معقل للمسلمين فى الأندلس فى الركن الجنوبى العربى من شبه الجزيرة الأيبيرية .

• وكلمة أندلس اشتقتها العرب من كلمة أندلوس وهى الاسم قبائل الوندال الجرمانية التى اجتاحت أوروبا فى القرن الخامس الميلادى ، واستقرت فى السهول الجنوبية الاسبانية وأعطت اسمها ، ولما فتح العرب أسبانيا ، عربوا هذا الاسم ، وسموها الأندلس .

ويلاحظ أن حكم المسلمين للأندلس دام أكثر من ثمانية قرون ، ولهذا تركوا فيها آثاراً مادية وروحية وخلقية واضحة المعالم ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية التى استقر فيها العرب الى آخر أيامهم ، فالسمات والمعادن واللغة والموسيقى والاعانى والصفات العربية يلاحظها بوضوح كل من اتصل بالاسبان ، وعاش بينهم . واللغة الاسبانية تحوى على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا التعبيرات والصيغ العربية الموجودة فى تلك اللغة . ولا تزال توجد عائلات مسيحية اسبانية تحمل أسماء عربية مثل بنى حسن وبنى لُمية . أما أسماء الاماكن العربية والمغربية فلا تزال فى كل قرية وفى كل ناحية من الأراضى الاسبانية .

• وتقع شبه جزيرة أيبيريا فى جنوب غرب أوروبا ويحدها من الشرق البحر المتوسط ، ومن الغرب المحيط الاطلسى ويفصلها عن فرنسا شمالاً جبال البرانس ، التى تتخللها ممرات ومضائق تصل بين البلدين . وهذه الجبال جعلت أسبانيا فى شبه عزلة عن أوروبا ، وتحيط بأسبانيا مياه البحر المتوسط والمحيط الاطلسى من الشرق والغرب والجنوب حتى أطلق عليها العرب جزيرة أسبانيا .

• وقد استغل المسلمون طبيعة أسبانيا الجبلية فى تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الانهيار التى

تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق الى الغرب أو العكس خطوط دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال فقامت على هذه الوديان مدن هامة ، كإلنت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل سرقسطه وطليطله . وفي أقصى الجنوب تجد نهر الوادي الكبير الذى تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة وأشبيلية وقادس .

ويعتبر جبل طارق حلقة الوصل بين المغرب والأندلس ويقع هذا الجبل في أقصى جنوب إسبانيا ، وكان يسمى الجبل المجوف Mons calpe ثم أطلق عليه المسلمون اسم الصخرة وجبل الفتح وجبل طارق وفرضة المجاز . واسم جبل طارق هو الاسم المعروف حتى الآن في جميع اللغات Gibrattar نسبة الى فاتح الأندلس العظيم طارق بن زياد .

أما المضيق نفسه فيعرف قديما بأعمدة هرقل نسبة الى الجبال المحيطة به ، وأطلق عليه العرب مضيق جبل طارق وطوله ٨٠ كم ، وغرضه حوالى ١٥ كم .

وكما يقول الدكتور أحمد مختار العبادي أن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما فكل من اللقطين يعتبر منطقة أمان للأخرة وامتدادا له في الدم والجوار والأخذ والعطاء وفي الضلالت التاريخية والتكوينات الجغرافية والجولوجية والمواقع الاستراتيجية رغم وجود هذا المضيق بينهما . ولهذا نشب صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوربي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق ، والمعروفة باسم البذوتين ، غدوة المغرب وغدوة الأندلس ، والغدوة معناها الجانب أو الشاطئ .

الفتح العربى لاسبانيا

الاسلام في نهضته الشاملة ، وببروحه للفياضة الشجاعة التي بثها في نفوس أهله يكسب للمسلمين ولدولة الاسلام أرضا جديدا في كل سنة بل وفي كل يوم ولما فتح المسلمون للشام لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا الى مصر ، ومن مصر فتحو المغرب ولما تم فتح المغرب رأى موسى بن نصير أن يواصل انتصارات المسلمين وجهادهم فيها وراء المضيق ، في عالم جديد غريب على المسلمين كل الغرابة ، وشجعه على ذلك القضاء الذي تم بينه وبين يوليان حاكم سبته ، والتحالف بين الرجلين كان تحالفا فريدا من نوعه ، يوليان يتطلع الى القضاء على عرش ملك القوط ، مستعينا بقوة المسلمين المتقدمة والضرورية ، وموسى يريد أن يستغل تحالف يوليان معه في تحقيق حلم الاسلام الكبير ، وهو الانتشار في شتى البلاد والبقاع ، والزحف الى الامام دون أن يعوقه عائق ، ويحول دون حائل

بعد أن أتم موسى بن نصير فتح طنجة ، تطلع الى فتح سبته ولكنه لم يستطع لمناعتها وبينما هو يستعد لاعادة الكرة جاءت رسالة من يوليان يعرض عليه مشاركته في فتح أسبانيا ويرغبه في الغنائم التي قد يحصل عليها من وراء هذا الفتح . والراجح أن يوليان لم يكن يقصد أن يساعد موسى على فتح أسبانيا ، وانخالها في حوزة العرب ، ولكن يوليان كان يقصد أن يساعد موسى في التخلص من رود ريبك ، والانسحاب بعد ذلك من أسبانيا وكان يعتقد أن العرب يشنون الغارات لأجل الحصول على الغنائم ، ثم ينسحبون الى مواقعهم أما موسى فحينما وصلت رسالته رسالة يوليان ، وجد الفرصة سانحة لتوسيع ملك الاسلام فيما وراء البحر .

ومهما يكن من أمر فقد قابل موسى يوليان ، وتختلف الروايات حول مكان المقابلة ، فالبعض يرى أنها تم في عرض البحر ، ويرى آخرون أنها كانت في سبته ، ويرى البعض أنها تمت خارج سبته ،

ولا نعرف بالضبط ما الذى دار فى هذه المقابلة • ولكن يفهم من سير الاحداث أنهما اتفقا على غزو أسبانيا ، وتمهد يوليان بتقديم السفن والادلاء وكل مساعدة ممكنة • وأغلب الظن أن يوليان حرص موسى على التخلص من رود ريك والانسحاب فورا ، وانهاء مهمته عقب ذلك • لكن موسى كان يضمّر استغلال صاحبه فى تحقيق مشروع كبير ، وهو التوسع فيما وراء البحر • وأطلع يوليان موسى على ضعف أسبانيا ، ومعارضة الأهلين للحكم القوطى ودله على نقاط الضعف فى هذا البلد الفسيح •

لما اقتنع موسى بهذا المشروع الكبير ، كتب الى الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى فتح أسبانيا ، فكتب اليه الوليد أن يختبره بالنسراية ، والا يزوج بالمسلمين الى أهوال البحر ، ونزل موسى على نصيح الخليفة فى اختبار الفتح الجديد بالنسراية •

عهد موسى الى احمد جنده ، وهو طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبى زرة ، وأمره بشن الغارة على سباحت أسبانيا الجنوبية ، فعبر طريق المضيق فى مائة فارس وأربعمائة رجل فى رمضان سنة ٩١ هـ ٧١٠ م وهناك فى المكان المعروف بالسسمه حتى اليوم نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التى تليها الى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبيا ومالا كثيرا ، وعاد سالما •

أثبتت هذه الحملة الاستطلاعية اخلاص يوليان اذ قدم لطريف السفن والارشادات اللازمة ، كما أن هذه الحملة لاحظت ضعف المقاومة فى أسبانيا ، وتدهور البلاد وامكان غزوها •

شجعت هذه الحملة الاستطلاعية موسى بن نصير على إعداد جيش كبير لفتح أسبانيا فجهز جيشا من العرب والبربر يبلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل ، وأسند قيادته الى طارق بن زياد اثليثي — حاكم طنجة — ويختلف المؤرخون حول نسب طارق بن زياد فيرى البعض أنه فارسي من همدان ، وأنه مولى لموسى بن نصير ، وتشير رواية أخرى وهى الأرجح أن طارقا من البربر ، ومن قبيلة نفزة

بالذات ، وأنه تلقى الاسلام عن أبيه زياد ، وهذا عن أبيه عبد الله
وبعد عبد الله تدخل في أسماء بربرية محضه حتى تصل الى بقعته
وهي القبيلة التي ينتسب اليها .

كان طارق بن زياد جنديا شجاعا ، وقائدا بارعا ، وقبله غطز
موسى الى مواهبه وولاه طنجه ، وهي أمنع حصون المغرب ، وتقف
في بقعة استراتيجية تحتاج الى مقدرة دفاعية كبيرة ، ثم أسند
اليه مهمة فتح الاندلس ، وقاد جيشا كبيرا وعبر جندهم المضيق في سفر
يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه الى اليوم .
وهي جبل طارق سنة ٨٩٣ م - ٧١١ م ، واخترق طارق المنطقة المجاورة
بمعاونة يوليان وارشاده وتمكن من اختراق بلاد البزيرية ، واستولى
على قلاعها ، وهزم قائدها القوطي تدمير ولما أدرك ولاية ملك القوط
في هذه المنباطق خطر لنزحف الاسلامي ، وما قد يؤدي ذلك الى
زوال ملك القوط ، أرسلوا الى تيود وريك - ملك القوط الذي كان في
بعض الولايات الشمالية ، لقمع الفتن فيها يخبروه بخطورة الموقف ،
فعاد الملك بسرعة الى طليطلة وأعاد تنظيم قواته .

تغلب طارق بن زياد على كل مقاومه اعترضته ، وواصل زحفه الى عاصمة
القوط ، وأعيد ملك القوط جيشا قويا يقبيل مائة ألف مقاتل
أو تسعون ألفا ، وسارع الجيش لوقف النزحف الاسلامي ولما علم
بضخامة جيش القوط ، استنجد بموسى فأمدته بخمسة آلاف جندي ،
فقتل جيش الاسلام اثني عشرة ألفا ، وانضم اليهم يوليان في قوة
صغيرة من أنصاره وجنده .

دار اللقاء بين جيش القوط الكبير وقوة المسلمين الاقل عددا
على ضفاف نهر وادي لكه أو وادي بكة . وفي هذا الموقع دار اللقاء
التاريخي الحاسم بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية في
رمضان سنة ٨٩٣ م ، وغرق النهر بين الجيشين .

دارت مناوشات بين الجيشين استمرت عدة أيام ، ثم نشبت
المعركة الحاسمة التي انتهت في اليوم السابع من بدأ القتال ، وتوكل

جيش القوط تمزقه الخيانات والخلافات والكراهية للملك ، وعدم الاخلاص في الحرب ، وتمنى كثير من جند الملك القوطى هزيمته ، واستطاع يوليان في المعركة أن يستميل بعض الجند ، وأدى انقسام الجيش الى هزيمته ، ومزق المسلمون أعداءهم كل ممزق ، ولم ينج إلا الشريد ، أما الملك فتختلف الروايات في مصيره ، فيقول البعض بأنه عرق في النهر ، والبعض يقول أنه قتل ، ويذهب البعض الى أنه هرب الى البرتغال ، وترهب في بعض الأديرة متخفيا حتى وفاته . . . وتسمى هذه الموقعة وادي لكة أو وادي يكة أو موقعية شيوخه ، وكان من أهم نتائجها زوال ملك القوط ، وسقوط المدن الإسبانية في أيدي المسلمين الواحدة تلو الأخرى تساقط أوزاق الخريف .

ألقت هذه الموقعة الرعب في نفوس القوط ، فامتنعوا بالحبصون والجيال ، وقصدوا الى الهضاب والسهول ، وذاغت أنباء النصر في بلاد المغرب ، فزحف الى الأندلس عدد غفير من الجزيين والعرب ، وانضموا الى الجيش المنتصر ، واشتبك المسلمون مع القوط في موقعة استخف ، مجاولة من القوط لدرء المسلمين عن بلادهم ، ولكن الدائرة دارت على القوط مرة أخرى ، الأمر الذي يسر للمسلمين أمر فتح المدن الأسبانية المدينة تلو الأخرى .

زحف طارق بن زياد الى طليطلة ، على حين أرسل منيف الرومي - مولى الوليد بن عبد الملك - الى قرطبة ، فهدم أسوارها ، واقتحمها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى الى البيرة وعزناطة ومالقة ، وتم فتح هذه البلاد ، وغاوى اليهود المسلمين في هذه الحروب لأنهم - كما قلنا - يرجون زوال ملك القوط ، وكان المسلمون يفتنون في كل مدينة يفتخونها حامية صغيرة لحمايتها وتمنع أي مجاولة قوطية ، لاستبقر أدها ، ثم زحف المسلمون شرقا الى مرسيه وكانه تسمى تدمير نسبة الى حاكمها ، ولكن هذا الحاكم قلوب المسلمين بعناء وضلابة ، ولم ينقطع المسلمون فتح البلاد ، بل اتبعوه عليها بغير غم مناصرة أعداء المسلمين .

وكانت مقاومة القوط قد اعتراها الوهن والضعف ، وهذا يفسر لنا دخول طارق بن زياد طليطله ، والاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وقد فرت حاميتها وهرب سكانها الى القرى والجبال المجاورة ، ووجد المسلمون المدينة خالية من سكانها ، وغنم المسلمون مغانم وفيرة من القصور والكنايس تسهب المراجع العربية الخديثة عنها •

خشى طارق أن يقطع عليه العدو الطويق في هذه البلاد الجبلية الوعرة لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتصب المسلمون من الجهد الذي بذلوه وأثقلتهم الغنائم التي جمعوها ، ويرى البعض أن طارق استنجد بموسى بن نصير غير أن بعض المصادر تشير الى أن موسى بن نصير هو الذى أمر طارق بوقف الفتح ، أما جوملا على عدم المتوغل بالمسلمين في مجاهل تؤدي الى تدميرهم أو حقدًا على أن ينال طارق شرف فتح الأندلس •

ونحن نرجح أن موسى بن نصير الذى عرف عنه الحذر ، طلب من طارق التوقف حتى يلحق به لدراسة الموقف على الطبيعة ولتحديد امكانية مواصلة الفتح أو التوقف عند هذا الحد • ومهما يكن من أمر فقد عبر موسى مضيق جبل طارق على رأس عشرة آلاف مقاتل من العرب وثمانية آلاف من البربر في سفن صنعها خصيصا لهذا العمل ، يحفزه شرف الاشتراك في الفتح على الرغم من أنه بلغ من العمر أرذله ، وتزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ٥٩٣ م — ٧١٢ م ، وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونه ، ثم قرمونه — وهى حصن منيع — فاستولى عليها ، وفتح أشبيلية بعد حصار دام شهرا ، وفتح ماردة بعد لائى وعناء سنة ٩٤ هـ والتقى موسى بطارق على مقربة من طليطله ، وتشير الرواية العربية الى أن موسى أنيب طارقا بل بعضهم يقول أن موسى زج طارقا في السجن ، ولكنه ما لبث أن عفا عنه ، ثم اشترك القائدان الكبيران سويا في مواصلة فتح ما تبقى من بلاد الأندلس ، وزحفا نحو الشمال الشرقى ، واختربا ولاية أراجون واستوليا على سرقسطة ووشقة ولا رده حتى بلغت شاطئ البحر الشمالى عند حدود فرنسا الجنوبية •

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت
أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ،
فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه
عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر سنة ٨٩٤ — ٨٧٤ م .

وكان موسى طموحا يتطلع إلى عبور جبال البرانس والاندفاع
في غزو أوروبا ، ولكن الخليفة عارض هذا الرأي خوفا من العاقبة
الوخيمة . أما ابنه عبد العزيز بن موسى ففتح الجزء الشرقي من
الجزيرة . وبذلك تم فتح شبه جزيرة أسبانيا كلها إلا الجزء الشمالي
الغربي الذي يسمى جاليقية . فكانت هذه النقرة التي تركها العرب
لبردها ووعورتها ، نواة للدولة المسيحية الأسبانية التي ما زالت تتمو
وتترعرع حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون .

ويرى سافدرا أن حملة طارق بن زياد جاءت بمدة للأسرة
الملكية القديمة ، وعونا لها على اعدائها إلى الملك . ولما زحف موسى
إلى الأندلس اتخذت الحملة صفة الفتح ولذا ثار الأسبان في المدن
الكبرى مثل أشبيلية وطليطلة وغيرها مما اضطر العرب إلى فتحها من
جديد ، ومن هنا أصبحوا فاتحين لا محدين كما كانوا من قبل .
وكافأوا أسرة يوليان والأسرة الملكية القديمة المكافآت والضياح
والامتيازات على مساعدتهم في الفتح . ولكننا نرد على كلام سافدرا
بأن العرب جعلوا فاتحين لا محدين ، وأن فتح الأندلس جزء من سياسة
المسلمين للكبرى التي بدأت منذ فجر الإسلام وهي مواصلة الفتح ،
ونشر الإسلام في غير بلاد الإسلام .

وهكذا فتحت الأندلس في أربع سنوات من ٩١ — ٨٩٥ م .

تختلف الروايات حول البواعث والأسباب التي دفعت الوليد
ابن عبد الملك إلى استدعاء موسى وطارق إلى دمشق ، فيشير بعضها
إلى الخلاف بين طارق وموسى وخوف الخليفة من أثر هذا الخلاف
على موقف المسلمين في الأندلس . وتشير رواية أخرى إلى أن الخليفة
خشى من قول موسى بالمسلمين في أراضى بعيدة خاصة عن بعض

دمشق وتشير رواية أخرى - وهي الأرجح - من أن الخليفة خشي من أن يستغل موسى بهذه البلاد النائية البعيدة ، وقد عرفت عنه الطموح .

امتثل موسى لأمر الخليفة ، وكانت عنده - رغم شيخوخته - أمثال عراض ، ففكر في اختراق جبال البرانس ، وأن يقتحم أمم النصرانية في فرنسا وإيطاليا واليونان وغيرها ويصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية ، وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة عربية ولم تكن هذه الخطة مستحيلة تحقيقها في ذلك الوقت . ذلك أن دولة الفرنجة في فرنسا وألمانيا - وانلومبارد في إيطاليا - وممالك النصرانية الأخرى كانت كلها ضعيفة ، ولا تستطيع التصدي لقوة المسلمين المتفوقة في ذلك العصر .

وتختلف الروايات حول مصير موسى بن نصير ، فتذكر بعض هذه الروايات أنه قُوبل في دمشق بالترحاب ، وتذكر روايات أخرى أنه غُومل بقسوة في دمشق لا تتناسب إطلاقاً مع الدور الكبير الذي أداه في خدمة الاسلام وأهله .

فقد وصل موسى إلى القسطنطينية إلى دمشق في موكب من الجنائيم لم يشهد التاريخ له مثيلاً يتمثل في الأسرى من أبناء وبنات وملوك القوط والذهب والفضة وغير ذلك مما لا يمكن حطاله ، وتشير الروايات إلى أن موسى اقترب من دمشق ، وكان الوليد بن يزيد بن مروان يطلب منه ولي عهد سليمان بن عبد الملك أن يتملأ حين وفاة الوليد حتى يحصل هو - أي سليمان - على دمشق الجنائم . ولكن موسى رفض طلب سليمان ، وبخيل دمشق والوليد على قرأش الموت ، ولما توفي الوليد وولى سليمان غازي - غضبه على موسى وأساء معاملته ، وزجه في السجن وطلبه بهائل الكثر ، وتامسقاط موسى تسديد بغض ما عليه ولجأ إلى بعض القضاة لطلبها بمعاونته على تمديد باقي ما عليه . ثم عفا عنه وثوفي الشيخ بعند أن تجمداً من العمر ثمانين عاماً بعد أن أدى ذواره بطوليا . يذكره التاريخ بفخر وأعزاز الخدمة الوطنية .

كان موسى بن نصير من أعظم رجالي الجيوب والامارة للمسلمين في القرن الأول — الهجري ، وظهرت خلوفته الفائقة في معرفة نفسية الشعوب وبراعة في سياستها وقادتها وكان عالماً في الحديث والفقه والشعر والأدب والفلك .

أما مصير طارق بن زياد فالروايتان العربية والاسبانية لا تشير كل منهما اليه بشيء ويبدو أن أمره أهمل في دمشق وأنه قضى بقية حياته في زوايا النسيان ، وأسيئت معاملته رغم مقدرته العسكرية الكبيرة ورغم جهوده الجبارة في فتح بلاد المغرب والأندلس . أما نصير الكوفة يولييان ، في بعض الروايات عاد إلى تسبته بعد الفتح ، وأقطع ما حولها من الأراضي ، وقلده أمارتها جزاء لخدماته ، وبقي على دينه ، غير أن عقبه دخلوا في الإسلام ، ويقول الرواية أنه قتل في صراع مع مواطنين أو قتل ، بعد ذلك بأعوام في ولاية الجير الثقي بيد العرب الذين ارتابوا في ولايته .

كان عبد العزيز بن موسى بن نصير أول ولاية الأندلس على المسلمين ، وأسس خلف موسى ابنه عبد الله على أفريقيا ، وأقر سليمان ابن عبد الملك هذا الاختيار ، وكانت مهمة عبد العزيز ضخمة شاقة ، فقوى الحصون ، وجهاز الحاميات العسكرية بما يحتاج من مؤن ومعدات ، وقمع الثورات ، وأعاد الهدوء والطمأنينة التي التفتلاد ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية ، وشيخ الخراج بين العرب والاسبان وتزوج بالملكة ايجلونا — أرملة رودريك ملك القروط واختار اسبيلية أول عاصمة للأندلس ، وأقيم بل المهاجرين على الأندلس من العرب والبربر ، واستقروا بالوطن الجديد ، واستغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة .

ولكن العرب في أسبانيا غرضوا حكم عبد العزيز بن موسى ، واتهمه بعضهم بالانقياد لزوجته ، بل رد البعض أنه تنصر ولكن الأقرب إلى الحقيقة أن المشاجرة كانت حول نواياه في الاستقلال بالأندلس ، ويغزو لها ضلته الشبهانية من الخلافة التي انشغلت بأجاء

موسى • فمهما يكن من أمر فقد هاجمه الثوار في مسجد أشبيلية وقتلوه سنة ٨٩٧ هـ • وأرسلوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك بدمشق مما يدل على أن أصابع سليمان لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة خصوصا وأن سليمان عزل عبد الله بن موسى في هذه الأونة •

نتائج الفتح العربى للأندلس

من الناحية السياسية سقطت مملكة القوط ، وتحولت أسبانيا الى ولاية تابعة للدولة الاسلامية الكبرى ، يحكمها ولاية يعينهم والى أفريقية أو والى مصر ، لان أسبانيا كانت أحيانا تتبع والى أفريقية وأحيانا تتبع والى مصر •

أدى الفتح العربى للأندلس الى تغير شامل في المجتمع الاسبانى فلم يعد ينقسم المجتمع الى طبقة أرستقراطية تتمثل في القوط ورجال الكنيسة وطبقة متوسطة تعمل لحساب الارستقراطية وتتقاضى الأجر القليل ، وطبقة دنيا من الاقنان والارقاء ويهود ناقمين على الحكومة لاضطهادهم ، وانما ذابت الفوارق بين الطبقات في المجتمع الجديد وانقسم المجتمع الى العرب وهم الذين ساهموا في الفتوح أو هاجروا الى أسبانيا واستقروا فيها بعد الفتوح ، والبربر هم أهل المغرب الذين ساهموا في الفتوح •

والاسبان سكان البلاد الأصليين وقد تعلموا اللغة العربية لغة الغاتخين وسموا بالمستعربين وبقوا على دينهم ، لا يتعرض لهم العرب بسوء ولا يحملونهم على اعتناق الاسلام ، لانه لا اكراه في الدين ، وانما بقى من أراد على دينه بشرط دفع الجزية وثمة طبقة أخرى وهى طبقة المولدين ، ونشأت هذه الطبقة الجديدة من تزاوج العرب بالاسبان ، فحملوا مزايا الجنسيتين ، وكانوا نتيجة لاختلاط الدماء العربية بالأوربية •

ومن نتائج الفتح الاسلامية للأندلس تحسن الأوضاع الاقتصادية في الأندلس ، فأعيد توزيع الأراضي الزراعية بين العرب

والبربر والاسبان ، ولم يعد الاسباني يزرع لصالح الارستقراطية التي لم تكن تترك له سوى النزر اليسير مما لا يكاد يكفي احتياجاته أما العرب فقد تركوا الأرض في يد الاسبان يزرعونها ويؤدون خراجها الذي حدد بنسبة المحصول وجودة الأرض وبعده أو قربته من مصادر المياه .

وأدى الفتح العربي الى انتشار اللغة العربية والاسلام ، وظهور الحضارة الاسلامية في الأندلس تحريجيا ، وكانت أسبانيا قبل الفتح تعيش في ظلام الجهل . ولكن الاسلام أضاء بنوره هذه البلاد وأدى الى ظهور العلم والثقافة وانتشار الحضارة الاسلامية .

عصر الولاة في الأندلس

تُعَرَّفُ الفَتْرَةُ الْأُولَى لِلْحُكْمِ الْأِسْلَامِيِّ فِي الْأَنْدَلُسِ بِعَصْرِ الْوَلَاةِ وَهِيَ فِتْرَةٌ مُضْطَرِبَةٌ كُلُّ الْأَضْطِرَابَاتِ ، سَادَتْ فِيهَا الْأَقْلَاقُ وَالْفَقْلُ وَانْقَلَبَ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ ، وَاشْتَدَّ هَذِهِ الْفِتْنُ ضَرَاوَةُ مَا حَدِثَ بَيْنَ الْغَرْبِ وَالتَّيْرِيزِ ، وَكَانَ أَمِيرُ الْقَيْرَوَانِ هُوَ الَّذِي يُعَيِّنُ وُلَاةَ الْأَنْدَلُسِ فِي أَغْلِبِ الْأَحْيَانِ ، عَلَى أَنْ أَهَمَّ مَا يُمَيِّزُ هَذِهِ الْفِتْرَةَ هُمُ غَزَوَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي فَرَنْسِيَا أَوْ فَنْمَا وَرَاءَ إِبْرَاهِيمَ ، لَمَّا قَتَلَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى ، وَلِيَّ الْأَنْدَلُسِ ابْنَ عَمَّتِهِ أَيُّوبَ ، ابْنَ حَبِيبِ اللَّخْمِيِّ سَنَةَ ٩٧ هـ ، وَحَكَمَ الْبِلَادَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فَقَطْ ، وَاليه يَنْسَبُ بِنَاءُ قَلْعَةِ أَيُّوبَ فِي جَنُوبِ سَرَقِسطِهِ شِمَالِ أَسْبَانِيَا ، وَهِيَ الْآنَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ لَا تَرَالُ تَحْمِلُ اسْمَهُ ، ثُمَّ خَلَفَهُ الْحَرْبِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّقَفِيُّ حَتَّى سَنَةِ ١٠٠ هـ ٧١٩ م ، وَخَلَفَهُ السَّمْعُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ نَسَبُهُ إِلَى قَبِيلَةِ خَوْلَانَ الْيَمَنِيَّةِ بِعَهْدِ مِنَ الْخَلِيفَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَقَامَ هَذَا إِنْوَالِي الْجَدِيدِ بَعْدَ إِصْلَاحَاتٍ عِمْرَانِيَّةٍ وَأَدَارِيَّةٍ ، مِنْهَا إِعَادَةُ بِنَاءِ سُورِ قَرْطُبَةٍ وَقَنْطَرَتِهَا الَّتِي تَرْبِطُ الْمَدِينَةَ بِأَرْضِيهَا الْجَنُوبِيَّةِ عِبْرَ نَهْرِ الْوَادِي الْكَبِيرِ .

بدء المحاولات الجدية لفتح فرنسا

كَانَتْ الْفَتْوحُ الْعَرَبِيَّةُ تَتَدَافَعُ كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ مَوْجَةٌ تَلُو مَوْجَةً فَالْعَرَبُ قَدْ فَتَحُوا الشَّامَ ثُمَّ وَثَبُوا مِنْهُ إِلَى مِصْرَ ، وَجَاعَتْ بَعْدَ مِصْرَ أَفْرِيْقِيَّةُ ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ مِصْرَ فَتَحُ أَفْرِيْقِيَّةُ ، فَتَحَ الْإِنْدَلُسُ وَتَمَشَّى مَعَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّبَعَ فَتَحَ الْإِنْدَلُسِ قَفْزَةً أُخْرَى إِلَى مَا وَرَاءَهَا وَفَعَلَا فَكَّرَ فِي هَذَا — كَمَا قُلْتُ — مُوسَى بْنُ نَصِيرٍ عِنْدَمَا أَتَمَّ فَتَحَ أَسْبَانِيَا ، ثُمَّ فَكَّرَ فِي أَنْ يَعْبرَ جِبَالَ الْبَرَقَاتِ إِلَى أَرْضِ غَالِيَا ، وَمِنْهُ يَسِيرُ شَرْقًا فِي مَشْرُوعِ كَبِيرٍ يَرْمِي إِلَى فَتَحِ رُومَا أَوْ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةُ كَانَتْ أَمْلًا عَظِيمًا ، تَحْطُمَتْ عَلَى أَسْوَارِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَحَاوِلَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ ، فَقَدْ حَاوَلَ الْعَرَبُ غَزْوَهَا عِدَّةَ مَرَاتٍ ، وَلَكِنْ هُفِظُوا ، وَلَكِنْ الْخَلِيفَةُ

استدعى موسى بن نصير — كما رأينا — ورفض توغل المسلمين في أراضي ومجاهل غير آمنه ، ولكن فكرة غزو ما وراء أسبانيا ظلت تتردد في النفوس حتى ولى الإندلس السبع بن مالك الخولاني ، وهو من خيرة الولاة الذين تولوا أمر الإندلس . وبتوليته عادت إلى الجند جماسيتهم وتحركت فيهم روح الغزو التي كانت قد فترت بعد استدعاء موسى وطبارق إلى المشرق ، وما أصابهما في دار الخلافة .

ويجب أن نلقى نظرة عامة على فرنسا قبل محاولات المسلمين فتحها ، ففرنسا في التاريخ الروماني تسمى غاليا ، أو غاليس أو غال ، وكأصطلح جغرافي لم تكن قد وجدت بعد كتلة واحدة أو كوحدة سياسية ، كذلك لم تكن قد تكونت بعد اللغة الفرنسية في ذلك الوقت ، وبعد زوال الدولة الرومانية توزعت فرنسا بين قوى مختلفة ، فسبتمانيا كانت تابعة للقوط الغربيين — وهي المدن السبع — والجزء الذي يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرنات جنوبا كان دوقية مستقلة تسمى أكيثانيا « أكيوتين » فاذا سربنا من أقليم إسبتمانيا شرقا ، فهناك أقليم بروفانس ، بينما نجد شرقي نهر الرون « برجنديا » وكانت هذه الأقليم مستقلة تبعا لما تخلف عن الغارات الجرمانية . أما شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية ، فكانت مملكة تسمى مملكة الفرنجة أو الميروفنجية .

ضعفت الدولة الميروفنجية بمرور الزمن ، ولم يعد في إسبانتاعتها القبض على زمام الأمور في الدولة ، انهارت السلطة المركزية ، واسترد الامشرف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم ، وأزداد سلطان محافظ القصر ، وأصبح في القرن السابع منذ ضعف الملوك أقوى المناصب الإدارية والسياسية في الدولة ، وأصبح محافظ القصر صاحب السلطة الفعلية في الدولة ، بينما لم يكن للملك من السلطة سوى اسمها فقط . وأختصت الأسرة الكارلية بهذا المنصب الكبير ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية ، وولى شارل مارتل منصب محافظ القصر سنة ٧٢٠ م بعد أن تغلب على منافسيه . هكذا كانت مملكة الفرنج حينئذ غير المسلمون إلى غاليا أو خالينس .

لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتيمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوز — عاصمة أكويتين — وكان أودو — دوق أكويتين — أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء انفرنج في غاليا ، وشدهم بأسا وأمسك بأكويتين منتهزا فرصة الاضطرابات التي سادت ، وسيطر على جنوب فرنسا ، من اللوار الى البرانس ، والتف حوله القوط والبسكنس و (الفااريون) وتطلع اليه للتخلص من خطرهم كله على انه ، وانتدع بالاسم الميروفنجية .

أقام السمح بن مالك في سبتيمانيا حكومة إسلامية ، وأعاد توزيع الأراضي بين الأهل وفرص الغزاة والخروج عن الضيق ، وكل لهم الحرية الدينية ، وأعطى طبعا لمرائهم وزحف نحو القرب لقسوة أكويتين ، وهزم الأعداء الذين تصدوا له شر هزيمة ، وأتجه إلى تولوز ، فاستطاع يد يوتو ، وأعد جيشا قويا لانتفاذ مملكته من العرب والتقى السمح بن مالك بيودو بظاهر تولوز في معركة حامية طويلة ، وبذل كل من الفريقين ألوانا من الشجاعة النادرة ، وسالت الدماء أنهارا ، وفجأة سقط السمح من فوق جواده صريحا ، فاختل نظام الجيش الإسلامي ، وخادته الفوضى والاضطراب ، وانسحب المسلمون إلى سبتيمانيا بعد أن فقدوا القائد السجاع سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م .

اتخذ المسلمون على أثر هذه الهزيمة من مدينة أربونة قاعدة لعملياتهم الحربية فيما وراء البرانس .

اختار الجيش الإسلامي عبد الرحمن الطافقي ، قائدا عاما ووقع اختيار الجماعة له والبابطين الإندلس حتى تعهد للدولة إلى إحدى الولايات ، وقضى بقوته في محاربة الأعداء في البلاد حتى ولي عنيسه بن سحيم الكلبي حكم الاندلس سنة ١٠٣ هـ ، وكان لابد لعنيسه من إعادة تنظيم جيشه وأعداده لمواجهة الجهاد فيما وراء البرانس ، وأصلح أحوال البلاد الداخلية ، وقضى على الاضطرابات التي حدثت في الاندلس ثم عبر جبال البرانس ، وأتم فتح إقليم سبتيمانيا بمقتضى السبع ، ثم صعد مع ألفه نحو مدينتي ليون والمحتلة عندهم تولوز على الأقاليم المعروفة

برجانديا حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي الرون ، ولكن أهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعتة ، وأنتهى الأمر باستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ ، فأرشد الجيش الى الداخل ، وعادت الاضطرابات الى الجزيرة مرة أخرى .

وتسود الاندلس بعد ذلك فترة من الاضطرابات ، تقف فيها حركة الفتح الخارجى مدة أربع سنوات ، ويتوالى على الاندلس فى هذه الفترة التى تلى وفاة غنيسه سنة ولاء . وفى سنة ١١٢ هـ ٧٣٠ يتولى أمير شجاع متحمس للجهاد ، هو عبد الرحمن الخافقى نسبة الى قبيلة خافق اليمينية ، كأن جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية فى غزو فرنسا ، عرف عنه العدل وحب الإصلاح والورع والتقوى ، وكان فوق العصبية وعاد الوفاق بين اليمينية والمصرية فى عصره ، الأمر الذى قوى من شأن البلاد والجيش ، وكان حكمه فى الواقع فاتحة عهد جديد فى تاريخ الاندلس .

نظم عبد الرحمن ادارة البلاد ، وأعاد الى النصرارى أملاكهم المغتصبة ، وسأوى بين الناس فى الضرائب ، وأوجد نظاما اداريا قويا ، وأعاد تنظيم صفوف الجيش ، وزوده بأقوى الأسلحة ، وحسن القواعد والثغور الشمالية ، واختار لجيشه فرسانا من البربر ، يقودهم نخبة من العرب .

أخضع عبد الرحمن الخافقى الثورات فى الشمال . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ سار عبد الرحمن الى الشمال مخترقا ولاية أراجون « النجر الأعلى » ونافار « بلاد البشكنس » ، وعبر البرانس من طريق نبلونه ، ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م وزحف مباشرة على مدينة آرل الواقعة على نهر الروم ، التى عارضت الحكم الإسلامى ، وقهرها بعد لائى وعناء ، ثم زحف غزبا ، وعبر نهر الجارون ، وقا تل عبد الرحمن يودو قتالا شديدا هزم فيه الدوق شر هزيمة ، وقتل من جنده كثيرين ، ودخل عبد الرحمن عاصمته برdal ، وسقطت أوكوتين كلها فى يد المسلمين ، ولاد الدوق يودو بالفزار وأخذ يضرب فى الأرض ، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الدوق مرة أخرى واخترق الجيش الإسلامى برجوتية واستولى على ليون وواشيل زحمة حتى رصاصتهم التى تبعد مائة ميل فقط عن باريس وأرشد

عبد الرحمن بعد ذلك عرّبا إلى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقة ، تم
مقصد عامّة الفرنج ، وبذلك سيطر على نصف فرنسا الجنوبي من الشرق
إلى الغرب في بضعة أشهر فقط .

بحاً يودو إلى سارل مارل يسنجد به صد الخطر الداهم الذي
أودى بمملكته . والدولة المبروفنجية تعتبر في نظر الفرنسيين ، المرحلة
الأولى من تاريخهم الحديث . ولكنها في الحقيقة لم تكن فرنسية بحال
من الأحوال ، فلا اللغة ولا الحدود ولا القومية كانت فرنسية حتى ذلك
الوقت ، وإنما كانت الدولة المبروفنجية ألمانية ، فسارل ألماني وكذلك
حينه ، فالقتال الذي وقع أنما كان بين سكان الصحارى الممتدة من بلاد
العرب إلى شمال أفريقية وبين سكان الغابات الشمالية في أوروبا حيث
موطن القبائل الجرمانية . وهذه أول مرة في التاريخ تلتقي فيها هاتان
القوتان . لذا كان الجيوش مختلفين في كل شيء في السلاح وفي اللباس
وفي التكتيك الحربي وأساليب القتال .

فالعرب والبربر آتون من بلاد صحراوية حارة . ملاسهم واسعة
مضفاضة ، وأسنحتهم خفيفة أهمها الخفوس والسيف ، وطريفتهم في الحرب
الكر والفر . ولهم فرق من الحبال هي الركن الأساسي في الجيش . وهي
التي يهتمون بها ، ويولونها عناية . أما الحرمان . فهم أهل مناطق باردة
أبديهم حديدية ، ويحاربون شبه عراة ، أسلحتهم من بده من بنتهم حيث
الغابات الثقيلة والسيف انعمصه وأكثرهم مشاه بسببون في
صفوف متراصة .

ومهما يكن من أمر فقد نفذ عبد الرحمن بجيشه الكبير إلى فرنسا
سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ وأقتحم وادي الرون وولابه أكونين ونست فوي
أودو ، وأشرف على ضفاف اللوار ، وغداً أغلق هذه الانصارات سارل
مارل — محافظ القصر في مملكة الفرنجة في عهد بيودوريك الرابع ولجأ
أودو وزعماء الفرنج إلى محافظ القصر بسنجدون به . ويحذرونه
من سقوط بلادهم في يد المسلمين . بالمعنى صاحب كتاب نفح الطيب
أكبر موسوعة في تاريخ الأدب . بعمل عن مؤرخ أقدم منه اسمه الحجاري

نسبه الى وادى انجباره بالاندلس ، عولا معناه ان عارله (سارل مارتل) قال لقومه حين نسكوا اليه وقوف العرب على ابواب بلادهم ، انظروا لا تواجهوهم في اقبال أمرهم فان لهم ارادة مويه ، وبيه صادقة وحصانه انظروا حتى تهدأ أمورهم ، وبأحدوا في اننافس في الرباسه والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ، وبضعف امرهم ، عتمكون منهم بأيسر مجهود .

ويعقب المفري عنى ذلك بقوله : مكان والله ذلك .

ساسى سارل مارتل ويودو الحلافات بينهما وتنافسوا لمواجهة العدو المشترك . وكان لابد من خوض غمار معركة فاحله لدرء خطر المسلمين عن بلاده ، وفي نفس الوقت للسيطره على جنوب فرنسا ، واستراع ملك بودو ، وهذا حلم قديم كان يرادوه ، وقاد سارل جينه الدى يتألف من الفرنج والعسائر الجرمانية المنوحسه والعصابات المرتزقه فيما وراء البرتات وسار زعيم الفرنجه على رأس هذا الجبس الجرار نحو الجنوب للملاقاه العرب .

ودار اللقاء الحاسم بين السرف والعرب والاسلام والنصرانيه ومن الصعب تحديد مكان هذا اللقاء ، ولكن يمكن القول بأنه السهل ، الواقع بين مدينتي تور وبواتيه على مقربه من مدينته تور ، وبعد أن استولى المسلمون على مدينه بواتيه وخربوا كنيستها ، رما أراد عبد الرحمن أن يعبر الوادى فاجأه الجيش الكبير بقياده سارل ، ودارب رحى معركة رهيبه وأرند الجيش المسلم الى السهل — الذى أشرنا اليه — وكان الجيش المسلم منفلا بالغنائم وكانت تثير بين جنوده القلاقل ، وتمتمل هذه الغنائم في كنوز ثرواب جنوب فرنسا ودار انقتال بسده وصراوه بين الفريقين ، ولاح النصر في جانب المسلمين ، ولكن فطن الفرنجه الى حرص المسلمين على عائمهم فأحدثوا ثغرة في داخل الحيتس المسلم ، وانقصوا على الغنائم فترك المسلمون الحرب ، واتجهوا الى انغنائم يمنعون الفرنجه عنها ، فذب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعثا حاول عبد الرحمن أن يعبد الهدوء الى جينسه ، فأصابه سهم فقتله ، وخر صريعا من فوق جواده ، وعم الدعر

والجزع والهلع بين صفوف الجيش المسلم ، هنا وأنتت الفرصة الفرنجة للنيل من المسلمين ، فقتلوا منهم ما لا يحصى ولا يعد ، وأقبل الليل لهم أمل في الانتصار بعد أن فقدوا قائدهم والكثير من جندهم ، وارقد المسلمون في جوف الليل وجنح الظلام جنوبا صوب قواعدهم في سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومغانمهم وفي الصباح أقبل شارل على المعسكر فوجده خاليا الا من الجرحى ، فأمر بذبحهم وأنسحب الى الشمال ، وخشى أن يتابع الجيش المسلم خوفا من كمين ربما قد أعدوه .

والرواية العربية تتحدث بايجاز شديد عن موقعة بلاط الشهداء ربما لما أحدثته من صدمة للمسلمين ، بينما تسهب الرواية النصرانية في الحديث عن هذه الموقعة .

ولوقعة بلاط الشهداء أهمية كبيرة جدا في التاريخ الاسلامي فهي من المعارك الفاصلة في التاريخ ، اد أوقفت زحف العرب في أوروبا ، والمعروف أنه لو أنتصر العرب ، لاستطاعوا اجتياح أمم النصرانية في أوروبا ، والوصول الى القسطنطينية عن طريق أوروبا وأوقفت هذه المعركة زحف المسلمين عند حد معين ، وتعتبر انتصارا للعرب على الشرق وللنصرانية على الاسلام . ولدولة الفرنجة على دولة الاسلام .

وتعرض الكثير من المؤرخين لهذه الموقعة ، ويقول جيبون لو أنتصر العرب في تور و بواتيه ، لكان القرآن بتلى وبفسر في أكسفورد وكمبردج .

ويقول آخر : ان فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك ايطاليا وغاليا ولما وثب المسلمون الى فرض الدين ، فنهض ازاء ذلك الخطر فتى من عسيرة جرمانة هو كارل مارتل ، وأيد هبة النظم النصرانية المشرقة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ودفعها الى بلاد جديدة . وبغول زبلر كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وفد هاون هذا النصر زعيم الفرنجة

على توطيد سلطانه ، لا في غالبا وحدها ولكن في جرمانيا التي أشركها في نصره .

ويرى محمد عبد الله غنان أن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء بين الاسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، وفقد العرب في هذه المعركة سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وأرقد تيار الفتح الاسلامي أمام الامم انشمالية كما أرتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتح اُمم الغرب ، وأخضع النصرانية لدولة الاسلام ولم تنتج للاسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ الى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره الى بلاط الشهداء ولكنه أصيب بفقرق الكلمة ، بينما تسفلت أسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية اذ قامت فيما وراء البرتات إمبراطورية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الاسلام في الغرب .

وغريق من المؤرخين المحدثين لا يعلق أهمية كبيرة على هذه الواقعة ، ويرون أن الامتداد الطبيعي للغزو العربي في أسبانيا هو جبال البرتات . أما العمليات العسكرية انتهى قاموا بها وراء هذه الجبال ، فهي مجرد غارات فدائية بدافع الحماس الديني دون أن يعملوا حسابا للتقهر . فهزيمة الغافقى في رأيهم — كانت نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعي محفوف بالمخاطر ولهذا لم يكن لها تأثير ايجابي على مجريات الاحداث السياسية الاسلامية ، لأنها كانت بعيدة جدا عن قلب العالم الاسلامي وعن المجال الحيوي للدولة الاسلامية ، فالتجزؤم التي منى بها المسلمون أمام القسطنطينية مثلا ، كان لها تأثير كبير وصدى قوى في السياسة الاسلامية ، لأنها كانت قريبة من دمشق حاضرة الدولة الاسلامية . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الرواية الاسلامية لا تعلق كثيرا ، ولا تسهب كثيرا في الحديث عن بلاط الشهداء .

ولكننا مع الرأي الأول القائل بأن هذه المعركة حددت مصير العالم أجمع شرقه وغربه ومسلمه ونصرانيه ، وسميت هذه المعركة — كما قلت — بلاط الشهداء ، نسبة الى طريق روماني قديم ، دارت عنده هذه المعركة ،

وهذا الطريق مرصوف مبلط وتسميها المصادر الاوربية ، موقعة ثور .
أما القائد شارل مارتل ، فلقب بعد المعركة « مارتل » أى المطرقة .

توقفت فتوح المسلمين في فرنسا بعد بلاط الشهداء ، بعكس ما كان يحدث للمسلمين في فتوحاتهم ، فكثيرا ما هزموا ثم عادوا الكرر وانتصروا . ولكن موقعة بلاط انشدهاء - أوقفت فتح المسلمين في فرنسا ، ذلك أن الدولة الأموية قد هزت بالكثير من المتاعب ، فالمسلمون هزموا في آسيا الصغرى ، وسن البيزنطيون الغارات على بلاد الشام والجزيرة وظهرت ادعوة العباسية في المشرق ، لذلك شغلت الدولة الاموية عن هذا القطر البعيد ، وأثرت هزائم المسلمين في فرنسا على الروح المعنوية لعرب الاندلس . ونبه انعالم الاوربي الى خطر المسلمين في اسبانيا ، ولهذا طارد شارل مارتل العرب الى حدود سسبتمانيا ، وانقرع منهم اقليم بروقانس ، ولم يلبث أن استرد الفرنجه سسبتمانيا بل أنشأ تسارلمان نغرا في أسفل جبال انبرقات على ساحل البحر المتوسط ، وبذلك لم يعد للعرب أملاك فيما وراء اليرقات ، ولقد حاول العرب العزو من نواحي أخرى فهاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخاوا سويسرا غير أن هذه الاعمال لم تتخذ صفة الفتح المستقر . بل كانت عمليات تتسم بطابع الغارات السريعة .

الفتن والحروب الداخلية في المغرب والاندلس

انتشرت في بلاد المغرب أفكار الخوارج ، وعارضوا الحكم الاموي ، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون بالانتخاب الحر المباشر لأي مسلم حر فلما ولي عبد الله بن الحبحاب - أفريقية كانت القبائل انبريرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما في المغرب الأقصى ، فسير عبد الله إلى مواطن الثورة في بلاد المغرب جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة القهري ، وأعاد البلاد إلى الهدوء والسكينة ، وعين ابن الحبحاب ابنه اسماعيل وانيا على المغرب الأقصى ، ولكن البربر عارضوا حكمه ، وناروا عليه ، والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، يسمى ميسرة المدغري ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، ودعوا لميسرة بالخلافة على مبادئ الخوارج ، ثم زحفوا إلى السويس ، وقتلوا الوالي اسماعيل بن عبيد الله ، وعلى أثر انتصارات الخوارج داعت دعوتهم بين البربر ، ولاقت نجاحا كبيرا ، وضعف سلطان العرب في بلاد المغرب ، واضطر ابن الحبحاب إلى إخضاع انبربر ، فسير اليهم جيشا كبيرا ، الحق به انبربر عدة هزائم قرب طنجة ، وسميت هذه المعركة بموقعة الاشراف لكثرة من قتل فيها من قادة العرب سنة ١٢٣ هـ .

ذعر هشام بن عبد الملك من هزيمة العرب أمام البربر ، ومن ثورة البربر على الحكم الاموي ، فأرسل جيشا إلى بلاد المغرب بقيادة كلثوم ابن عياض القسيري على رأس جيش ضخم من عرب الشام سنة ١٢٣ هـ ، واجتمعت اليه اثناء مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس وكان يساعد كلثوم ابن اخيه بلج وتوجس عرب أفريقية خيفة من جند الشام بقيادة كلثوم غير أنهم انضموا بعد عدة منازعات إلى جيش كلثوم ودخل العرب في معارك ضاربة أواخر سنة ١٢٣ هـ مع البربر قرب طنجة ، هزموا فيها شر هزيمة ، ومزقوا شر ممزق ، وقتل كلثوم وكثير من ضباط الجيش وجنوده .

ومن نتيجة هذه المعركة خروج المغرب الأقصى من قبضة بني أمية
وانتشار دعوه الخوارج في المغرب الاوسط .

وتراجع بنو فلول الجيوش الشامي بقيادة بلج بن بشر القنسيرو
وتحصنوا بنجر سبتة ، وكان عددهم حوالى تسعة آلاف فارس معظمهم
من الشام مع قلة من جند ممر - وهناك فرض عليهم البربر حصارا شديدا
حتى كاد يهلكهم جوعا ، وينكل بهم . لكن ظروف الأندلس أنقذت بلج
وجنوده ، ذلك أن أخبار ثورات البربر في المغرب ، انتقلت الى الأندلس
فثار في الأندلس ضد واليهم عبد الملك بن قطن الفهري ، فلم ير من منقذ
له من هذه الثورة العارمة ، سوى بشر بن بلج المحاصر في سبتة ، وتناسى
الخلاقات بين المضريه ، وعرب الشام اليمانية ، وتحالف معه ، وأشرط أن
يفك الحصار ويسمح له بالذهاب هو وقواته الى الأندلس لانقاذه من
ثورات البربر التى استطار ترها ، وزاد خطرها ، على أن ينسحب من
الأندلس فور القضاء على الثورة .

وكان نوار البربر في ذلك الوقت قد وحدوا صفوفهم في الأندلس
وقسموا انفسهم الى ثلاث جيوش .

جيش يهاجم طليطلة ، وجيش ثان يهاجم قرطبة ، والجيش الثالث
يتجه جنوبا للقضاء على قوة الشاميين في سبتة ، والاتصال بأخوانهم ببر
المغرب .

عبر بلج بن بشر الى الأندلس بعد أن رفع عبد الملك بن قطن الحصار
عنه ، وبعد أن كان محبوبا هو ورجاله في قفص ، فقد تنسموا نسيم
الحرية في الأندلس ، وبعد أن استراحوا بعض الوقت من ويلات
ما أصابهم في المغرب ، اشتبك بلج مع البربر عند بلدة شذونه ، وشنت
شمل البربر ، وانتصر على فريق البربر في قرطبة ، ثم زحف مع قواته
وقوات حليفه والى الأندلس الى طليطلة ، واشتبكوا مع جموع البربر
الرئيسية في عدة وقائع مزقوا فيها شملهم ، وبذلك انتهت ثورة البربر ،
وعادت الأندلس الى الهدوء والسكينة .

وأخذ بلج وأصحابه بعد ذلك ينجمون بحلوة النصر ، ويتمتعون بالحياة الآمنة الهادئة بعد الحيرمان والنؤس في سبته .
ولكن عبد الملك بن قطن الفهرى والى الاندلس — طالب الشاميين بالرجوع الى أفريقية تنفيذا للشروط . لكن الشاميين رفضوا أن يعودوا الى أفريقية بعد أن بهرتهم خيرات الاندلس ورفض الشاميون الانسحاب ، ودار قتال بين عرب الاندلس والشاميين ، قتل فيه الموالى عبد الملك بن قطن ، وولى بلج أم رالاندلس ، وقد أثار هذا العمل غضب الحجازيين المضريين ، فقتلوا بلج بن بشر ، وقامت بين الطرفين حروب عنيفة استمرت اكثر من عام حتى سنة ١٢٣ هـ — ٧٤٣ م ولما رأت الخلافة سوء الحال فى الاندلس ، ولت عليها رجلا له مكانة وله قوة ، ذلك هو الشاعر أبو الخطار بن ضرار الكلبى ، وهو يمنى .

بدأ أبو الخطار ، ولايته بداية طيبة ، فأراد أولا أن يحل مشكله الشاميين ، فأنزلهم مقسمين على كور الاندلس بحيب تكون متسابة الى حد كبير بالاماكن التى جاؤا بها من المشرق ، فأنزل أهل جند دمشق كورة البيرة ، وسماها دمشق ، وأنزل أهل جند حمص كورة أنسيبيه وسماها حمص ، وأنزل أهل جند قنسرين كورة جيان فى جنوب الاندلس ، وسماها قنسرين ، وأنزل أهل جند الاردن كورة ريه ، وسماها الاردن وأنزل أهل فلسطين شذونه فى أقصى الجنوب وسماها فلسطين . أما أهل مصر ، فأنزلهم الجنوب الشرقى من الاندلس فى كورة تدمير وسماها مصر . وهذا عمل أدارى حكيم ، كان من الممكن أن يقضى على الفوضى فى الاندلس .

واستطاع أبو الخطار أن يعالج الامور بسياسة من الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل .

أستقرت الامور فى الاندلس فترة قصيرة بسبب سياسة أبى الخطار ، ولكن عادت الاضطرابات من جديد . والجدير بالذكر أن الولايات الاسلامية فى أواخر العهد الاموى قد اضطربت اضطرابا شديدا ، وقامت فيها حروب أهلية متعددة بين القيسية المضرية وبين اليمانية القحطانية ، وحدثت هذه الحروب الاهلية فى الاندلس كذلك . وكان الموالى

— كما قلنا — يمنية ، وهو أبو الخطار الكلبي ، أما زعيم المضرية أو القيسية ، فهو الصميل بن حاتم حفيد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين في كربلاء .

وسبب هذه الفتنة بسيط في حد ذاته ، لئذ وقع خلاف بين شخصين أحدهما — مضري والآخر يمني ، فلجأ الاثنان الى الوالى أبى الخطار ، الذى حكم لليمني ، فظن المضري أن هذا الحكم تعصب من الوالى لكونه يمنيا ، فذهب الصميل — زعيم المضرية — الى أبى الخطار زعيم اليمنية ووالى الأندلس — ليكلمه ، فوقع نزاع بين الرجلين ، فخرج من المجلس ، وقد حلت عمامته ، فقال له أحد الحراس على الباب : أصح عمامتك أبا الجوشن . رد قائلا : « ان كان لى قوم فسيقيمونها . وهذا تهديد بالحرب . وقامت الحرب بين الجانبين القيسية واليمنية على ضفاف الوادى الكبير ، واستمرت سجالا بينهما الى ان تمكنت المضرية من هزيمة اليمنية في موقعة كبيرة عند بلدة تسقنده في جنوب قرطبة . واستطاع الصميل بهذا النصر أن يعزل أبا الخطار من ولاية الأندلس ، وأن يعين مكانه رجلا محايدا بين عرب الشمال وعرب الجنوب اسمه يوسف الفهرى . واختار الصميل هذا الرجل لحنكته ومهارته ، وبعده عن التعصب . وكانت شخصيته مرغوبة من الطرفين المتنازعين ، مقبولة بينهم ، وحكم الفهرى بمشورة الصميل .

سقوط الدولة الأموية وتدهورها

اضطربت الامور في الدولة الاموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ ، وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية ، وبقي في الخلافة سنة وشهرين ، ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه ابراهيم ، وفي عهده ازدادت الدولة الأموية اضطرابا بسبب الصراعات المستمرة بين القيسية واليمينية ، ونورات الخوارج ، وانتشار اندعوة العباسية في إقليم خراسان ، والانقسام بين أفراد البيت الحاكم ، وتجلى الاضطراب في البيت الأموي ، فلم يكن هناك اجماع على توليه ابراهيم فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة ، وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما ، وانتهى الامر بعزله وقتله على يد مروان ابن محمد .

ولما آلت الخلافة الى مروان بن محمد تعصب للقيسية ، وطالب اليمينية بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسري بدمشق ، وانضمت اليه اليمينية ، فأرسل مروان الى دمشق جيشا أحمد النورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى ، قام بها اليمينية في بلاد الشام .

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها الى خلعه وانضمت اليه اليمينية ، فسار اليه مروان ، وأوقع به الهزيمة وظل مروان يخضع الثورات ، متنقلا من بلد الى بلد ، حتى فوجيء بقيام الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٣ هـ ، وهزم في موقعة الزاب ، وقتل .

اقترن قيام الدولة العباسية بمذابح مروعة ، ذهب ضحيتها أفراد البيت الأموي ، بل نبشت قبور الخلفاء الأمويين ومثل بجثثهم . ولم ينج من بطش بني أمية الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذي كتب له النجاة من بطش بني العباس ، كما كتب له ، اقامة الدولة الأموية في الاندلس ، أعاد فيها مجد آبائه وأجداده .

الامارة الأموية في الأندلس

عبد الرحمن الداخل (١٢٨ — ١٧٢ هـ / ٧٥٦ — ٧٧٨ م)

انتشرت الفوضى في الأندلس في أواخر عصر الولاة ، وعانت البلاد في فتن وحروب ، وعم القحط وعظم البلاء ، وأشتد اليأس والتسقاء ، وازداد الأمر حرجا في الوقت الذي تدهورت فيه الدولة الاموية ، وقامت الدولة العباسية ، وكانت دولة انضباطة منصرفة تماما عما يحدث في الأندلس ، وإذا أجمع الأندلسيون على أمير يحكمهم ، يفضل في حكم البلاد التي مزقتها العصبية ، وفرقتها ، وشجعت هذه الفوضى الفرنج ونصارى انشمال على اقتطاع الاطراف النائية ، وشن الغارات المتتالية ، وظل الأمر كذلك ، حتى ولي أمر الأندلس رجل قوى حازم ، هو يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، وتولى برأى الجماعة ، دون مصادقة من دولة الخلافة التي كانت مشغولة عما يجري في الأندلس ، واستطاع الفهري أن يقهر منافسيه ، ووطد أقدامه في البلاد محاولا الاستقلال بها نهائيا عن دولة الخلافة .

نعود الى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فقد نشأ في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ، ونما وترعرع في بيت جده ، وسقطت الدولة الأموية وهو في ريعان شبابه الغض في حوالى العشرين من عمره ، وفر هو وأهله ناحية الفرات فرارا من ملاحقة بنى العباس ، ولكن اكتشف أمره ، ففر الى فلسطين ثم مصر ، ولحق به مولاة بدر وسالم ، وفي برقة التجأ الى أخواله من بنى نفزه أخواله ، وأقام وقتا طويلا ، ولكن أمره عرف ، ففر هو وصاحبيه الى المغرب الاقصى ، وأقام بها متخفيا عند شيخ من شيوخ البربر ، ولقى في هذه البلاد الكثير من المحن والشدائد . وفي هذه البلاد علم بأخبار الأندلس وما آل اليه أمر البلاد من اضطراب .

وفي أواخر سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م تطلع الى استغلال القلاقل في الأندلس ، والعمل على استرداد ملك بنى أمية السليب ، وانتهاز فرصة

الخلافة التسديد بين القيسية واليمية وأرسل مولاہ بدر ، لنشر الدعوة لبنى أمية بين أهل الشام وأنصار هذا البيت . وكانت رياسته الأمويين لزعميين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد ، واتفق بدر معهما على بث الدعوة بين اليمينية ، الدين كانوا يتمنون الخلاص من الفهرى ، ونشط أبو عثمان وحليفه في نشر الدعوة في البيرة خصوصا بين اليمينية ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، ولما أيقن بكثره أنصار بنى أمية ، أرسل إلى عبد الرحمن الأموى يطلب منه القدوم إلى الأندلس ، فقدم عبد الرحمن إلى طرثوس ، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، واستقر بها ينظم دعوته ، ويدير خطته .

كان وإلى الأندلس ، يوسف بن عبد الرحمن بعيدا عن قرطبة ، معسكرا بالقرب من سرقسطه لقمع الثورة هناك ، ولكنه اضطر إلى الإسراع إلى قرطبة مع نائبه الصميل ، لاحتباط دعوة عبد الرحمن ، والقضاء عليها في مهدها ، وأراد يوسف معالجة الازمة سلما ، فأرسل إلى عبد الرحمن بطلب منه ، الكف عن دعوته في مقابل مال كبير أو مصاهرة ، أو منحه ولاية من الولايات ، ولكن عبد الرحمن الذى دانت له جنوب الأندلس بالطاعة والولاء رفض كل العروض . وأبى إلا أن يستحوذ على ملك الأندلس برمته .

ولما قوى أمر عبد الرحمن الأموى سار من طرثوس في صحبة أنصاره إلى رية ، فبإيعاه أهلها ، ثم إلى نسخونه ، فدخلت في طاعته ، ثم إلى أشبيلية ، فبإيعاه رعيها وأهلها اليمينية وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الجند والأنصار ، وذاعت دعوته في غرب الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب وحذب ، من المضربة واليمينية وأهل الشام . وواصل زحفه حتى أقرب من قرطبة في أوائل ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . سار يوسف والصميل إلى قرطبة ، وتفرق معظم جنودهما بعد أن أفناها كثرة الحروب ، وأغراها دعوه عبد الرحمن بن معاوية ، ومهما يكن من أمر فقد عسكر يوسف بجنده القليل في المسارعة في ظاهر قرطبة من الغرب ، على حين عسكر عبد الرحمن على ضفة النهر الجنوبيه ، وقرب

النهر بين الجيشين المتحاربين عدة أيام . ففي يوم الجمعة ، وهو يوم عيد الأضحى ، نشبت معركة حامية ، ودار قتال مرير بين الفريقين ، وهز جيش يوسف الفهرى شر هزيمة ، وقتل في هذه الواقعة الكثير من وجوه القيسية والفهرية ، وفر يوسف الفهرى والصميل من المعركة ، ودخا على أثرها عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ، وصلى الجمعة في مسجد الجامع ، وبايعه الناس بالامارة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . ومن مصادفات التاريخ أنه في يوم الاضحى سنة ٦٤ هـ الجمعة ، انتصر مروان بن الحكم — جد عبد الرحمن الأموى — على الضحاك بن قيس الفهرى في موقف مرج راهط .

وليوم المسارة نتائج بعيدة المدى في تطور الحياة السياسية الأندلس ، ذلك أن انتصار عبد الرحمن الأموى أنهى عصر الولاة وما اتصف به من قلق واضطرابات ، وبدأ عهد حديد في تاريخ الأندلس ، اصطلى المؤرخون على تسميته عصر الامارة .

السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموى

لم تكن موقعة المسارة الا خطوه على الطريق ، يحاول عبد الرحمن الأموى أو الداخل بعدها بذل الجهود للسيطرة على الأندلس ، التى كانت تضطرم بالثورات ، ويتغلب على كل ناحية أمير أو حاكم مستقل من ذوى العصبيات والنقوذ ، فسيطرت اليمنية على بعض البلاد ، وكذلك المضرية والبربر وأنتهز نصارى الشمال — الدين كانوا مستضعفين بالأمس — انتراع بعض الأراضى من الأندلس ، وتقوية نفوذهم في معاقلهم ، كما أن الفرنج فيما وراء البرانس ، انقزعوا من المسلمين ما تبقى لهم من أرض ، وتحالفوا مع نصارى الشمال الاسبان على انتهاز الفرص لتقوية نفوذهم على حساب نفوذ المسلمين .

قضى عبد الرحمن طوال حكمه الذى امتد فترة تزيد على ٣٢ سنة كلها في صراعات مع العناصر الطامعة والمغتصبة والتائرة ضد حكمه ، فكان يخضع ثورة ، وينتقل بعدها الى معركة أخرى فلم يهنا بهذا الحكم

العريض طوال سنى حكمه ، بل قصاصا كلها فى توطيد سلطانه ، وقهر الثوار ، وقمع الفتن .

من الطبيعى أن يكون أقوى خصوم عبد الرحمن الداخل ، يوسف الفهرى ، الذى انتزع منه عبد الرحمن الأندلس ، ففر يوسف عقب هزيمته الى طليطلة ، وجمع الأنصار حوله ، حتى عظم جمعه ، وسار مع حليفه الصميل الى البيرة (غرناطة) واجتمع أهل هذه الانحاء حول يوسف ، وأعد العدة لمحاربة عبد الرحمن ، واسترداد ملكه السليب ، لكن عبد الرحمن ، ترك حاميه فى قرطبه ، وسار الى خصمه فى البيرة ، وهزمه شر هزيمة ، وأستسلم عبد الرحمن والصميل وعقد الداخل معهما صلحا ، تعهدا فبه بالطاعة والولاء ، والكف عن الحرب والنقتال ، على أن يؤمهما فى النفس والولد والأهل والانسار ، وأن يسمح لهما بالاقامه فى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فوافق عبد الرحمن ، وقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد رهينه حتى تستقر الامور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة ١٣٩ هـ . وعاش الرجلان يوسف والصميل فى قرطبة ، وشدد عليهما عبد الرحمن الرقابة والحراسه ، ولكن يوسف الفهرى لم يقبل أن يعيش فى ظل هذا الاعتقال ، ويفقد جاهه وسلطانه ، ففر سنة ١٤١ هـ الى ماردة وكاتب أنصاره فى طليطلة ، حتى عظم جمعه ، وأشتبك مع عبد الرحمن الداخل فى عدة وفائع ، هزم فيها يوسف شر هزيمة ، وقتل الكثير من أنصاره ، وفر يوسف الى طليطلة ، وعاش بين أنصاره فى حرية ، ولكن بعض أنصاره اغتالوه وأرسلوا رأسه الى عبد الرحمن سنة ١٤٢ هـ

ويبدو أن أصابع عبد الرحمن لم تكن بعيدة عن هذه المؤامره وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة بالأحداث الجسام ، وسك الداخل فى نوايا الابن الأول ليوسف فقتله أيضا . ولم يعد لديه من أبناء يوسف سوى محمد ، فأنتهز محمد فرصه ضعف الرقابة عليه ، ففر من معتقله بقرطبة الى معقل الثورة الفهرية فى طليطلة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره جيشا ، هزمه . وهزم أنصاره ، وسبقه محمد الى قرطبه معنقلا ، ولكنه أدعى

العمى ، فضعفت الرقابة عليه ، فعاد ثانية الى طليطلة ، وحرك الثورة ضد الداخل ، ولكنه فشل أيضا . وعلى الرغم من الهزائم المتتالية للفهرية ، في معقدهم في طليطلة ، إلا أن الثورة عادت من جديد بزعامه هشام ابن عروة الفهرى ، أعلن الثورة ، واعتصم بالمدينة ، فسار اليه عبد الرحمن . ومازال يشدد عليه الحصار حتى طلب الصلح ، وما كاد عبد الرحمن يعود الى قرطبة ، حتى عاد الفهرية الى الثورة من جديد في طليطلة . ولكن عبد الرحمن قمع الثورة . وبذلك سحق عبد الرحمن الداخل الثورة الفهرية وكانت الفهرية أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسultanه ، وأكبر عقبة في سبيل استقرار ملكه .

ثورة الفاطمي

ثورة حظيرة سغلت عبد الرحمن عدة أعوام ، نشبت في شمال شرق الأندلس بين البربر ، وزعيمها من بربر مكناسه ، وكان فقيها بعلم الصبيان ، وامتلا بنفسه بأفكار البربر التي تدعو الى التخلص من العرب ، ولكي يكتسب أهميته بين رعاياه ، زعم أنه سليل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها ، وأخذت من شنت برية مركزا لبورته ، وكثر جمعه ، وقوى أمره ، بمن انضم اليه من البربر الناقمين على حكم عبد الرحمن ، وانضم اليه أيضا بعض العرب ، وأرسل عبد الرحمن عدة حملات الى شنت برية لقمع الثورة ، ولكن التأثير رد كل هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، ونكل بجند عبد الرحمن ، فعاد عبد الرحمن بجيتس جديد الى شنت برية . ولما فشل عبد الرحمن في القضاء على التأثير الفاطمي ، لجأ الى الحيلة والخديعة ، فضم اليه زعيما من زعماء البربر بدعى هلال ، وعبد الله بختم البلاد التي استولى عليها التأثير الفاطمي ، اذن نجح عبد الرحمن في بث بذور الانقسام بين البربر ، وانضم الى هلال الكثير من أتباع الفاطميين ، وصعد أدر الفاطمي ، وانقض الكثير من الرجال من حوله ، واعتصم الفاطمي في الجبال ، وطارده عبد الرحمن ، ومازال عبد الرحمن يضغط على الفاطمي دون جدوى ، حتى نزل الفاطمي بقرية من أعمال شنت برية

تسمى قرة العيون ، وهناك تأمر عليه اثنان من البربر ، وقتلاه وأرسلا رأسه الى عبد الرحمن في قرطبه ، ويبدو أن هذه المؤامرة كانت من تدبير عبد الرحمن ، الذي فشل في قمع الثورة بحملاته المتعاقبة ، ولكن أثمرت المؤامرة فيما فشلت فيه الجيوش . وأنتهت بذلك ثورة البربر التي ألقب وهددت دولة عبدالرحمن أكثر من عشر سنوات ، وأثارت الرعب والفرع في شرق الأندلس وغربه . وهددت أمن الدولة وسلامتها ، وضاعفت من الفرقة والانقسام بين العرب والبربر .

ثورة عبد الخافر اليماني

رأينا ثورة القيسية الفهرية ، ودرسنا عوامل قيامها وأسباب فشلها ، كما تحدثنا عن ثورة البربر بزعامة الفاطمي ، ونحدث الآن عن ثورة اليمانية بزعامة عبد الخافر ، أستولى على ما جاور قرطبة من بلاد ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة ، فخرج عبد الرحمن لقتاله والتقى الفريقان اليمانية وجند الداخل بوادي قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن أعوان عبد الخافر من البربر ، وظل يقاتل جند عبد الرحمن حتى هزم ، وقتل هو والكثير من أعوانه سنة ١٤٤ هـ

ولم تكن أشبيلية أقل خطرا من طليطلة على دولة عبد الرحمن فقامت فيها عدة اضطرابات من بينها ثورة يمانية ترعها أبو الصباح بن يحيى البحصبي ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعم اليمانية في أشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن الى الأندلس ، وأيد عبد الرحمن ونصره ، وقا تل معه يوم المسارح ، ولكن عبد الرحمن شك في نواياه نحوه ، وعزله عن أشبيلية ، فغضب البحصبي وأعلن العصيان ، وانضم اليه اليمانية ، ولما رأى عبد الرحمن أن قمع الثورة من الأمور المستعصية ، لجأ الى الحيلة والخديعة في القضاء على الثورة ، فأرسل عبد الرحمن الى اليحصبي يدعوه الى المصالحة ، ويستدعيه الى قرطبة للتفاهم ، ولما قدم اليحصبي الى قرطبة ، قتله عبد الرحمن . وبذلك تفرق جمعه . وهدأت أشبيلية سنة ١٥٠ هـ

ثورات بعض الأمراء الأمويين

ولم يتعرض عبد الرحمن فقط لثورات محلية من الأندلس ، بل ثار بعض أمراء بني أمية ضده ، وطمعوا في الملك ، فدبر ابن أخيه المغيرة ابن الوائيد بن معاوية الثورة ضده . ذلك أن عبد الرحمن سعى الى استدعاء أمراء البيت الأموي المشتتين في الارض الى الأندلس ، وتوافد على الأندلس كثيرون ، وكانوا موضع عنابة عبد الرحمن وتقديره ، وأغدق عليهم ،

وأمسند اليهم المناصب الكبيرة ، ولكن بعضهم أنضم الى معارضى عبد الرحمن فنكل بهم ، وقتل المغيرة ابن اخيسه الوليسد ، حينها اكتشف مؤامرتة ، ونفى آخاه انوليد وأسرتة الى المغرب .

سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية

وبينما عبد الرحمن يوطد لنفسه في الأندلس ، ضاربا على أيدي خصومه فيها ، إذ واجه عداء خارجيا قويا يتمثل في العباسيين في المشرق ودولة شارلمان في أوربا ، ويجرى الأمر على هيئة مؤامرة دولية واسعة صد عبد الرحمن ، ويشترك في هذه المؤامرة الدولية الواسعة النطاق ، أكبر ملكين في ذلك الوقت ، وهما أبو جعفر المنصور ، لما له من قوة وفكر ، وشارلمان ملك الفرنجة ، ونه ما له من سياسة وبطش ، ويتآمر الملكان على التخلص من عبد الرحمن .

مفهوم المسلمين في ذلك الوقت أن عالم الاسلام يضمه دولة واحدة ، وأن المسلمين يخضعون للخليفة انتصرى سواء في دمشق أو بغداد . فلما أسنولى عبد الرحمن على الأندلس ، عى الرغم من أنه أموى ومن بيت الخلافة السابق ، الا أنه لا يستطيع أن يعلن نفسه خليفة ، لأن الخليفة في الحقيقة في بغداد ، وهو صاحب الحق الشرعى في كل ولايات العالم الاسلامى ، لذلك بايعه الناس أمرا على الاندلس ، وكانت الدعوة على المنابر تقام له باسم ابن الخلائف ، وفي بعض ولايات الأندلس كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى دون أن يعترض عبد الرحمن ، لان هذا وضعاً شرعياً كما قلنا .

بدأ الصراع بين أبى جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، ممثلاً في حملة العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ، وكان العلاء والبا عار . أفريقية من قبل المنصور ، فأراد أن بقضى على ، عبد الرحمن ، وأن يجعل الأندلس ولاية عباسية ، كما كانت من قبل تخضع اولاة الأمويين في القيروان .

- واستغل العلاء فرصة معارضة القيسية واليمنية لحكم عبد الرحمن الداخل ، ووجد أن الوقت مناسب للتخلص من الأمويين في المغرب ، كـ تخلص العباسيون من الأمويين في المشرق ، وانتهاز فرصة ثورة فهرية ، طليطلة ، تشغل عبد الرحمن عن الثورة العباسية الزاحفة الى الأندلس ومهما يكن من أمر ، فقد عبر العلاء الى الأندلس في سبعة آلاف مقاتل ونزل بأقليم باجة ورفع العلم الأسود — شعار العباسيين — داعياً لأبي جعفر المنصور ، ورحب بمقدمه العرب الناقمون على عبد الرحمن ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله وأرسل رأسه الى المنصور - رأى المنصور رأس العلاء ، انزعج وقال « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراء وسماه صقر قريش » .

وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتخلص من محاولة ضم الأندلس الى الدولة العباسية ، واحتفظ بملكه البعيد عن هذه الدولة ، وأثبت للحركة العباسية أن في مقدوره الاستقلال بالأندلس ، والتصدي لمؤامرات العباسيين التي تستهدف القضاء على دولته الفتية الناشئة . كما توقعت منذ ذلك التاريخ محاولات العباسيين العسكريه للنيل من الامارة الأموية في الأندلس .

على أن العباسيين لم يكفوا عن تحقيق غرضهم الرامي الى التخلص من الامارة الأموية ، فلجأوا الى سياسة جديدة غير العنف وشن الحروب هي سياسة إثارة بعض الناقمين على عبد الرحمن ، والاستعانة بدور الفرنجة التي تتعجل الخلاص من الامارة الأموية ، وحاول ملك الفرنج وأمبراطور الغرب شارلمان أو شارل العظيم أن يؤمن حدود بلاده الجنوبية في أسبانيا ، وتحقيق مشروعه الذي كان يسعى الى تنفيذه ، وهو احياء الامبراطورية الغربية . ويلاحظ أن تقارب الدولة العباسية من الدواكارلونية الافرنجية ، واشتراكهما في هذه المؤامرة معا ، يرجع الى عدائهما المشترك ضد الدولة الأموية في اسبانيا من جهة ، وضد الدولة البيزنطية المتأخمة للعباسيين من جهة أخرى .

٢ — موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل

وقعت حوادث هامة في شمال الأندلس سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م ، فقد ثار سليمان بن يقظان الكلبي (الأعرابي) والى برشلونه وجيرونه ، والحسين بن يحيى الأنصارى — والى سرقسطه — وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلمه ، وقوى أمر هذه الثورة ، طبيعة الشمال الجبلية وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الداخل ، لم يستطع قمع هذه الثورة ، إلا أن التأثيرين ، اعتزما الاستعانة بالفرنجة ، لتأكيد حركتهما الاستقلالية ، وللوقوف الى جانبيهما ضد عبد الرحمن وهكذا فقد خان هذان الزعيمان وطنهما بالالتجاء الى شارلمان ، الذى هو عدو للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، ويطمح فى التخلص من الدولة الإسلامية فى هذا القطر النائى البعيد .

ومهما يكن من أمره ، فقد سار سليمان ، وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابي ، مع نفر من أنصاره لبقاء شارلمان سنة (٧٧٧ م / ١٦٠ هـ) فى مدينة بادربون — من أعمال وستفاليا بألمانيا — واستقبل شارلمان سليمان وصحبه ، وعرضوا عليه المحالفة ، وطلبوا منه أن يساعدتهم فى التخلص من عبد الرحمن. الأموى ، وطلبوا منه غزو الولايات الشمالية الأندلسية ، وعرضوا عليه تسليمه المدن التى يحكمها ابن الأعرابي نيابة عن أمير قرطبه ، ولا سيما سرقسطه .

وكان من الطبيعى أن يوافق شارلمان على طلب ابن الأعرابي الذى يتمنى مع سياسته الرامية الى التخلص من أمير قرطبه ، وتأمين حدود بلاده من خطر المسلمين فى الأندلس . وبذلك وضع المسلمون ميّداً جديداً فى الأندلس ، وهو مبدأ الاستعانة بالفرنجة كلما عارضوا بلاط قرطبة ، الأمر الذى فتح الباب أمام الفرنجة للتدخل فى أمور الأندلس ، وتقوية أمر نصارى الشمال ، وكل هذا أدى فى النهاية الى انهيار دولة الإسلام فى الأندلس .

ولم يكن ثوار الأندلس في الشمال ، هم وحدهم الذين حرصوا
 شارلمان ، بل ينسب إلى الخلافة العباسية في المشرق تأييد هذه السيادة
 في المغرب ، لناواة بنى أمية ، والتخلص منهم . والرواية الأفرنجية تحدثنا
 عن علاقات سياسية بين المنصور وبينين ، وتقول لنا أن بينين ، بعث في سنة
 ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بأمره إلى ملك الفرنج
 وقدموا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا عدة سنوات في البلاط
 الأفرنجي في مدينة ماز . وكانت دولة الفرنجة قد قوى أمرها ، أما ذوو
 الإسلام في الأندلس - فكما يقولون - مزقتها الخلافات والفتن ، وسار
 شارلمان على رأس جيش كبير ، مما يدل على أن هدفه لم يكن مساندة الثغر
 في الشمال فقط ، وإنما كان يهدف إلى السيطرة كلية على أمانة قرطبة .

وسار شارلمان إلى الأندلس متظاهرا بدافع ديني ، وهو إغا
 الأندلس إلى النصرانية ، وحماية النصراني في الشمال والمستعربين
 داخل الأندلس وكان هدف هذه الحملة سياسيا ، وه تحقيق أطماع
 شارلمان في السيطرة على أسبانيا .

ولما اقترب شارلمان من الأندلس ، قسم جيشه قسمان عبر أحده
 جبال البرانس من الناحية الشرقية ، وعبرها أنقسم الثاني بقيادة شارلمان
 من الناحية الغربية على أن يجتمع الجيشان أمام سرقسطه ، حيث يلتقي
 شارلمان بحلفائه المسلمين ، وفتح شارلمان في طريقه بنبلونه عامه قيادة
 البشكنس ، وأخضع هذه القبائل ، وقدم شارلمان إلى سرقسطه وما
 ابن الأعرابي ، وأنضم الجيش الآخر إلى عسكر شارلمان أمام سرقسطه
 طبقاً للخطة الموضوعة ، وانتظر شارلمان مقدم المسلمين إليه فتشجيعه على
 فتح المدن ، ولكن الظروف قد تغيرت وتهدلت ، فدب الخلاف بين زعماء
 المسلمين ، فبدلاً من أن يرحب الحسين بن يحيى الأنصاري - وال
 سرقسطه - وحليف ابن الأعرابي بالملك شارلمان ، لم يسلم سرقسطه إلى
 شارلمان ، ولكنه أغلقها ، وتحصن بها . وأثبت بذلك فشل التحالف القائم
 بينه وبين ابن الأعرابي . وتعليل ذلك ليس صعباً فربما أن الأنصاري ختم
 من مغبة التحالف مع الفرنجة وضباع البلاد ، وربما استيقظ ضميره

هذا المخطط الجسيم الذي وقع فيه - وجاؤا لشارلمان عبثا ، الاستيلاء على سرقسطه ، وعجز ابن الأعرابي أن يحقق شيئا من وعوده في تسليم - ثم المدين والحصون الواقعة في تلك المنطقة - وخشى ملك الفرنج مخبة الخوض في تلك المجاهل ، وأرتاب في نية سليمان (ابن الأعرابي) وموقفه ، فأرتد بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة (١٦١ هـ / ٧٧٨ م) .

يختلف المؤرخون حول أسباب انسحاب شارلمان من منطقته سرقسطه عائدا إلى بلاده ، ويرى البعض أنه انسحب بعد أن أيقن أنه اخترق بلادا تبعها أعداء له ولجندة ، وربما يؤدي ذل إلى فناء جيشه ، خصوصا أنه أبتعد عن بلاده ، وأنقطع خط امداداته ، فأيقن أنه لا محالة هالك . ويرى البعض أن السكسون المارقين ، عبادوا إلى الثورة من جديد ، بعد أن أبتعد شارلمان عنهم ، وخربوا وأحرقوا الأراضي حتى ضللت الرين ، فقرر شارلمان الانسحاب ، ويمكن التوفيق بين الروايتين أي أن انسحاب شارلمان المفاجيء من سرقسطه إنما تم بسبب تخوفه من القوى الإسلامية في أسبانيا ، وثورة السكسون .

أرتد شارلمان وفي ركبته سليمان بن يقظان أسيرا ، ومعه عدد من الرهائن ، وسار شمالا نحو بلاد البشكنس وكان الناقاريون في تلك الأثناء قد جمعوا ثلوعهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونه ، وعن حياتهم المملوكة ، وأنضم اليهم كثيرا من المسلمين من البلاد المجاورة ولكن هذه المجموعة تعرضت لهجمات شارلمان العنيفة ، وهزمها وشتت شملها ، واسترد شارلمان بنبلونه ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى عرقلة جيشه أثناء انسحابه إلى فرنسا .

غادر شارلمان بنبلونه متجها إلى جبال البرتات عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزري وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل لاختراق البرتات وما كاد الجيش الفرنجي يعبر الجبال حتى هاجمه المسلمون بقيادة عيشون ومطروح ولدى سليمان بن يقظان - ، وخلصا أباهما من الأسر ، وعادا إلى سرقسطه ، بعد أن شددوا الهجوم على مؤخرة

جيش شارلمان ، وفصل مؤخرة الجيش عن مقدمته . هذا ما تذكره الرواية العربية - أما الرواية اللاتينية فتقول ان البشكنس تنبصوا بجيش شارلمان عند هذه المرات ، وهاجموه بشدة وضراوة . ولكن الاستاذ بيدال يؤكد أن البشكنس وحدهم لا يستطيعون تدمير جيش شارلمان والواقع أن تصالفا قد أنعقد بين العرب الذين أرادوا تخليص أسيرهم وبين البشكنس الذين اعترمو الانتقام من شارلمان انذى ألحق الخراب والدمار بهدينتهم والرواية الفرنجية نحدد تاريخ هذه الواقعة (٧٧٨ م / ١٦١ هـ) ويؤكد مؤرخ شارلمان اجنهارت الذى شاهد المعركة أنه هلك فيها الكثير من الأمراء والسادة والرؤساء ورجال القصر والحاشية ، ورولان بطل الأنشودة الشهيرة التى نظمت فيما بعد عن هذه الواقعة ، وأسندت من أناشيد معاصرة لها ، وانتهى لازالت أثرا خالدا لشهيد الفروسية فى العصور الوسطى .

وتذكر المصادر الفرنسية أن هذه الغارة ، قد أبادت مؤخرة جيش شارلمان وقتلت قائدها الفرنسى رولان الذى كان من المقربين لشارلمان ، وقد ظهرت بعد هذه الحادثة بمدة طويلة تقرب من ثلاثة قرون ، ملحمة فرنسية تشيد ببطولة هذا الفارس الفرنسى ، وتغانية فى الدفاع عن وطنه وجيشه وقائده ، وكيف أنه رفض أن يفتح فى البوق حتى لا يعود شارلمان لانتقاده ، فيقع فى الكمين ، وكيف أن عشيقته التى كانت تنتظر عودته الى فرنسا بشغفه شديد ، ماتت كمدا وحزنا على مقتله ويعتبر الفرنسيون أنشودة رولان بداية الأدب الفرنسى ، على الرغم من أنها تقسم بالطابع الأسطورى .

عاد شارلمان الى بلاده يجر أذيال الفشل والخيبة بعد أن فقد رهرة الجيش الفرنسى ، وأسترد عبد الرحمن الداخل سرقسطه سنة ١٦٤ هـ ، ووطد أقدامه فى هذه انواحى وأثبتت هذه المعركة أن الامارة الأموية بقيادة عبد الرحمن الداخل قوية ، تستطيع التصدى للمؤامرات الداخلية والخارجية ، ففشلت الخلافة العباسية فى أسترداد الأندلس ، وفشل شارلمان فى الاستيلاء على هذه البلاد وفشل المتواطئون الخونة الدين

لم يتورعوا عن الاستعانة بالعدو لتخليصهم من حكم عبد الرحمن الداخل .
وفي عهد عبد الرحمن لم نعد نسمع عن مجاولات خارجية أخرى للاستيلاء
على الأندلس .

وكان عبد الرحمن رجلا يعرف قدر الرجال ، فلما التقى بنسارلمان ،
ووجده — كما يقوله ابن حيان — تام الرجولة صلب المكسر ، أوجى اليه
دهاؤه أن يتودد اليه ، مع ما كان له عليه من الفوز والانتصار ، فدعاه الى
عقد معاهدة يأمن بها كل منهما جانب صاحبه ، وزاد في تودده ، فعرض
أن يصاهر شارلمان تدعيما للرابطة بينهما ، فلم يسع شارلمان الا أن يبعد عن
نفسه ذلك الحلم الامبراطوري فيما يحتض بالأندلس فأجابه الى السلم ،
وأن لم يتمم المعاهدة .

حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل

بعد الفتح العربي اختلط العرب والبربر المسلمون بسكان البلاد
الأصليين من القوط والأسبان واليهود ، وامتزجوا فيما بينهم ، ونشأت
طبقة جديدة — المولدين — من تزاوج العرب والبربر بالاسبان . أما أهل
اسبانيا الذين تعلموا اللغة العربية ، فسموا بالمستعربين ، وكانت الثقافة
الاسلامية في الوطن الأم — الوطن الاسلامي — تتواءم على الأندلس مع
المهاجرين الجدد ، وحدث امتزاج بين طبقات أهل الأندلس ، وذيوع الثقافة
الاسلامية بين هذه الطبقات الأمر الذي كان له أثره في حضارة أوربا
عموما . ويلاحظ أن التأثير الشامى في الأندلس كان واضحا في عصر
الولاء ، لأنه وقد عليها مع الجند والمهاجرين من الشام حتى أن الحياة
الأدبية كانت صدى لحياة الشام الأدبية ، فالشعر الأندلسي في هذه الفترة
كان شعرا كلاسيكيا يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجريز وكان الأمير
عبد الرحمن شاعرا ، مثل أمراء بني أمية السابقين ، وله شعر فيه حنين الى
وطنه الأول الشام .

أيها الراكب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى

ان بجسمي كما علمت بأرض
قد قضى الله بالفراق علينا
وفيقادي ومالكيسبة بأرض
فعتنى باجتماعنا سوف يقضى .

عنى الداخل بقرطبة — حاصرة المسلمين فى الأندلس — وحصنها
وزيخها بالمنشآت الفخمة والرياض الياينة ، وأول أنشأته منية الرصافة ،
وقصرها المنيف وكان قصر الامارة قد تقادم به الزمن وولت أيامه ، فأنشأ
عبد الرحمن ضاحية ملوكية فى شمال غربى قرطبة ، بها قصر منيف ، جلب
له مختلف البدور والغروس من الشام وأفريقية ، وسببها
الرصافة ، كما فعل جده هشام بن عبد الملك من قبل ، الذى نقل مقر أمارته
الى ضاحية جديدة سماها الرصافة فى الشمال الشرقى من الشام ، وجبر
الماء الى هذه الجنة الغناء وغرس بها نخلة أتى بها من الشام ، وقد جذبت
هذه النخلة منابر عبد الرحمن فقال فيها .

تهبت لنا وسط الرصافة نخله
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

والرصافة من الرصف أى المدينة الجانبية مثل رصافة بغداد ، وهى
بغداد الشرقية . على كل حال ورث عبد الرحمن عن أجداده فى المشرق
اقتخاذ قصور فى الضواحي والصحارى بعيدا عن صخب المدن والاهتمام
بالمشآت المعمارية وسار خلفاؤه على هذا الأسلوب .

كذلك أعاد عبد الرحمن الداخل بناء جامع قرطبة سنة
١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، وتأثر فى بنائه بمسجد دمشق . كما أنشأ مساجد فى
مدن أخرى فى الأندلس . وقد أنفق عبد الرحمن أموالا كثيرة فى تشييد
هذه المساجد ، لكنه توفى قبل اتمام بناء جامع قرطبة ، فأتمه خلفاؤه
من بعده ووسعوه وجددوه ، وزادوا فى زخرفته حتى أصبح قبلة المسلمين
فى الغرب ، وقال بعض المؤرخين : ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ،
ولا أعجب بناء ، ولا أتقن صنعة .

وعلى عبد الرحمن بأعداد جيش قوى من الموالى والبربر والرفيق
واتخذ قواعد بحرية لبناء السفن فى عدة موانئ بالأندلس ، وحصن مدينة
قرطبة ، واتخذ لها سور قرطبة الكبير .

ونختم هنا عهد عبد الرحمن ، ونقول انه قضى أكثر من ثلاثين سنة ،
فى حروب مستمرة مع أعدائه فى الداخل والخارج ، يقهر خصما ، ليصارع
خصما آخر ، وتغلب على كل هذه المعقات التى أعترضت حكمه . وبذلك
أسس الدولة الأموية فى الأندلس ، ووضع القواعد والأسس التى استمرت
ثلاثة قرون .

هشام بن عبد الرحمن

(١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦ م)

ترك عبد الرحمن أكثر من عشرة أبناء تخص بالذكر منهم ، سليمان وهشام وعبد الله ، أما سليمان فقد ولد في الشام ، وكان يحكم طليطلة في ولاية أبيه ، ويحظى بمحبة أهل الشام وعبد الله ، وكان يحكم بلنسية وكان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن ، إلا أن عبد الرحمن كان يفضل ابنه هشام — حاكم ماردة — وأمه أم ولد تسمى حلال و حلال وعرف عن هشام الورع والتقوى والتواضع وحب الخير لم يعرف عنه كما يقول ابن حبان : هفوة في حدادته ولا زلة في أيام صباه .

سار عبد الرحمن سيرة آبائه الأمويين بتوريث الحكم أبنائهم ، وترك قبل وفاته وصية غامضة لابنه الثالث عبد الله ، يوصيه فيها بتسليم الحكم لمن يدخل العاصمة قرطبة أولا من الأخوين ، سليمان وهشام ، فقال . فان سبق إليك هشام فارم اليه الخاتم ، فله فضل دينه ، واجتماع الكلمة عليه ، وان سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له .

ووصل هشام الى العاصمة قرطبة قبل أخيه سليمان ، وولى الخلافة . ولكن سليمان لم يعترف به ، ودعا لنفسه في طليطلة وما جاورها ، وانضم اليه أخوه عبد الله ، ولحق به في طليطلة ، وأعلن الاخوان الثورة ، وأنضم اليهما الكثير من أهل الشام ، وهاجم سليمان قرطبة ، ولكن الجند ، ردوه على أعقابهم ، فذهب الى ما رده ، ومنها الى بلنسية ، وعاث في البلاد نهبا وفسادا ، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل ، فلجأ عبد الله الى قرطبة وطلب من أخيه هشام العفو والصفح ، فعفا عن أخويه سليمان وعبد الله على أن يعبر كل منهما بأهله وولده الى المغرب وأقاما بحدوة المغرب . وأنتهت بذلك ثورة الاخوان (١٧٤ هـ / ٧٩٠ م) .

استطاع هشام بن عبد الرحمن التصدي لكل المحاولات التي

استهدفت النيل من ملكه ، ودخل في حروب عديدة مع معارضية ، فبعد أن قضى على ثورة أخويه — كما قدمنا — أخضع نورتن يمينتين قامتا في نواحي سرقسطه وبرسلونه ، الأولى كانت بقيادة سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقظان (ابن الأبرابي) وسبق القول أنه هاجم مؤخرة جيش سارلمان أثناء انسحابه الى فرنسا . الأولى قضى عليها المضرية ، ودعوا لهشام ، والثانية قضى عليها عبيد الله ابن عثمان — قائد الأمير هشام — بعد ان استولى على طرطوشه ، وخاصر سرقسطه ، وفيها مطروح وصحبه ، وظل يواصل الحصار حتى استسلمت سرقسطه ، وقتل مطروح سنة ١٧٥ هـ . وبذلك فتسلت الثورة في تلك الأثناء . كما جرد هشام عدة حملات على جموع البربر الثائرة في رنده أو تاكرنا سنة ١٧٨ هـ ، وثبتت جموعهم ، وأرغمهم على الطاعة والولاء .

الموقف من نصارى الشمال

بعد أن قهر هشام الفتن الداخلية في دولته ، اعتزم تأديب نصارى الشمال الذين لجأوا الى العنف واقتطاع الأراضي والاغارة على ممتلكات الدولة الإسلامية منتهزين فرصة موت عبد الرحمن ، والقلق التي أعقبت وفاته ، وللنصارى جبهتان في اسبانيا تقاوم كل منهما الحكم الاسلامى ، جبهة شرقية وهى منطقة القلاع ، التي صارت فشتالة فيما بعد ، وجبهة غربية وهى منطقة جليقية ، وشجع النصارى في الجبهتين الفرنجة والبشكنس ، فأرسل هشام الجيوش التي اخترقت قلاع فشتاله وأغوار جليقية ، وهزم عبد الله بن عثمان برمند — ملك جليقية — سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ، واصل المسلمون غاراتهم على جليقية حتى تنازل الملك عن عرشه لولده ألفونسو الثاني .

ولم يكتف هشام بذلك بل سیر سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م حملة أخرى الى جليقة بقيادة عبد الكريم بن الواحد بن مغيث فلخترق المسلمون مغاور جليقية ، ففر السكان الى رؤوس الجبال ، ودارت رحى معركة رهيبه بين ملك جليقية والقائد المسلم ، انتهت بهزيمة الجلائقة ،

وغنم المسلمون مغنم كثيرة . وبذلك عادت الولايات الشمالية الى الهدوء والطاعة .

وأراد هشام إعادة عهد الجهاد فيما وراء انبرثات ، فأرسل حملات صيفية على ولاية سيتمانيا الفرنجية في جنوب فرنسا وغنم منها مغنم كثيرة ، مكنته من بناء عدة مساجد على شاطئ الوادي الكبير ، ونوسيح نطاق مسجد قرطبة الذي أسسه والده ، كذلك أعاد بناء الجسر القديم الممتد على الوادي الكبير ، والذي يربط العاصمة بأراضيها الجنوبية ، وصار يعرف بجسر قرطبة .

وقد كتب المؤرخ الفرنسي رينو يقول أن هشاماً أراد أن يوجه المسلمين الى الجهاد ، بدلا من أن يحارب بعضهم بعضاً ، ويجمع ثملهم يشرف الجهاد ، ويشغل المسلمين عن إثارة القلاقل والاضطرابات ، وأراد في نفس الوقت أن يثبت لنصارى انشمال قوة المسلمين ، وتدة بأسهم ، وأن يعوض ما ضاع من المسلمين من أرض نتيجة لغزوات بيين وشارلمان ، وأصدر هشام منشورا قرىء في الجوامع يدعو الناس الى الجهاد بالنفس أو بالمال ، ولقيت دعوته قبولا وحماسا من الأهلين ، فنفروا الى قرطبة خفاها وثقالا من كل فج عميق حتى تجمع لديه مائة ألف مقاتل ، وأموال جمه ، فسير الحملات الى الشمال وإلى جنوب فرنسا ، كما سبق القول .

مذهب مالك في الأندلس

من المعروف أن المذاهب الفقهية الرئيسية ، هي المالكي ، والحنفي والشافعي والحنبلي . وأنتشرت هذه المذاهب في البلاد الإسلامية ، كل فيما يناسبه من مذهب ، وقد أنتشر المذهب الحنفي في العراق ، لأنه عراقي ، ولم ينتشر في الأندلس لأنه مذهب الدولة العباسية المعادية ، ولأن مالك نفسه كان يعارض سياسة العباسيين ونقل عن الإمام مالك ارتياعه الى سياسة هشام وورعه وتقواه ، وتطبيق أحكام الاسلام بأمانة ودقة ، وكان الغاتحون العرب والمهاجرون اليها من العرب أهل من

أهل الشام أو من أهل الحجاز ، وأهل الشام تأثروا بمذهب الأوزاعي الذي انتشر في الأندلس بعد الفتوح ، أما الحجازيون فقد حملوا مذهب مالك معهم إلى الأندلس وكان من بينهم فقهاء ، حملوا أفكار هذا المذهب إلى أهل الأندلس ، وسافر طلاب علم إلى المدينة المنورة ، وتمعنوا على أيدي هذا العالم الجليل ، وعادوا إلى الأندلس فقهاء ينشرون هذا المذهب بين الناس ، ومن بين هؤلاء زياد بن عبد الرحمن ، وأخذ عنه يحيى بن يحيى البليثي الذي رحل إلى الحجاز ، ليأخذ عن الشيخ ، وعاد إلى الأندلس ليتم ما بدأه أستاذه زياد ، فانتشر المذهب في الأندلس ثم عبر بلاد المغرب ، وانتشر فيها ، وحل مذهب مالك في الأندلس محل مذهب الأوزاعي .

ويتضمن مذهب مالك آراء فقهية في القضاء والفتيا وفي العبادات والأحوال الشخصية ، فيها الحلول لكثير من مشاكل الدنيا . وهناك سبب آخر يروية ابن خلدون وهو أن البيئة الأندلسية والمغربية أو طبيعة أهل المغرب والأندلس كانت تشبه إلى حد كبير ، طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد ، ولهذا فإن عقلية أهل الأندلس والمغرب ، كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث .

ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبي حنيفة ، في أن مذهب مالك يتقيد بنصوص القرآن وبالأحاديث النبوية في استنباط الأحكام الشرعية والفتاوى . ولا يعتمدون على الرأي والقياس إلا قبا ندر . أما مذهب أبي حنيفة فيعتمد على الرأي والقياس إلى جانب النصوص . لذلك عرف أنصار مذهب مالك بأهل الحديث . أما أنصار أبي حنيفة فعرفوا بأهل الرأي والقياس . وقد ظهرت في العراق مشكلات عديدة ومعقدة بسبب تعدد الأجناس وأزدهار الحضارة ، وظهور موضوعات جديدة في حاجة إلى الاجتهاد والرأي والقياس .

..حدث الأندلس في أيام هشام . أعجب الناس به وبسبب دماسته ، والتفوا حوله ونصروه ، وشبهوه بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في ورعه وصلاحه وتدينه ، وزهده في الدنيا . والسمير على مصالح الرعية . وكان

يؤسب عماله إلى الكور والاقاليم لتفقد أحوال الحكام والقضاء ، فإذا ثبت ظلم وال أو قتل ، استدعاه ، وعزله وعاقبه ، وإذا ثبت للعكس حمد الله على حسن أحوال الرعية • وأمر هشام بتدريس اللغة العربية في معاهد التصاري ، مما أدى إلى دخولهم فيه •

ويرجع الفضل في هشام إلى أنه كان يطبق الزكاه ، فيجمعها طبقا للشرع ويوزعها على المحتاجين ، وكان يطوف الشوارع ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في المظالم بنفسه ، ويزور المرضى ، ويحث الناس على تعمير المساجد حتى امتلأت بالمصلين • لذلك أشاد الإمام مالك بعدله وتقواه •

ومادونا قد تحدثنا كثيرا عن الامام مالك الذي عاصر هشام فيجب أن نشير بإيجاز إلى هذا الامام •

مالك بن أنس رجل يمني من قبيلة ذى أصبح ، عاش بين عامي ٩٤ — ١٨٩ هـ أي أنه أدرك العصرين الأموي والعباسي ، واتخذ المدينة المنورة مقرا له ، وللامام مالك كتاب في الحديث اسمه (الموطأ) مرقب حسب الموضوعات ، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات • الخ ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية •

قد عرف مالك بشدته في تحري الصحة في الرواية والاسناد ولذا فكتابه من الكتب الصحيحة ، وعرف عنه سعة العلم وكان محدثا يارعا ، وأماما يعرفه للقاضي والداني ، ويسعى إلى تلقي العلم منه ، طلاب الحديث من المشرق والمغرب •

الأمير الحكم الرضى

(١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م)

تجنب هشام بن عبد الرحمن الله كفة التي حدثت بعد وفاة أبيه بسبب ولاية العهد ، والتي أشرنا اليها • لذلك عهد الى ابنه الحكم بالحكم من بعده ، وسمى بالرضى لموقف بينه وبين أهل الرض من نواحي قرطبه •

تختلف شخصية الحكم اختلافا واضحا عن شخصية أبيه فبينما كان أبوه يعتمد على الفقهاء فى إدارة شؤون الدولة رفض الحكم هذه السياسة • وأثبتت الأحداث التاريخية أن رجال الدين لا يمكن الاعتماد عليهم فى الشؤون السياسية وإدارة أمور الدولة ، حتى أن العباسيين كانوا يرفضون تولية أصحاب الطيالس مناصب الوزارة •

نعود الى الحكم وموقفه من رجال الدين ، فقد أبعدهم عن مناصب الدولة ، ورفع عنهم الامتيازات التى منحها لهم هشام فأتهموه بالكفر والخروج على الدين ، وحرصوا عليه فئات الشعب ، وناصبوه العداة ، ووضعوا العراقيل فى سبيل حكمه • ولكنه لم يأبه بمعارضتهم ، بل تصدى لهم بقوة •

الفتن والثورات الداخلية

نم يهدأ سليمان وأخوه عبد الله فى المقر الجديد بالمغرب ، فكان سليمان يقيم فى طنجة ، على حين يقيم عبد الله فى المغرب الأوسط ، وكل من الأخويين يترقب الفرصة المواتية للعودة الى الأندلس ، والمطالبة بالحكم ، وأنتهز الأخوان فرصة وفاة أخيهما هشام ، وعبر سليمان الى الأندلس على رأس جموع من البربر والمرتقة ، وحاول الاغارة على قرطبة عدة مرات ، ولكن الحكم هزمه سنة ١٨٢ هـ • وهزمه الحكم فى العام التالى بالقرب من استجة ، ففر فى أصحابه متجها الى ماردة ، فبعث الحكم الجند فى أثره وأرسل الحكم اليه جيشا هزمه ، وقبض عليه ، وسبق هو ورفاقه

الى قرطبة ، وأمر الحكم بأعدامهم ، وطيف برؤوسهم في شوارع قرطبة ،
ثم أمر بتشييع جنازة عمه في احتفال مهيب ، ودفنه بالروضة بقصر الامارة
بجوار والده عبد الرحمن .

أما عبد الله ، فقد أحتفى في بلنسية بعد هزيمه أخيه سليمان ،
ولكنه في النهاية لم ير مناصا من طلب العفو والمصغح ، فصدر احكم له
أمانا ، على أن يبقى في بلنسية ، وتجري عليه أرزاقه ، وزوج الحكم
احدي بناته لعبيد الله بن عبد الله وركن عبد الله الى اطاعة والسكينة طوال
عهد الحكم ، وأظهر عبيد الله بن عبد الله الولاء للحكم ، ودخل في خدمته ،
وتدرج في سلك الجيش وطهر نبوغه في تلك الصوائف التي تسنها على
المسيحيين في الشمال ، ولذا لقب بصاحب الصوائف .

ثورات المولدين

المولدين — كما علمتم — هم طبقة نشأت في الأندلس من زواج
المسلمين بالاسبانيات ، وسكنت هذه الطبقة بمرور الزمن الغالبية العظمى
من سكان الأندلس ، فمنهم المزارعون والطلبة والتجار والفقهاء والصناع ،
وقد سعروا بالغبن من حكومة الأندلس التي كانت تحرمهم من المناصب
الكبيرة ، وتنقل كاهلهم بالصرائب المادحة ، فقاموا بثورات تهدف الى
تحسين وضعهم السياسي والاجتماعي وأهم هذه الثورات ، ثورة
في قرطبة ، وأخرى في طليطلة ولنتحدث الآن عن ثورات أهل طليطلة
عاصمة القوط القديمة وقاعدة التغر الأدنى ، وكان بين أهلها للكثير من
المولدين والمستعمرين الذين يشعرون بصيرة بالتخلص من سلطان قرطبة
الذي سلبهم حقوقهم السياسية والاجتماعية ، ولم ينسوا سالف عزهم
ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بروتهم
وكثرتهم وحصانة مدينتهم ، ونشبت في طليطلة عدة فتن ، أجهدت جند
الحكم ، ولم يستطع الحكم إعادة البلاد الى الهدوء والطاعة فلجأ الى
الحيلة والتدبئة ، وعين عمرو بن موسى بن يوسف — وهو من المولدين سرياليا
مقتنى طليطلة — وكان مغربيا من نسله ، وكان الحكم موافقا في هذا

الاختيار ، لأن عمروس ثسانه نسان معظم أهل طليطلة من المولدين ، ويطمأنون اليه ، لذلك بعلاقته بالحكم من ناحية ، وبالمولدين من ناحية أخرى ، يستطيع أن يلعب دورا ناجحا في أزاله التوتر من المدينة أثائره . وكتب الحكم الى أهل طليطلة يقول : أسى قد اخترت لكم علانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم وأعفيتكم ممن تكرهونه من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ، ودخل عمروس طليطنة ، وتظاهر أمام أهلها ببعض بنى أمية حتى استمالهم اليه ، ثم سيد خارج المدينة قلعة جديدة ، منظاهرا أنه سيدها ليقيم فيها الجند بعيدا عن المدينة ، حتى لا ينفقوا الاهالى .

عول عمروس التخلص من زعماء الفتنة ، فأقام وليمة في القلعة الجديدة ، ودعا اليها رؤساء وسادة أهل طليطلة انعارضين لحكم الحكم ، وأمر بقتلهم جميعا ، والقاء جثثهم في مكان أعده نهم سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م وكان لهذه الجريمة النسعاء أثرا في ضعف أهل طليطه ، فكفوا عن العصيان ، وعادوا الى الطاعة وانولاء لحكومة قرطبة وأنتهت الفتنة والقلق في هذه المدينة العتيقة .

وثورة المولدين النانية ، كانت أشد خطرا من الأولى ، وأبعد أثرا ، وتعرف هذه الدورة ، بثورة الربضيين ، نسبة الى الربض ، ضاحية من ضواحي قرطبة ، يقيم فيها العمال والزراع والصناع وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانت قرطبة قد ازدحمت بالسكان خصوصا من المهاجرين العرب والبربر ، وقد سيد هشام بن عبد الرحمن الجسر على نهر الوادى الكبير ، ليربط المدينة بأراضيبها الجنوبية ، فامتد العمران الى انصفه الأخرى المواجهة للمدينة ، فنشأ حي الربض — الذى سبقت الاساره اليه — وأمتد الى مدينة شقنده ، وهذه العناصر التسعبية التى أقامت في هذا الحى ، كانت تقع تحت تأثير الفقهاء الذين أغضبهم تحديد الحكم لنفودهم ، كما أن أهل الربض — ومعظمهم من المولدين — شعروا بالظلم الاجتماعى ، وأنهم كطبقة اجتماعية لم يكن لها حقوق تجعلهم على قدم المساواة مع العرب أو البربر .

وقد حدث حادث بسيط ، ولكن نظرا لجو السخط العام الذي كان مسيطرا على المجتمع حينذاك ، فقد أدى الى ثورة كانت لها نتائج بعيدة في الشرق والغرب . وملخص هذا الحادث أن جنديا من حرس الأمير ، ذهب الى حداد بحى الربض ليصلح سيفه ، فتباطأ في إصلاحه ، وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطور الى جدال عنيف ، فما كان من الجندي إلا أن قتل الحداد ، الذي كان من طبقة المولدين ، وكان هذا بمثابة الشرارة التي أشعلت الحريق ، فقد انفجر السخط وتجمع الناس على الجندي فقتلوه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل خرجوا جماعات كبيرة مسلحة بالبلط والعصى والسكاكين ، وما وصلت اليه أيديهم من سلاح ، وأندس بينهم الفقهاء وأغلقوا المتاجر والحوانيت ، وأتجهوا الى قصر الامارة عبر الجسر ، وترعمهم الفقهاء ، ومن بينهم يحيى بن يحيى الليثي ، وحاصرت هذه الجموع الثائرة قصر الحكم ، وحاولوا اقتحام القصر وقتل الأمير .

تصدى الحكم بسرعة لهذا الخطر انداهم الذي يهدده ويهدد ملكه ، فأستدعى رئيس حرسه الخاص ، وأمره بالدفاع عن القصر ، كما أستدعى ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي — صاحب الصوائف — وأمر أن يبذل قصارى جهده ، ويشق طريقه الى حى الربض ، واشعال النار فيه ، ونجحت الخطة ، فأحترق جند الحكم النهر على مخاضة ، لأن الجسر كان مزدحما بالثوار ، وأحرق جند الحكم مساكن الثوار ، ولما رأى أهل الربض مساكنهم تحترق ، أسقط في أيديهم ، وفزعوا وأسرعوا الى الربض تاركين قصر الحكم لانقاذ أولادهم ونسائهم . وعلى الجسر هاجمتهم القوات من خلفهم ومن أمامهم ، وأوقعت جند الحكم الثوار بين نارين ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وأعملت فيهم السيف ، حتى مزقتهم كل ممزق ، وكانت هذه الواقعة حوالى سنة ٢٠٢ هـ ولم يكتف الحكم بذلك ، بل أمر أهل الربض بالرحيل من الأندلس ، وأمهلهم ثلاثة أيام ، فمن تخلف ، أمر بقتله ثم أمر بالربض ، وهدمت وحرثت مكانها وزرع ، وأوصى ألا يسكن هذا الحى بعد وفاته .

واقترن اسم الحكم بالربض ، فسمي بالربضى ، ونفذ خلفاؤه

وصيته ، ولم يعمر هذا المكان حتى أواخر القرن الرابع الهجرى •

ومن أهم نتائج هذه الثورة ، أثبات مقدرة الحكم وكفاءته فى إخضاع الثورات ، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة ، وتقلص نفوذ الفقهاء ، وخشوا بأسه ، وفر بعضهم خارج الأندلس • وكفوا عن مهاجمة الحكم فى الشوارع والأسواق والمساجد والاجتماعات ، وأتهامه بالكفر والالحاد •

أما النتائج الخارجية ، فهى خروج الربضيين من الأندلس بحثا عن موطن جديد وحياة جديدة ، وأرضا يهاجرون إليها ويستقرون فيها ، بعد أن طردهم الحكم من بلادهم •

عبر الربضيون مضيق جبل طارق الى العدو المغربية حيث استقروا بين قبائل البربر فى الريف شمالى المغرب ، ورحب بهم أدريس الثانى — أمير دولة الأدارسة النانسة — وكان وقتئذ يؤسس مدينة فاس ، وفى حاجة الى صناع وعمال وفنيين يعاونونه فى تأسيس المدينة الجديدة ، فرحب بالربضيين ، ونقلوا الى فاس مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا — كما قلت — من أهل الصناعات والحرف ، فأعطوا المدينة طابعا أندلسيا جميلا سواء فى أبنيتها البيضاء ذات الحداثق الداخلية فى أحواشها ، ونزل فريق منهم بحى ، بحرف بحى الأندلسيين •

أما المدينة العالية التى أسسها أدريس الثانى على الضفة المقابلة فقد أسكنها لجماعة من أفريقية من نواحي القيروان ، وسميت مدينة القرويين ، وبمرور الزمن غلب اسم فاس على المدينتين ، وصار يشتمل عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسيين ، وقد اشتغل القرويون بالتجارة ، واشتغل الأندلسيون بالزراعة والصناعة •

أما الفريق الآخر ، فقد سارعوا نحو الشرق برا وبحرا ، وهاجموا الاسكندرية ، وأستولوا عليها بمساعدة بعض العربان ، وأستقروا فيها ، وأقاموا لهم فيها واليا منهم • ولكن والى مصر عبد الله بن طاهر

ابن الحسين ، لم يتغاض عن أهل الربض في الاسكندرية ، وانتزاعها من ولاية مصر ، بل صار إلى الاسكندرية ، وشدد عليها الحصار ، ودارت عدة معارك بين الفريقين ، انتهت بتسليم أهل الربض الاسكندرية لعبد الله بن طاهر ، وعقد معهم صلحا ، بمقتضاه ، ينسحب أهل الربض من الاسكندرية إلى أى أرض غير أرض العباسيين وأعد لهم مراكب لاجلائهم ، فقصدوا جزيرة كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأقاموا لهم فيها دولة اسلامية ، عرفت بالدولة اكلبيه ، وظلت هذه الدولة مصدر تهديد لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، وحاول البيزنطيون اجلاء هؤلاء المسلمين من جزيرة كريت دون جدوى ، وكان المسلمون في كريت يتلقون المساعدات من مصر وانسام وافريقية إلى هذه الجزيرة المجاهدة التي تتصدى للخطر البيزنطى . واستمرت دولة الكليبيين الصغيرة زاهرة زهاء قرن وثلاث (٢١٢ هـ — ٣٥٠ م) حيث استعاد البيزنطيون الجزيرة .

العلاقات الخارجية

لم تكف دولة الفرنجة المتأخمة لدولة المسلمين في الأندلس عن محاولة غزو هذه الدولة ، والقضاء عليها ، وذلك لتأمين حدودها ، واستطاعت بالحرب والقتال انشاء ثغر قوطى في أقصى اسبانيا الشمالية الشرقية ، مما يلى جبال البرتات وكان الثغر القوطى يتكون من مدن جيرونه وأوزونه وسولسونه ، ولم يكتف شارلمان بذلك بل عول على توسيع الثغر القوطى ، وتطلع إلى فتح ثغر برشلونه المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا ، ولتحقيق هذا الغرض عقد شارلمان تحالفا مع الفونسو الثانى — ملك جليقيه — لضمان ولاء البشكنس . وفى سنة ١٨٥ هـ أرسل شارلمان جيشا لتحقيق هذه العاية بقيادة لويس بن شارلمان — أمير أكوئين — وكانت الفرصة مواتية ، بسبب انشغال الحكم بمقاومة البورات التي استتلت ضده ، وقد واجه سعدون الرعينى — والى برشلونه — الحصار بشجاعه وبسالة ، وكانت حكومة قرطبة مشغولة عنه بمساكلها الداخلية ونم تصله أية آمادات ، وسدد الفرنج الحصار على برشلونه حتى هلك معظم سكانها ،

ويجد سبعة أشهر اقتحم العدو المدينة الحصينة . وأخذ الفرنج برسلونه بدلا من جيرنده قاعده للنغر انقوطى الذى سما فيما بعد . وغد هذا النجر الفرنجى أماره نصرانية تسمى قطلونيه ، التى أندمجت فيما بعد فى مملكه أراجون . وخسر الاسلام بفقد برسلونه أمنع معوره فى قاصيه أسبانيا ، وأرتحت حدود الأندلس الى النغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاور جبال البرتات . ونس الفرنج بقياده لويس بن شارلمان هجمات على ولاية النغر الأعلى سنة ١٩٢ هـ عدة مرات ، وحاصروا مدينه طرطونسة ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم حاسرين .

كذلك أنتهز الفونسو الثانى — ملك جليقية — سنة ١٩٤ هـ فرصه انتفغال المسلمين بالبيرات ، وعمر الى بلاد المسلمين عدة مرات وعاث فى البلاد نهباً وفسادا ونخربا ، ندى لجيسه الحكم ، وحد هجماته ، وهزم النصارى فى عدة وقائع واطمان المسلمون وأمنوا من هذه الغارات المتلاحقة ، وهاجم الحكم برسلونه ، ودارت حروب بين الفرنج والمسلمين بدون طائل ، دلجأ الطرفان الى الصلح ، وعقد الحكم وشارلمان صلحا ، أستمروا حتى وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م

وفى سنة ٢٠٠ هـ شن الحكم عدة هجمات فى جليقية وعلى البشكنس ، أضعفهم ، وأنهك قواهم ، وأمن مكرهم ، وأعتصم النصارى بالوهاد والربى .

كان الحكم حاكما قويا مستتباً ، يصل الى غايته بأى وسيلة ، صارما قاسيا ، شغوفا بأبهة الملك ، يترفع عن الرعية ، وهو فى ذلك يختلف عن أبيه وحده ، وكان يحسن اختيار رجال دولته ، ممن عرفوا بالعدل والورع والاستتاره . وهو أول من أظهر فخامة الملك ، وأول من أنشأ بالأندلس بلاطا اسلاميا ملوكيا ، ورتب نظمه ومراسمه ، واستكثر من الموالى ، وجعل منهم حرسه الخاص ، واستكثر من الصقالية وعهد اليهم بمعظم شؤون القصر ، وكانوا من الرقيق الخصيان يؤتى بهم من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللومبارد ومختلف نغور البحر المتوسط النصرانية وكان

يؤتى بهم أطفالاً ، ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال القصر ،
وتدرجوا في سلك الوظائف حتى بلغ بعضهم الرياسة والقيادة .

وأستطاع الحكم تنظيم البلاد إدارياً ، فكانت تسير على منظمه ومدرجه
على تأدية مهامها على أكمل وجه ، وله عيون وحواسيس يطلعونه على
الأخبار . وعلى الجملة كان الحكم عظيم السلطان والمهية .

الأمير عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ - ٢٣٨ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م)

يتميز عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بالنقلة الحضارية التي انتقلت الى الأندلس في أيامه ، فقبل عهد الأمير عبد الرحمن كانت المؤثرات الحضارية الإسلامية في الأندلس ، مبعثها بلاد الحجاز أو بلاد الشام ، وكان انشاط الحضاري في هذه البلاد محدودا ، وبالتالي فالقوائد الحضارية التي انتقلت الى الأندلس من تلك البلاد كانت محدودة ، ولما ولي الأمير عبد الرحمن الأوسط رأى ضرورة نقل بلاد الأندلس من شظف البداوة الى رونق الحضارة ، فتطلع الى بلاد العراق ، وهو الأمر الذي حرص أسلافه الأمراء على اغلاق هذا الباب ، نظرا للعداء الشديد بين الأمويين في الأندلس ، والعباسيين في العراق ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أدرك بثاقب نظرة أنه لا يمكن تنمية بلاده حضاريا الا بفتح الباب على مصراعيه لاهل العراق ، وثقافة أهل العراق .

وكانت بلاد العراق بالذات في العصر العباسي قد بلغت شأنا كبيرا في مضمار الحضارة ، وانتقل الى بغداد الفرس ، وغيرهم من الأجناس الأخرى ، وأبرزوا علومهم ومعارفهم ، وحظوا بتشجيع الخلفاء ، وانتشرت في بغداد الكتب والمكتبات في كل فرع ، وترجمت الكتب الأجنبية الى العربية في مختلف العلوم والفنون ، ونبع في بغداد الشعراء والادباء والعلماء .

وشجع عبد الرحمن الأوسط العلماء على الانتقال والهجرة الى بلاده ، وساهموا في ازدهار الحركة الثقافية ، كما أرسل الى العراق يشتري نفائس الكتب والمصنفات ، ولا غرو فقد ورث ملكا موهبا ثابتا ، ودولة أمورها هادئة وخزائنها عامرة ، فحرص على أن يجعل الأندلس من قول العالم الكبرى تخطب ودها الدول الكبيرة مثل الدولة البيزنطية . ودولة الفرنجة وانتقلت الى الأندلس حضارة للعراق ، ومن قبل ذلك حضارة

النساج والحجار ، وبالجملة حضارة الشرق ، وأمتزجت بحضارات العرب . ودهرها الأندلسيون ، وأخرجوا منها حضارة مميزة .

هاجر اناي الأندلس — كما فنيا — علماء في مختلف الفنون ، وكن من لم يبرز بعلمه في المشرق ، كان يهاجر إلى الأندلس ، حيث يجد التقدير ، ويعيش في بند بكر في حاحه إلى العلم وأهله ، ونسب الأندلسيون في شراء تحف قصور الشرق وانجواى من ذوات الصبب الحسن ، فمرت الأندلس برجال العلم وتحف الشرق ، ورسب الحضارة ، لذلك تحول هذا المجتمع من البداوة إلى حياة مترفة راقية .

ومن أبرز مظاهر هذا الانتقال أيام عبد الرحمن الأوسط هو برور شخصيات في عهد هذا الأمير ، بدل على سعة أفق هذا الرجل ، وعلى أناحه الفرصة ليؤلاء العلماء لاظهار معارفهم على مسرح الحياة الأندلسية ، واهتمامه بأفاداة بلاده من مواهب هؤلاء الرجال ، وليس — كما بدهب المؤرخ دوزى من أن ظهور هؤلاء الرجال في بلاد الأندلس ، وتمكنها من الله لطان ، انما يدل على ضعف هذا الأمير .

ولتأذنوا لى بالحديث عن أبرز هؤلاء الرجال :

يحيى بن يحيى الليثى

وهو الفقيه المشهور الذى لعب دورا رئيسيا في نشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان من المقربين لهشام بن عبد الرحمن وحظى بمكانة رفيعة عنده ، ولكن نفوذه تضاعف في عهد الحكم ، وترعم الثورة ضده ، ولكن الأمير عبد الرحمن الأوسط قربه اليه ، وأسند اليه منصب قاضى انفضاء ، وكان أنسبه بوزير العدل في أيامنا هذه ، يعين القضاة في النواحي ، ويشرف عليهم ، ويتفقد أعمالهم ، وربما في بعض الأحيان ، يلى قضاه بعض النواحي ، ويعين من القضاة من ينيب عنه ، وكان نفوذه كبيرا في الأندلس ، حتى أنه كان يتدخل في الشؤون السياسية في الدولة ، ويفرض رأيه على الأمير .

الحسين بن نافع زرياب

وحصل زرياب الى فرطيه في أوائل عهد عبد الرحمن الأوسط وهو مغنى عراقي فارسي الأصل ، ولقب زرياب ، وهي كلمة تطلق على طائر أسود حسن الصوت ، وخصصه زرياب فريدة في بابها ، لا في تاريخ الأندلس فحسب بل في تاريخ الاسلام عموما ، وكان زرياب تلميذ للموسيقى العراقي الكبير اسحاق الموصلي - كبير المغنين والموسيقيين في أيام الرشيد - وقد تبع في عن الألحان على يد أستاذه مم حذب أن عسى زرياب أمام الخليفة العباسي هارون الرشيد ، فأعجب الخليفة بفنه وبراعته ، وقد عزف زرياب أمام الرشيد بعود صنعه لنفسه ، ورفض أن يعزف على عود أستاذه ، وأعجب الرشيد بزرياب وأنتى عليه ، فأدرك اسحاق أن تلمذه ربما يحتل مكانته في يوم ما ، فهدده ، وطلب منه الرحيل عن العراق الى أى بلد يشاء . فقرر زرياب الهجرة الى الأندلس ، فبلغها في سنة ٢٠٧ هـ في أوائل عهد عبد الرحمن ، فأكرمه ، ورحب بمقدمه ، وأنزله في منزل يليق به ، ومنحه الرواتب والافطاعات وأفسح له المجال لاختار نبوغه وفد على أوسع نطاق .

أحدث زرياب تطورا كبيرا في الموسيقى الأندلسية ، ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية ، ونجح في إحلال الموسيقى العراقية محل الموسيقى الحجازية ، وجدد في الألحان تجديدا لم يعرفه أحد من معاصريه ، وجعل مضارب العود من قوادم الفسربدا من الخشب ، مما يساعد على نقاوة الصوت وسلامة الوتر ، وكان العود : آلة الطرب الرئيسية ويرمز الى طبائع البشر مختلفه ، وطبائع المواد الأولى في نفس الوقت ، والطبائع هي الهادى والعصبى والصفراوى والبارد ، والمواد الأولى هي الماء والهواء والتراب والنار ، فأضاف زرياب للعود وترا خامسا جعله في الوسط ، وهو يقابل النفس من الجسد ومازالت موسيقى زرياب ممثلة في الموسيقى الأندلسية المعروفة حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس . وزرياب أول من غنى في وسط مجموعة من المفتندين والمنشدات ، ورتب طلابه على تنقية الصوت وتصفيته وظبطه

وثقويته ، والغناء طبقا للقواعد الموسيقية ، والتمشى مع الموسيقى في
الغناء . وبذلك أصبحت الموسيقى الأندلسية — بفضل زرياب — أرقى
أنواع الموسيقى شرقا وغربا .

وكان لزرياب ذوق رفيع في كل ما يتصل بشؤون الحياة والمجتمع
فعلم الأندلسيين طريقة الطهي العراقي ، وضرورة الترتيب في تقديم
الأطعمة ، بدلا من وضعها دفعة واحدة ، فبيدا الإنسان بالمقبلات ثم
بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة ، وأشار على الأندلسيين ،
استعمال الألوان الزجاجية في الطعام بدلا من الذهبية أو الفضية ، وعلم
الأندلسيين ، كيف يضعون في الطعام التوابل ، وترتيب المائدة .

وزرياب علم الأندلسيين ، اتخاذ ثياب للصيف ، وثياب للشتاء ،
وكان الناس قبله يتخذون الصوف صيفا وشتاء ، أما هو فقد علمهم لبس
القطن صيفا ولبس الصوف شتاء ، وكان له ذوق رفيع في اختيار ألوان
الثياب وأنواعها .

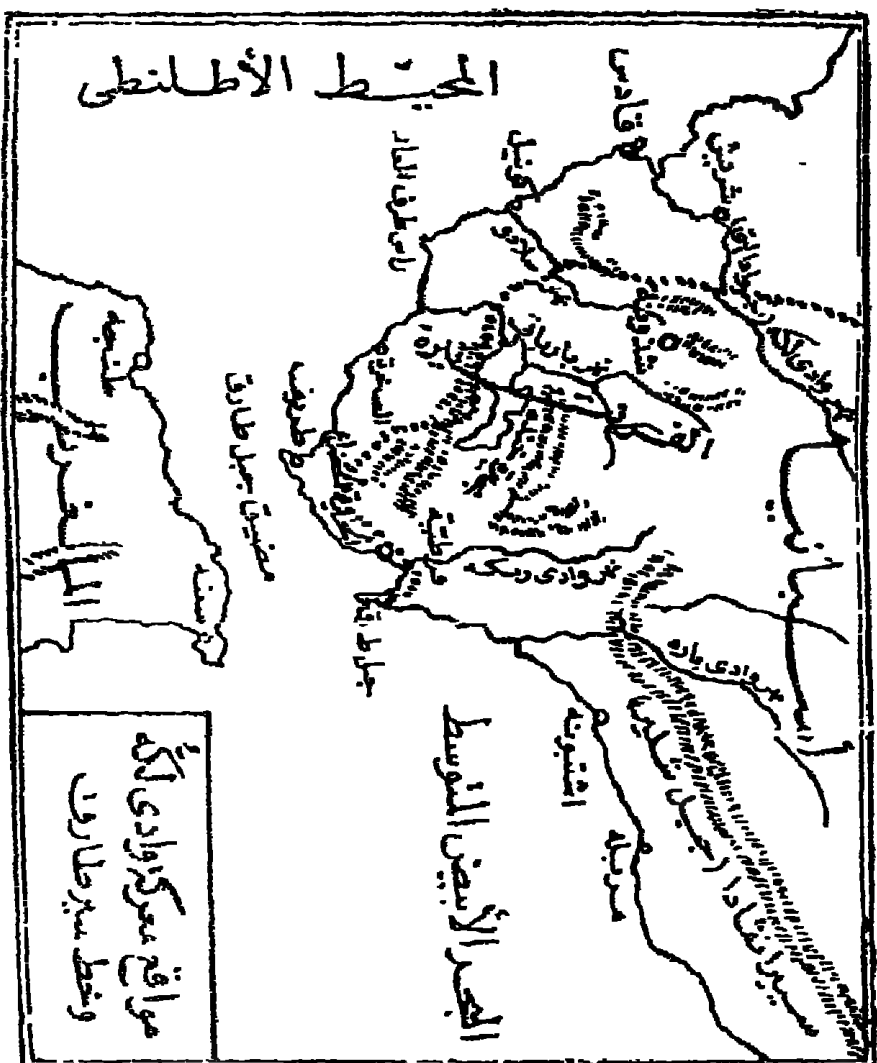
.. كذلك علم زرياب الأندلسيين طريقة تصفيف شعورهم ورفعها خلف
الآذان ، بدلا من تركه مسدولا على جباههم وأعينهم ، وقد تبعه أهل
الأندلس في هذا التصفيف ، والجدير بالذكر أن أهل الأندلس كانوا
لا يستعملون العمائم ، إنما كانوا يتركون رؤوسهم دون غطاء ، شأنهم
في ذلك شأن جيرانهم الذميين . وعرفت هذه المراسم بمراسم زرياب ،
وتمثل انتقال نزعة التجديد والاناقة في ذلك العصر . وقد أثار وجود
زرياب وآرائه ، وما أحدثه من تغيرات في المجتمع ثائرة وحنق الوزراء
وكبار رجال الدولة مثل يحيى الغزال ، وأنكروا على الأمير عطايه له .
ولكن الأمير لم يقبل الاقلال من شأن زرياب وقرب بيته وبين الوزراء .
ومن عوامل صعود زرياب أمام منافسية عدم تدخله في السياسة .

عباس بن فرناس

ومن أعلام ذلك العصر عباس بن فرناس ، وهو فليسيوف وعلامة رياضي من نوع فريد في بابيه ، ويرجح أنه من البربر وقد نشغف بدراسه الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، حتى برع فيها ، وصار من أكبر علماء عصره ، وهو أول من أستنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضا في الموسيقى ووضع آلة فلكية لتحديد الوقت ومعرفة سموها الميقاته وله اختراعات كثيرة أخرى ، ورسم في بيته شكل القبة السماوية ، وقسمها الى بروج ومنازل للشمس ولالأفلاك على مدار السنة ، وحاول أن يوضح اختلاف الفصول ، وأوجه القمر بآلات صنعها لهذا الغرض ، وكان يجري تجاربه على ملا من المقربين اليه ، والمهتمين بالعلم ، فمنهم من أستفاد ومنهم من رماه بالسحر والشعوذة وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين على شكل معين ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فخلق في الهواء ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الارض . وكان هذا سبقا لم يسبقه اليه أحد من رواد الطيران . وأدى كثرة اشتغاله بالكيمياء الى اتهام الناس اياه بالسحر ، فرموه بتهمة القتل والضلال ، ورفعوا أمره الى القاضي . ولكن ثبتت براءته ، والخلاصة أن أحد انوزراء قدر لهذا الرجل علمه وفضله ، وأثره في الحضارة فقال : أبدع عباس بن فرناس طول أمدّه ابداعات لطيفه وأختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة وكان مع ذلك مجيدا للشعر ، حسن التصرف في طريقته كثير المحاسن ، جم الفوائد .

يحيى الغزال

وينسب الى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيان وقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعرا جزلا مطبوعا ، ونبغ في شعر الغزل ، عالما بالفلك والفلسفة وقد أكثر من التعرض للفقهاء ، وانتقادهم ، حتى سخطوا عليه ، وأتهموه بالكفر والالحاد ، وعرف عنه أصالة الرأي وحسن التصريف للأمور ، وقد رشحته هذه الصفات للقيام بمهام دبلوماسية كبيرة .



ويحتي الخزال ناسع لا بكنسب بسعره .- انما يقول الشعر للشعر ذاته ، ولا يتردد على الأمراء لمحهم واستجداء عطائهم ، بل لا يتردد في هجائهم وهجاء كبار رجال الدولة لذلك كثر خصومه . واضطرته ظروف المعيشة الى تقلد بعض الوظائف الصغيرة ، ولكنه لا يتقيد بواجبات الوظيفة والتزاماتها ، ويسير في عمله وفق هواه ، ويهمل في أداء عمله ، فيفصل من الوظائف ، وتفرغ لأهل قرطبه فكان يهجو كل من لا يحظى باعجابه وتقديره ، فكبرت ضده اشكاوى للأمير خطرده من الاندلس ، فلجأ الى بغداد وحضر مجالس الأدب التي ترخر بها العاصمة العباسية ، فتحدى العلماء والطلاب ، وأصابهم بلسانه ، فكثر أعداؤه في بغداد ، فغادرها ، واستأذن الأمير عبد الرحمن في انعوده الى قرطبه ، فأذن له . وعهد اليه بعمل يتناسب مع قدراته ، وهي السفارة الى الملوك .

سعيد بن عبد ربه

ومن أبرز أدباء ذلك العصر ابن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد ، وكان على نمط يختلف عن يحيى الخزال ، فكان يتكسف بسعره ، ويتقرب الى الأمراء ، ويلود بهم ، ويمثل الأدباء التقليديين الذين يدرسون انتراب العربي القديم ، وبغية يغويه في مجاد كبير ، يستعمل الشعر والتاريخ وأخبار العرب وأيامهم ، ومن يقرأ هذا الكتاب شعر أن المؤلف قد جمع له معلومات متنوعة ، أو أنزله في عدة مسائل ، بحيث يأخذ من كل بستان زهرة . والعقد الفريد كتاب أدب نموذجي ، سماه صاحبه 'العقد' لأنه جعل انفصول جواهر ، أشار فيه — كما هو الحال في كتاب الكامل لأبي العباس المبرد الى أيام العرب وأسواقها والخيال وأصنافها والسعراء الجاهليين وسعراء صدر الاسلام والعهد الأموي ، الى غرائب ما قيل في الكرم أو النجاعة أو الفضيلة ، كل ذلك في لغة صحيحة ، تقيد القارئ ، وتوسع مداركه في اللغة .

وظهور هذا الكتاب في الأندلس بدل دلالة واضحة على أن الأدب في الأندلس استقى مادته من الشرق وأن الأندلسيين في دراستهم

الادبييه ، تلمسوا النشاط الملحوظ في الشرق ، والمادة العلمية الغزيرة منه وبذلك توطدت الثقافة العربية الاصيلية في الاندلس أو بعبارة أخرى عاش أدباء الاندلس في جو عربي شرقي خالص ، لا يتأثر الا قليلا بالحياة الاندلسية ، بدليل أن من يقرأ كتاب العقد الفريد ، لا يعتقد أن صاحبه أندلسي ، لقلة الاشارات فيه عن الاندلس . في حين أن كل ما فيه من معلومات عن الشرق .

الثورات الداخلية

حدثت في الاندلس عدة ثورات داخلية ، تغلب عليها الامير عبد الرحمن الأوسط ، ففي مستهل عهده ، عاد عبد الله البلنسي الى الثورة ، واحتل كورة تدمير سنة ٢٠٧ هـ وانضم اليه الكثير من الانصار والأعوان . وقوى بأسه ، وعول الزحف الى قرطبة على الرغم من شيخوخته ، ولكن المرض فاجأه ، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ ، وأنتهت بذلك آخر فتنة ، كانت تحدث بعد تولية الأمراء الذين أعقبوا عبد الرحمن الداخل .

على أن فشل هذه الثورة لم يؤد الى هدوء تدمير ، بل عادت الى الاضطراب من جديد ، بسبب فتنة بن اليمانية والمضرية سببها أن يمانيا قتله مضري ، وفشلت حكومة قرطبة في اخضاع المدينة النائرة ، وأزداد الأمر اضطرابا بعد أن تغلب أبو الشماخ اليماني على تدمير ، ولم تلبث أن هدأت الفتنة سنة ٢١٣ هـ ، بعد أن تسطت حكومة قرطبة وأرمقتها .

كذلك قضى عبد الرحمن الأوسط على ثورات في قرطبة وفي طليطلة ومارده ..

وأستأنف عبد الرحمن سياسة أسلافه في غزو بلاد الفرنجة ، فهاجم سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م ألبة والفلاح وهزم النصارى في عدة وقائع ، ودمر مدينتيه ليون ، ولقن أهلها درسا قاسيا . وفي غضون ذلك صد جيش عبد الرحمن الأوسط جيشا للفرنجة ، أرسله لويس — ملك الفرنج — وتحالفت البنيسكنس معه في هزيمة الفرنجة عند بنبلونه ، كذلك أحيط

عبد الرحمن محاولات الفرنجة في النهر القوطى، انتوسع في أراضي المسلمين •

حرص عبد الرحمن على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفيه متماقبة في كل عام الى الشمال ، تارة الى أطراف النهر الأعلى ، حيب تشتبك مع الفرنج ، وتخرّب أراضيهم وتارة الى ألبه والقلاع ، حيث تغير على أراضي البشكنس أو أطراف ممكة ليون (جنريقيه) ، واضطر البشكنس الى طلب الامان والصلح ، ووطد عبد الرحمن من خلال حملاته نفوذه في تلك الأنحاء سنة (٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م) ولم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة ، وكانت تقصد في الغالب الى ايقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال ، وتخریب بلادهم ، وانهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم •

غارات النورمان

من المعروف أن شبه الجزيرة الأيبيرية لها سواحل طويلة على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسى شرقا وغربا وجنوبا ، وعرضها هذا لغزوات بحرية كثيرة ، وقد فطن المسلمون الى ذلك ، فأنشأوا دور الصناعة في الموانئ المختلفة ، وتولى اليمينيون حراسة الموانئ ، وحفظ السواحل من الغارات البحرية • واعتمدوا كذلك على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين ، وكان لهؤلاء البحريون الأندلسيون مغامرات ومحاولات في المحيط الاطلسى لكشف مجاهله وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجرى ، ولهذه الجماعات البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط ، تمثل في الغارات التى شنتها على جزر البحر المتوسط المتاخمة للدولة البيزنطية أو الدولة الكارولنجية •

ساهمت القوات البحرية لعبد الرحمن الأوسط في غزو جزيرة صقلية بالتعاون مع دولة الاغالبية في أفريقية ، ولكن عبد الرحمن الأوسط توقفت عن هذا الغزو بسبب المعاهدة التى عقدها مع الامبراطور البيزنطى ، وتتضمن عدم مناصرة أى عدوان ضد الدولتين •

لكن موقف الأمويين من الفرنجة ، كان يختلف عن موقفهم من البيزنطيين ، ذلك أن الأعداء التقليديين للأمويين ، كانوا الفرنجة ، المجاورين لأراضيهم ، والطامعين فيها ، ولما أيقن عبد الرحمن الأوسط أن قوته البحرية أقوى من قوات الأمبراطور لويس الثقي أو الحليم — أمبراطور الفرنجة — شن غارات بحرية متوالية من ٨٣٩ — ٨٥٠ م على شواطئ دولة الفرنجة في جنوب فرنسا ، حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وغيرها ، وشملت هذه الغارات جزر البليار ، التي كانت في حوزة الفرنجة ، ومازال المسلمون يهاجمونها ، حتى سيطروا عليها ، وخضعت لسيطرة الحكومة ، القرطبية سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن البحرية الأندلسية لم تكن بالقوة اللازمة التي تكفي لصد الغارات البحرية القوية ، خصوصا على السواحل الغربية ، ولهذا لم تستطع البحرية الإسلامية رد هجمات النورمان أو الفايكنج السريع ، وأسهمها النارية الخاطفة ، وأسرعها السوداء ، التي جعلت بعض المعاصرين ، يراها وكأنها ملأت البحر طيرا أسود .

وهؤلاء المهاجمون ، يسمون النورمان أو سكان الشمال أي سكان الدول الاسكندنافية ، وسماهم العرب بالمجوس أي عباد النار ، لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون به ، بل كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم فظن العرب أنهم يعبدون النار كالمجوس ، وسموا كذلك بالفايكنج ، وكان هذا الاسم يطلق على سكان الخلابان الاسكندنافية . ولكن المراجع الاسبانية تفسر كلمة فايكنج بمعنى المحاربين .

والشعوب الاسكندنافية — كما هو معروف — تنقسم الى سويديين ونوريجيين ودنماركيين ، والدنماركيون هم الذين هاجموا سواحل انجلترا وفرنسا والاندلس والمغرب وترعموا حركة القرصنة في البحار ، وألقوا الرعب والدعر في نفوس أهل السواحل ، وعانوا فسادا ونهباً في البلاد السواحلية .

ولم تكن تجمع غارات النورمان قيادة واحدة أو خطة مشتركة ، بل كانوا مجموعات متفرقة ، كل مجموعة تعمل لحسابها الخاص . وكانت هذه الجماعات تتجنب مهاجمة السواحل المحصنة التي بها حراسة ورقابة بحرية ، كالسواحل الشرقية ، وإنما تهاجم السواحل غير الحصينة ، كالسواحل الغربية ، ومن هنا اشتدت هجماتهم على قانس ، واحتلوا وأخترقوا نهر الوادي الكبير من مصبه ، وصعدوا فيه لسفنهم ، واستولوا على مدينة أشبيلية ونواحيها سنة ٢٣٠ هـ ، وأمعنوا في السكان قتلا وتنكيلا وعاثوا فيها فسادا ، وعسكروا في ظاهرها ، وأرسل عبد الرحمن الأوسط قوات لصددهم ، ودارت بين الفريقين معركة حامية ، هزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف ، والأسرى أكثر من أربعمئة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وارقد النورمان خاسرين ، بعد أن فقدوا قائدهم ، ونحصنوا بسفنهم ، ثم غادروا السواحل الأندلسية ، والمسلمون من ورائهم يتعقبونهم ، ويفتدون أسراهم ، وانتقم النورمان لانفسهم أثناء أنسحابهم بالاغارة على بعض البلدان بعد أن قضوا في البلاد أياما عديدة ألقوا فيها الرعب في نفوس أهلها .

أما الأسرى النورمان ، فقد اعتنق بعضهم الاسلام واختلطوا بالاهالي ، وتكونت منهم جالية نورمانية اشغلت بتربية المواشي وصناعة منتجات الألبان ، نبهت هذه الهجمات الأمير عبد الرحمن الأوسط الى تحصين الموانئ والسواحل ، واعداد العدة لمواجهة أى هجوم في المستقبل ، فأحاط مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية ، وبنى فيها دار صناعة لبناء السفن الحربية وزودها بالأسلحة الى جانب المتارس والرباطات ، وزود هذه التحصينات برجال مدربين على القتال ، وصد الغارات البحرية ، وزود السواحل بالمنارات وبث عيون المراقبة على أماكن عالية ، للكشف عن العدو اذا اقترب ، وقويت البحرية الأندلسية ، التي لم تلبث أن سيطرت على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وكان للأندلسيين أسطولان أسطول البحر المتوسط ، وأسطول المحيط الأطلسي ، وكان للأسطول مراكز كثيرة على الساحل الغربى والجنوبى والجنوبى الشرقى

بصفة خاصة ، وكان رجال البحر يعتبرون سلاحا خاصا من أسلحة الجيش ،
ولهم أجور عالية ونظام خاص في الإندلس .

فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة

المستعربين هم النصارى الذين بقوا على دينهم ، ودخلوا في ذمة
المسلمين وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا في الحياة الإسلامية ، وتولوا
الوظائف الحكومية ، وتمتعوا بتسامح المسلمين ، فبقوا على دينهم .
يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولكن بعض القساوسة المتعصبين
في قرطبة نفروا من الاسلام ، وحرصوا اخوانهم المستعربين على الثورة
ضد دوة الاسلام وأبرز هؤلاء القساوسة هو الراهب الفارو انقرطبي
وكان شابا غنيا ، فأعلن الثورة على المسلمين ، واستنكر من اخوانه
النصارى أقبالهم على الثقافة العربية ، ونسيانهم اللغة اللاتينية وكتابات
آباء الكنيسة وسفراء اللاتين .

أخذت هذه الفتنة طابعا خطيرا باسم الدين ، فكروا المسلمين
وسخروا من دينهم ونبيهم وتعاليمه ونسبوا الى الاسلام خرافات
وأباطيل .

ثار المتعصبون في المدن الاسبانية — خصوصا قرطبة — وقايلوا
الحكام ، وحاولوا الاستشهاد بطريقة التحدى والاستباك ، وعمد القسوس
والمتعصبون الى تحقيق غايتهم بوسيلة خطيرة ، وهى سب الاسلام ونبي
الاسلام علنا ، وهى جريمة تعرض مرتكبها للقتل ، وقاد زعماء الثورة من
القساوسة الثوار ، وساروا في شوارع قرطبة في سب نبي الاسلام
جهرا ، واذا ما قبض عليهم ، حاول انقضاه انقراع اعتذار منهم على
خطئهم ، ولكنهم كانوا يصرون على سب نبي الاسلام أمام القاضي ، لذلك
كان جزاؤهم الموت . وأدى اعدام بعض الثوار ، الى زيادة اشتعال
الفتنة ، وأضفوا على المقتولين صفة الشهداء ولم يتورع الكثير من الثوار
المتعصبين عن اعلان السب لنبي الاسلام ، للبا للشهادة فرادى أو قفا
مواكب .

اعتزم عبد الرحمن الأوسط على معالجة هذا الخطر الداهم بالحوار البناء والتفاهم ، فاستدعى مجلساً من الاساقفة ، عقد في قرطبة برئاسة مطران أشبيلية وبالمجلس ممثل للامير ، وأصدر المجلس بعد مناقشات مستفيضة قراره بعدم جدوى هذه الفتنة المظلمة التي ستؤدي الى الخراب والدمار وازهاق الانفس والاموال ، واستنكر المجلس مسلك أولئك المتطرفين وتحذير النصارى من السير في طريق الثورة ، ولكن قرار هذا المجلس لم يؤد الى انتهاء الثورة ، بل ظلت مشتعلة واعتقل الكثيرون ومنهم فتيات مسلمات ، وقعوا تحت تأثير الثوار ، وقتلوا ، وتمادوا في سب النبي ، ومن بين هؤلاء الفتيات فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا نسف بها الأسقف أولوخيو حياً .

كانت فلورا ابنة مسلم من زوجة نصرانية ، وتوفى أبوها وهي صغيرة ، فربتها أمها على مبادئ النصرانية ، ودخلت في النصرانية ، ولما علم أخوها المسلم شديد التعصب بتصرها ، حاول اعادتها الى الاسلام بكل الاساليب ولكنه لم يستطع ، فأخذها الى القاضي ، وأخبر القاضي بأن أخته تنصرت ، وسبت النبي ، واعترفت فلورا وعاقبها القاضي بالضرب ، ولكنها لم تكف عن عصيانها وأشعلت الثورة من جديد ، وتحدث المسلمين في كل مكان بسب النبي ، وأظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والتفاني في سبيل العقيدة ما جعلها من قديسات الكنيسة الاسبانية ، وحاول انقاضي نصحتها ، ولكنها أصرت على الضلال ، عندئذ حكم عليها بالاعدام .

واستمرت هذه الفتنة الخطيرة روحاً من الزمن ، ونذرت حكومة قرطبة في قمعها بالحزم والنسدة ، وهكذا انتهت هذه الفتنة التي أفلقت حكومة قرطبة ، ولم يجد فيها المتعصبون أملاً ، وقد استنكر عامة النصارى ورؤسائهم هذه الحركة ، وأيدوا الحكومة في موقفها من أولئك اللئاليين ، ولم تظهر هذه الفتنة في التاريخ الاندلسي الا في القليل النادر وبشكل طفيف جداً .

العلاقات الدولية في عهد عبد الرحمن الأوسط

صارت الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، إحدى دوا العالم الكبرى ، والدول الأربع الكبرى في ذلك العصر ، الدولة العباسية في المشرق ، ودولة الفرنجة ، والدولة البيزنطية ، والدولة الأموية الأندلس . وانقسم العالم الى معسكرين ، الدولة العباسية ودولة الفرنج في جانب ، والدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية في جانب ، ذلك لأن مصلحة الفرنجة تتحد مع مصلحة العباسيين في الضغط على الدولة الأموية في الأندلس ، واتحاد الدولة البيزنطية مع دولة الأمويين في الأندلس للضغط على دولة الفرنجة ، ولكن اتحاد في كلا الناحيتين يتعد تبادل السفارات والهدايا . ولكننا نلاحظ أن الحروب في ذلك الوقت ، نشبت بين العباسيين والبيزنطيين في عهد الرشيد والمأمون والمعتمد ، كما نجد تمارلمان في ذلك الوقت يعبر على أسناننا من الشدة وكذلك ابنه ، مما يدل على أن الدبلوماسية الدولية ، كانت قائمة ع التقاهم .

وكانت الإمبراطور به البيزنطية منذ مطلع القرن الثالث الهجري تقاس من غارات المسلمين على سواحلها وممتلكاتها ، والأغلبية حكا أفريقية ، انتزعوا منها جزيرة صقلية ، وسنوا غارات على سواحل إيطاليا وواصلوا زحفهم في الأراضي الإيطالية حتى طرقت أسوار مدينة روم والبرصيون — كما علمتم — استولوا على جزيرة كريت ، وسنوا غار على جزر بحر إيجه وساحل تراقيا ، هذا الى جانب حملات العباسيين على الأراضي البيزنطية .

وفي سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الإمبراطور البيزنطي الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني قرطيوس ، بهدايا فاخرة ورسالة ودية .

وفي سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الإمبراطور البيزنطي الى الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني قرطيوس ، بهد

فاخرة ، ورسالة ودية ، يسأله عقد محالفة معه ضد أعدائه العباسيين ، الذين قضوا على ملك أجداده الأمويين في المشرق ، وطلب مساعدته ضد الاغالبية في صقلية ، والربضيين في كريت .

ورحب عبد الرحمن بالسفير ، ورد على رسالته ، ورد على الهدايا بمثلها ، وارسل الى الامبراطور البيزنطى السفير يحيى الغزال ، فقابله بالترحيب ، وأكرم وفادته ، وسلمه رسالة الامير وتضمن السيف على العباسيين والربضيين ، ولكن الرسالة لا تضمن وعودا بالانضمام اليه في محاربة المسلمين . وتحدث في الرسالة عن الاغالبية في صقلية ، فوصفهم بأنهم مجاهدون في سبيل الله ، واعتذر عن الوقوف ضدهم ، وعاد الغزال الى قرطبه ، يتحدث عن مشاهداته في القسطنطينية وبلاط الامبراطور ، وأحوال رحلته في البحر .

والخلاصة ان الحلفان الدبلوماسى اتى قامت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينية ، توضح لنا أن كلا من العالمين المسيحى والاسلامى ، قد بدأ يخرج عن تقاليده القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التى أصبحت هى المتحكمة فى سياسته لا الاعتبارات الدينية ، كما كان الحال من قبل .

أعماله الادارية والعمرانية

انضمت الادارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأعاد ترتيب وتنظيم الجهاز الحكومى ، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة ، ومن أهمها خطة الوزارة ، اذ قسمها الى عدة وزارات مختلفة ، وكان الوزراء يترددون على الأمير يوميا لمناقشتهم فى أعمالهم ومهامهم وانجازاتهم ، وكان هناك وزيرا للمالية ووزيرا للمراسلات ووزيرا للادارة . الخ وأنحصرت الاعمال الوزارية فى بيوت معينة .

وأما أصحاب المناصب الادارية فهم :

صاحب السوق ، وصاحب الشرطة العليا وصاحب الشرطة السفلى وصاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة للمدينة ، وكانت الأتدلس حتى

عهد عبد الرحمن الأوسط تعتمد على الدراهم الفضية والدنانير الذهبية من الشرق ، ولم تكن تضرب الا عملة برنزية محدودة ، وكان التعامل بين الناس في كثير من الحالات يتم بطريقة المقايضة . فأنشأ عبد الرحمن الأوسط في قرطبة دار للسكة لضرب عملة أندلسية خاصة بالبلاد .

وعنى عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت العامة ، فزاد في مسجد قرطبة الجامع وما زال هذا الجامع قائما حتى يومنا هذا بعقوده الاسلامية وأوضه ومخارية ، وحول الى كنيسة في القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من ازالة قبابة ومعظم زخارفه الاسلامية لتحل محلها الزخارف النصرانية الا أن مخاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الاسلامية وآياتها انقرآنية ، ولا يزال يحمل اسمه الاسلامي القديم (المسجد الجامع) .

كما أنشأ عبد الرحمن مسجد اشبيلية الجامع ، وشيد سورها الكبير عقب غارات النورمان ، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة ، وقد وصف القديس أولوخيو قرطبة بقوله : ان عبد الرحمن أسبغ على عاصمته مملكته ثوبا خارقا من العظمة ، وأعقد عليها الثروات ، ورفع من شأنها ، وحقق لها الرفاهية والمجد والسؤود ، وسبق انقول أن عبد الرحمن الاوسط اجتذب العلماء والإدباء الى قرطبة ، وكان أدبيا عالما اشترى كثيرا من الكتب والمصنفات من الشرق .

وأسكن عبد الرحمن الاوسط من الصقالبة والموالي واستبدلهم بجندهم « المعجم » وتدرجوا في سلك الوظائف حتى بنح نصر منصبا ساميا في بلاط قرطبة .

والخلاصة أن المدن عمرت في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وزاد الخير في الريف ، وأزدهرت الحياة في المدن الأندلسية وظلت سمة هذه المدن طوال العصور الاسلامية .

مصر - حويلات الطوائف الأولى

(٢٢٨ - ٢٣٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م)

أشتد الاضطراب في الأندلس ، عقب وفاة عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأينا كيف نقل عبد الرحمن الأوسط بلاده من البداوة الى الحضارة ، ووحد البلاد ، وقضى على الفتن اداخلية ، الا أن خلفاؤه قتلوا فيما نجح فيه عبد الرحمن وحكم البلاد في فترة المفوضى والاضطراب ثلاثة أمراء وهم على التوالي :

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م)

المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٢٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م)

عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)

أى أن فترة الاضطراب هذه بدأت منذ نهاية عبد الرحمن الأوسط ، وأنتهت بتولية عبد الرحمن الناصر ، وقد ضعفت خلال هذه الفترة حكومة قرطبة ، وعجزت عن القيام بأعباء الحكم في الأندلس الموحدة .

طبيعة بلاد الأندلس الجغرافية تجعل الوحدة بين سكانها أمرا صعبا . كما أن هذه البلاد في ظل الحكم الاسلامى ، خمت شعوبا متعددة ، فسكان الأندلس الاصليين ، انقسموا الى نصارى تعلموا اللغة العربية ، وسموا مستعربين ونصارى أسلموا ، واحتكوا بالعرب والبربر ، ونشأ عن التزاوج بين هذه العناصر جيل جديد ، يسمى المولدين ، أما الوافدون على الأندلس ، فانقسموا الى عرب ، والعرب أنقسموا الى قيسية ويمينية ، وبين هذه العناصر عدااء شديد وحروب مستمرة ، والبربر وهم أكثر من العرب بحكم قرب وطنهم الأصلى (المغرب) من الأندلس وبين العرب خلاف مستمر ، ذلك أن العرب أستأثروا بأجود الاراضى ، واستحوذوا على المناصب الرفيعة ، أما البربر فقد ترك لهم العرب الأرض القاحلة المشحيدة البرودة .

هذه العناصر التي يتركب منها المجتمع الاندلسي تجعل من الصعب على أمراء قرطبة فرض الوحدة فرضاً ، لذلك كلما قويت الحكومة المركزية ، خفضت هذه العناصر ، وكلما ضعفت رفعت هذه العناصر شعاع الاستقلال ، وهذا ما حدث بعد عزد عبد الرحمن الأوسط إذا انقسمت البلاد الى دويلات مستقلة .

ظهرت في الاندلس خلال تلك الفترة دويلات يمنية ، ودويلات مصرية ، ودويلات من المولدين ، وأخرى من المستعربين ، أى أن وحدة البلاد تمزقت الأمر الذى أدى الى خطورة الوضع السياسى فى الأندلس ، وسيؤدى ذلك فى النهاية الى ازدياد نفوذ النصارى فى الشمال ، وانهايار الحكم الاسلامى ودولة المسلمين فى الاندلس .

ومن أبرز هذه الدول ، دولة قامت فى ألسبيليه ، أقامها بنو الحجاج اليمانية من قبيلة لخم ، وحرص أمراؤها على اظهار هيبتهم فى البلاط والتنسبه ببنى أمية فى الترف والفخفحه ، ورمعوا من سائر دولتهم ، وسعوا الى تقويتها ، وبسط نفوذها على البلاد المجاورة ، وقويت هذه الدول بصفة خاصة فى عهد ابراهيم بن الحجاج الذى كان له بلاط وخدم وحشم وجيش منظم ، وأضفى على بلاطه هبة ورونقا ، بعد أن أجتذب اليه رجال الفن والعلم والشعراء والأدباء ومن أبرز رجال العلم الأديب المؤرخ ابن عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد ، واستقدم الى بلاطه قمر البغدادية وهى أدبية مغنية ، أستقدمها من العراق ، ونشرت فننها فى الأندلس ، ومن جميل ألقانها .

(ما فى المغرب من كريم يرتجى الا حليف الجود ابراهيم) (انى حطت لدية منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم) ، ومن دويلات البربر المستقلة فى ذلك العصر ، دويلة قامت فى الولايات الغربية وجنوب البرتغال ، وكانت أسرة ذى الفنون البربرية من أقوى الدويلات التى استقلت عن قرطبة ، وقويت فى عهد زعيمها موسى ، وعرف عشه هو وأولاده الشدة والبطش والظلم ، فأغارت هذه الأسرة على بلاد الأندلس ،

ونشروا الخراب والدمار في كل مكان وأعملت السيف في رقاب الإهليين ،
وألقت الذعر والرعب في نفوس الأندلسيين •

على ان أخطر هذه الدويلات ، دوله بنى حفصون التي بلغت سنا
كبيرا في عهد زعيمها عمر بن حفصون — وهو من المولدين — وكان من
أسرة فقيرة وكان يجالس في شبابه ، المولدين الناقمين على الحكم الأموي .
والذين يقاسون في ظل الحكم الأموي انشدائد ، والمتاعب الاقتصادية ،
وعدم مساواتهم بالعرب الحاكمين ، وتحصن تحمسا تحديدا لقضية
المولدين ، وجمع حوله شباب المولدين ، ثم استولى على حصن روماني
قديم اسم بيشتر في أعلى الجبال الاسبانية الجنوبية ومن هناك أخذ
ييسط نفوذه على البلاد المجاورة حتى أقترب من قرطبة ، ولم يستطع
الأمراء الأمويون الثلاثة محمد بن عبد الرحمن والمنذر بن محمد ،
وعبد الله بن محمد ، القضاء عليه ، لكثرة أنصاره ، وقوة بأسه ، وأستثار
أنصاره ، ووعدهم بأنه يعيد اليهم أموالهم التي أغتصبها العرب ، وظل
ابن حفصون في قوته حتى ارتد عن الاسلام ، ليغري المستعمرين
بالانضمام اليه ، ولكن خطته هذه ، عجلت بنهايته ، وضعف أمره ، فانفض
من حوله المسلمون ، ولم ينضم اليه النصاري وفقدوا الثقة به ، فلا حصل
مسلم ولا حصل نصرانيا •

وظل ابن حفصون يحكم في ولايته التي انتزعها من قرطبة حتى وفاته
سنة ٣٠٥ هـ ، وحكم أبناؤه الولاية من بعده حتى قضى عليها الناصر ،
واستولى على القلعة ببشتر •

هكذا كانت الأندلس خلال تلك الفترة التي نحن بصدد الحديث
عنها ، ممزقة الانسلاء ، ولم يعد لحكومة الأندلس المركزية من النفوذ
والسلطان الا قرطبة العاصمة ، وصارت الأندلس دويلات مستقلة عن
بعضها ، كل ولاية تحارب الأخرى ، وتبسط سلطانها على حساب جاراتها ،
وظل الأمر كذلك حتى ولي عبد الرحمن الناصر الأندلس فأعاد للبلاد
حريتها وندولة الأندلس قوتها وهيبتها •

١٠٠ - إلا أن ركبة الحضارة لم يتأخر على الرغم من التدهور السياسى
مظهر ابن عبدربه الذى تحدثنا عنه والفيلسوف ابن سناء ، صاحب
كتاب طبقات الأمم ، يتكلم فيه المؤلف عن الأمم من حيث عنايتها بالثقافة
والعلوم والفنون والآداب ويتكلم عن العلوم فى الاندلس بشئ من
التفصيل ، ويوضح كيف ومتى ظهرت فى الاندلس ، ويقول أن أول ظهورها
كان فى عهد الأمير محمد ، الذى يميل الى العلوم والفنون والآداب .

وإذا كانت الحروب والعداوات بين عناصر السكان فى الاندلس ،
قد أدت الى تدهور اقتصادى وانحيار اجتماعى الا أنها على المدى البعيد ،
مزجت بين عناصر السكان فى بوتقة واحدة ، وظهرت الشخصية الاندلسية ،
تمثل نتيجة المزج بين هذه العناصر ، ولم تعد الارستقراطية العربية
متسلطة على العناصر السكانية فى الاندلس ، وظهرت فى الاندلس لغة
مزدوجة العربية والاسبانية القديمة نتيجة لهذا الاختلاط الكبير بين العرب
والاسبان . . وكان كبار رجال الدولة العرب يتكلمون مع الاسبان باللغة
الاسبانية الى جانب اللغة العربية . ومعنى ذلك أن أهل الاندلس عرب
واسبان ، كانوا يتكلمون اللغتين العربية والاسبانية .

ونشأ عن انتشار اللغتين بين الاندلسيين ، ظهور فن الموشحات وهو
فن شعبي أندلسى .

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة فى الشعر العربى ، وحركة من حركات
التجديد فيه ، وإذا كان المشرق قد أعطى المغرب فن القصيدة الشعرية ،
فإن المغرب أى الاندلس أعطى المشرق فن الموشحة التى لا تلتزم بنظام
القوافى الموحدة ، كالقصيدة الشعرية وإنما تسير على قوافى متعددة ،
ووجدتها المقطوعة الشعرية ، وليس البيت الشعرى ، ويدخلها كلمات
اسبانية ، أو عامية أندلسية دارجة .

ولم يلبث هذا الفن الجديد أن أنتشر فى المغرب والمشرق ،
وأستخدمه الصوفية فى مدائحهم وأذكارهم والموشحة تطور منها الزجل ،
وأثرت فى الشعر الشعبى الأوروبى المعروف باسم الشعر .

والخلاصة أنه ظهرت طبقه جديدة في المجتمع الأندلسي على طبقه المستعربين التي أشرنا إليها من قبل تكلمت اللغتين العربية والاسبانية ، وتأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة العربية والحياة العربية ، بل اتخذوا أسماء عربية •

وقد قام هؤلاء المستعربين بدور هام في نقل الحضارة الاسلاميه الى الممالك المسيحية في شمال الاندلس ، وأدت الى نشر الثقافة والتقاليد الاسلامية في تلك الجهات ويظهر ذلك جليا في اللغة الاسبانية ، التي بها أعداد تقدر بالالاف من الالفاظ العربية •

المملكة النصرانية في الشمال

ترك المسلمون - كما قدمنا - جليقية اهمالا لأمر سكانها المستضعفين الذين لجأوا الى هذه البقعة الجبلية الوعرة المسالك تقهقرا أمام غزوات المسلمين ، ولكن هذا البند نما وترعرع دون أن يشعر المسلمون ، معتصمة ومتحصنة بالجبال الوعرة والمسالك المعلقة ، وقامت جنبا الى جنب مع مملكة المسلمين في أسبانيا .

لجأت الجماعات المهزومة من انقوط والاسبان الى انجبال الشمالية ، وامتدت في مفاوز جبال استورية ، وقامت امارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتيريا وجليقية وكانت الامارة الاولى التي أسسها البعض بتروس لوفوعها في الطريق الغربي من جبال البرانس في سهول ناغار ويسكونيه عرضة لهجمات المسلمين في حملاتهم على جنوب فرنسا ولكن امارة جليقية كانت نفع في أعماق جبال أشتورس الوعرة ، بعيدا ، غزوات الفاتحين ، وفي هذه الهضاب اجتمع بلايو وأنصاره ، ولجأ الى معاور منيعة ، ويسمىها العرب بالصحرة .

وقد تعددت حملات المسلمين على جليقية ، لما ظهر المسلمين موطنهم وتحالف أهلها مع البشكنس في عصر الولاة ، ولكن هذه الحملات كانت نوقع بالنصارى الذعر والرعب دون أن تتمكن من القضاء على جليقية نهائيا لوعورة هذا البلد ، وصعوبة مسالكه .

ولكن انسحاب المسلمين قوي من شان بلايو ، وعظم بأسه وأنضم اليه كثير من النصارى في كانتيريا وسهول جليقية ، ورأوا فيه خير دن وجودهم في مواجهة الخطر الاسلامي ، والتحدى له ، وانتهر الفرصة ندسح رتعه دولته ، فأغار على بعض البلاد الاسلامية المجاورة ، منفيزا فرصة انشغال المسلمين بحروبهم الأهلية ، وقمع الفتن والدسائس . ومع ذلك فقد نصدي بلايو للحملات التي أرسلها ولاء المسلمين الى بلاده ،

بل هزم هذه الحملات هزائم منكسرة ، عندئذ ازدادت قسوته ، وعظمت هيبته ، وتحول من الهجوم الى الدفاع ، فاخترق بسكونية • وشن عدة غارات على المسلمين •

ولما انشغل المسلمون بغزواتهم في جنوب فرنسا ، وكفوا عن مهاجمة جليقية ، تعددت غارات أهل جليقية على البلاد الاسلامية في شمال نهر دويده ، وفي منطقته استرقة ولم يستطع عقبة بن الحجاج في حملته على جليقية الانتصار عليهم ، لاعتصامهم في الجبال والمعقل •

ولما كثرت الفتن الداخلية في الاندلس في عصر الولاة ازدادت فوه أهل جليقية ، وكثرت غاراتهم على الاراضي الاسلامية ، وكانت مقاومة قرطبة من الضعف بحبت لم تستطع قهر هؤلاء المغيرين • لذلك قويت هذه الامارة النصرانية ، ورأى فيها نصارى اسبانيا الحصن الحصين والملاذ المنيع الذي يعيد اليهم بلادهم التي استولى عليها المسلمون ، فنجأ النصارى من أنحاء الاندلس الى بلابيو يقدمون له العون والتأييد^(١) •

لما توفي بلابيو سنة ٧٣٧ م على الأرجح ، خلفه ابنه فافبلا ، ولكنه لم يلبث أن توفي سنة ٧٣٩ م ، فخلفه ابنه الفونسو — دوق كانتبريا ، واتحدت الامارتان في مملكة واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقا الى ساطي ، المحيط غربا ، ومن خليج بسكونية شمالا الى نهر دويره جنوبا^(٢) •

وبعتبر الفونسو الاول المؤسس الحقيقي لمملكة قشتالة الذين خاضوا معارك متعددة عبر القرون انتهت باستردادهم اسبانيا من المسلمين بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩ م

وأنت الفرص لالفونسو الاول لتوسيع رقعة دولته ، فقد اسندت

-- (١) اتنان : دولة الاسلام في الاندلس ٢١٦ •

• (٢) نفس المصدر ٢١٢ •

الفتن الداخلية في الأندلس ، وكان من نتيجتها خراب الاراضى المجاورة لجلقية في شمال غرب الأندلس ، وفي سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م حدث في البلاد قحط شديد ، حتى هجر الكثير من سكان شمال غرب الأندلس من المسلمين بلادهم لذلك شن الفونسو غارات على هذه البلاد ، واستولى عليها في غلة المسلمين ، وفي صراعاتهم المريعة مع بعضهم البعض ، واستولى الفونسو على استرقة وعلى كثير من البلاد والضياع المجاورة وضمها الى حوزته ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م . وبذلك اتسعت رقعة المملكة النصرانية ، وأصبح في أماكنها التصدى للمسلمين بل وضم المزيد من أراضيهم الى مملكتهم الناشئة .

وعهد الفونسو بامارة كانتيريا - وهي القسم الشرقى من مملكته - الى أخيه فرويلا ، فشدد هجماته على اراضى المسلمين منتهزا الحرب الأهلية في الأندلس في عهد واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وغزا الفونسو مدينة لك الحصينة ، واستولى عليها ، وهي اقصى معاقل المسلمين في الشمال الغربى ، ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م ، وعبر الفونسو نهر دويره أكثر من مرة ، وعاث في اراضى المسلمين فسادا وتخريبا ، وظل يحارب مع أخيه فرويلا المسلمين ويوسع ملكه على حسابهم حتى توغى فرويلا سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ولم يلبث أن لحق به أخوه الفونسو الاول سنة ٧٦٥ م ، فخلفه ابنه فرويلا الاول .

عاصر فرويلا الاول ، عبد الرحمن الداخل ، وكان هذا الامير الاموى مشغولا بالثورات التى قامت ضده في الأندلس ، فانتهاز فرويلا الفرصة فغزا لك وبرتقال وشلمنقه وسفوبيه وآبله وسحوره وقشتاله ، واستولى عليها وانتزعها من المسلمين ، واتساع الخراب والدمار في البلاد المجاورة ، وضمها الى ملكه . وبذلك قويت المملكة النصرانية ، وأصبحت تشكل خطرا جسيما على ملك المسلمين في الأندلس .

تتبعه عبد الرحمن الداخل الى الخطير الجسيم لهذه المملكة النصرانية ، فشن عليها عدة غارات ، منها حملة بقيادة مولاة بدر أغاريت

عنى آلبه والقلاع وتقع بين بلاد البشكنس وجبال كانتيريا ، وأرغمها على أداء الجزية^(١) ولكن هزم النصارى المسلمين فى غزوات شنوها عليهم وقتلوا منهم الكثير .

وكان فرويلا شديد البطش فثار ضده رعاياه ، ولكنه كان يخمد النورات بشدة وعنف ، وحدث انقسام فى المملكة النصرانية بعد وفاة فرويلا ، انتهت بعودة الوحدة اليها وحكم سيلو جليقية المتصده ثلاث سنين وتوفى سنة ٧٨٤ م

انقسمت المملكة بعد موت شيلون وفى بداية عهد خليفته مورقاط (٧٨٣ — ٧٨٩ م) الذى حكم جليقية ، بينما الفونسو المطالب بالعرس تمركز فى الجزء الشرقى من الدولة فى نبره ، وهناك ، واستعان بالفرنجة ، فاستعان مورقاط ضده بالمسلمين الذى يشعر بالقرب منهم ، لأن أمه جارية عربية .

استطاع الفونسو ولد فرويلا أن يسترد عرش أبيه بعد وفاة مورقاط ، ولكن حيث انقسام فى البيت الحاكم انتهى بتولية برمند (٧٨٩ — ٧٩١ م) ومن بعده الفونسو الثانى (٧٩١ — ٨٤٢ م) . وكانت الدولتان المسلمة والنصرانية فى عهد هشام بن عبد الرحمن مشغولتين عن الصراع بينهما بالفتن والثورات داخلها .

انقسمت المملكة النصرانية بين برمند الذى استقل بالجزء الغربى من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونسو بالجزء الشرقى ، لكهما تصالحا واتحدا فى وجه العدو المشترك ، وهو هشام بن عبد الرحمن الذى أعلن الجهاد ضد النصارى . ولم يلبث أن توفى برمند ، وتولى الفونسو حكم مملكة النصارى كلها : وبذلك عادت الى المملكة النصرانية وحدتها .

كان الفونسو يلقب بالعفيف ، وكان ملكا قويا تولى الملك سنة ٧٩١م ، فأعاد الهدوء والسكينة الى البلاد ، وأصلح أحوالها وادارتها ، وحصن

(١) عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ط ١ ص ٢١١ — ٢١٢ .

ثغورها وقواعدها ، واتخذ أوبيدو Oviedo عاصمة له وكانت مملكة جليقية تمتد من ولاية بسكوية شرقا الى المحيط غربا ، ومن خليج بسكويته شمالا حتى نهر دويره جنوبا ، واستقلت عنها نافار وبلاد البشكتس ، وقامت بها مملكة نصرانية •

طال حكم الفونسو الثانى حتى تجاوز النصف قرن ، عاصر خلالها هشام بن عبد الرحمن ، والحكم بن هشام ، وحفيده عبد الرحمن ، وفي خلال هذه الفترة ، نتسبت بين الفريقين حروب متعددة ، ومن أهم هذه الاشتباكات التى هزم فيها النصرارى شر هزيمة ، موقعة الصخرة فى أقصى بلدان ومواضع جليقية سنة ٧٩٥ م / ١٧٩ م • وفى عهد الحكم بن هشام تجاوز الفونسو نهر دويره سنة ٨١٠ م / ١٩٣ هـ ، وهاجم الاراضى الاسلامية ، وتوغل فيها حتى قلمريه وأشبونه ، وعاث فى بلاد المسلمين فسادا فرد عليه الحكم بغزوة فى جليقيه ، ضرب فيها المواضع التى اجتازها •

ولما غزا الفونسو الثغر الأعلى فى عهد عبد الرحمن الأوسط أرسل هذا الامير حملة بقيادة الحاجب عبد الكريم بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م / ٢٠٨ م ، فغزت ألبة والقلاع ، وأغارت على مدينة سالم ، ونكل المسلمون بالنصارى ، وخربوا بعض أراضى جليقية ، ودمروا مدينة ليون ، وأجبروا النصارى على صلح مهين •

ولما توفى الفونسو الثانى سنة ٨٤٢ م خلفه ابنه راميرو ، وقد شغل راميرو منذ توليه الحكم بقمع الثورات التى قامت ضده خصوصا ثورات الاشراف ، كذلك شغل عبد الرحمن الأوسط بصد انورمان ، ودرء خطرهم عن المملكة الاسلامية ، ولما انتهى عبد الرحمن الاوسط باصلاح التخریب الذى ألحقه النورمان ببلادهم ، انصرف الى غزو النصارى والجهاد فى سبيل الله ، فسير ولده محمد فى سنة ٨٤٨ م الى جليقية ، فاخترق بساطها ، وحاصر مدينة ليون ، وأحدث الخراب والدمار فى هذه البلاد ، وتوفى راميرو سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام ثمانية أعوام •

تربع أورد رينو على عرش أبيه ، وحرص في بداية عهده على تحصين بلاده من أخطار وهجمات المسلمين وأصلح القلاع والحصون ، وساعد بعض الثوار ضد حكومة قرطبة في بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، ولكن المسلمين أحبطوا محاولته ، وقضوا على الثورة •

ولما اشتدت الفتن في الدولة الأموية في الأندلس ، انتهر أوردرينو انفرصة ، وغزا مدينة قورية ، ثم غزا شلمنقه وهزم المسلمين ، وعاث فسادا وتخريبا في ديارهم ، فسير الأمير الأموي محمد جيشا الى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فسيطر على ألبه والقلاع ، وألحق عدة هزائم بالنصارى ، وهزم المسلمون النصارى عدة هزائم واعتزم الأمير محمد القضاء نهائيا على مملكة جليقية فسير السفن الى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ولكن الاسطول لم يستطع تحقيق هدفه بسبب الأحوال الجوية •

وفي سنة ٨٦٦ م توفي الفونسو الثانى ، وخلفه ولده الفونسو الثالث • وقد نشبت ضده عدة ثورات في بداية حكمه ، ولكنه أخمدها ، وظل يحكم البلاد قرابة أربعة وأربعين عاما ، اتحدت البلاد في عهده ، وقويت المملكة ، واستطاع خلال حكمه الطويل ان يوصل حدود مملكته الى جبال البرانس شرقا ، وعبر نهر دويره كثيرا الى أراضي المسلمين ، ووصل في غزواته الى ضفاف انتاجه ، وغزا عددا من المدن الاسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقه وبذلك أصبح في مركز قوى يستطيع به مواجهة المسلمين ومنعهم عن بلاده ، وهزم المسلمين في سموره بعد أن حاولوا مهاجمة ليون واسترقه ، وبلغت غزواته في بلاد المسلمين ماردة ووادي أته •

كان امراء البيت الحاكم يعارضون حكم الفونسو ، ودبروا عدة

مؤامرات للتخلص منه ، وقبض على المتآمرين ، ومن بينهم ابنه غرسية ، ودبرت مؤامرة أخرى ضده قادها زوجها خمينا ، واشترك فيها أولاده ، وسيطروا على بعض بلدان المملكة • وخشى الفونسو من مغبة هذا الانقسام ، فتنازل عن العرش لولده الأكبر مرسية ، ولم يلبث أن توفى •

سميت مملكة جليقية بعد وفاة الفونسو مملكة ليون ، وانتقلت عاصمة الدولة من أوبيدو الى ليون المجاورة لأن نافار كانت تخشى من مطامع ليون في أراضيها ، وقد حارب غرسية انيجيز أردونيو ملك ليون الى جانب صهره موسى بن موسى في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م

وخلف غرسية ولده فرتون ، ثم خلفه ابنه سانتشو غرسية ، وهو أول من تلقب في نافار بلقب ملك وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية • وقد حكم سانتشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض ضد الامير عبد الله عدة حروب ووقائع ، ومع الامارات المجاورة كذلك •

ظهرت نبره على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، وكانت قبل ذلك تسير في فلك ملوك جليقية أو مملكة الفرنجة ، واشتركت مع جليقية في الهجوم على منطقة الثغر الأعلى عام ٢٠٠ هـ - ٨٤٥ م ، فخرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في عدة معارك •

كانت مملكة نبره تقوم في غربى البرانس في بلاد البشكنس الجبلية وتسمى نافار ، وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح الاسلامى مسرحا للعمليات الحربية بين المسلمين والفرنجة وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها الى المملكة النصرانية ، ولما انصرف عنها الجلائقة بصراعاتهم الداخلية ، وبعدت غزوات المسلمين ، هاجمها المسلمون مراراً •

وقد استقل بها أحد الزعماء والقادة سنة ٧٩٩ م ويدعى أزوار ،

وأعلن نفسه أميرا على البلاد ، ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو ، ولكن أحد الزعماء البشكنس عزله ، وولى مكانه ، ويسمى انيجيز أريستا ، وفي عهده اتخذت نافار شكل المملكة المستقلة ، وتعاقب الملوك على الحكم في هذه المملكة •

وقد تحسنت العلاقات بين مملكة نافار النصرانية والمملكة الإسلامية المجاورة وتسمى امارة بنى قسى ، وأرتبطت الدولتان الحليفتان بعلاقة المصاهرة ، وقد رأى غرسيه انيجيز أن يتألف مع عمر ابن حفصون الثائر ضد الحكم الأموي في الأندلس •

المغرب الاسلامى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة

١ — المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالبة :

سقطت الدولة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله فى طاعة أبى العباس . فلما توفى أبى العباس فى سنة ١٣٦ وبويع أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر ابن حبيب على ولاية أفريقية وأرسل اليه خلعة سوداء . وهو أول سواد دخل أفريقية . ثم كتب الى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه الى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ولكنه أرسل اليه رسالة أوضح له فيها سوء الاحوال الاقتصادية فى أفريقية ويطلب منه ألا يطالبه بمال . فغضب المنصور وكتب اليه يتوعده وعندئذ أعلن ابن حبيب خروجه عن طاعته وأحرق خلع المنصور . ثم تعرض عبد الرحمن بن حبيب لمؤامرة دبرها أخوه الياس ، اذ دخل عليه وهو مريض وطعنه بسكين فى صدره وقتله فى سنة ١٣٧ هـ ، وتولى الامارة مكانه بينما فر حبيب بن عبد الرحمن الى عمه واتفق مع عمه عمران على محاربة عمه الياس قاتل عبد الرحمن . فأعد جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس بادر ابن اخيه بالهجوم ، واشتبك الفريقان فى قتال يسير انتهى فى سنة ١٣٨ بالصلح على أن تكون أفريقية كلها لالياس وتكون قفصة وقسطنطينية ونفطة لحبيب وتونس لعمران . ولكن الياس كان يظمر السوء بأخيه عمران ، اذ كان يخشى منه على امارة افريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب . فلما رحل حبيب الى مقر ولايته ، غدر الياس بعمران فقتله وقتل أنصاره من أشراة العرب وأسترجع تونس وعاد الى حاضرتة القيوان وقد اطمأنت نفسه ظنا منه أنه أصبح سيد الموقف ، وبعث بطاعته لأبى جعفر المنصور . لتطهيرها من دنس ورفجومة وتحرير أهل القيوان من طغيانها . فتصدى له الصفريه بقيادة عبد الملك الورفجوى فى صفر سنة ١٤١ هـ ودارت

الدائرة على عبد الملك وأنهزمت جموعه وسقط صريحا ، وتمكن عبد الاعلى من دخول القيروان . ثم ترك عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسي أحد كبار علماء الاباضية وعاد الى طرابلس استعدادا لملاقاة القوات العباسية التي سيرها أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

أما المغرب الأقصى فقد اضطرب أمره بعد انهزام الصفرية في موقعتي القرن والاصنام على يدي حنظلة بن صفوان ، وتفرقوا في نواحي المغرب الأقصى وأنضم معظمهم الى عسكر برغراطة بزعامة طريف بن ثشمعون وكان هرطقيا ادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية . كذلك أنضم فريق آخر من الصفرية الى أبي القاسم سمغون بن واسول المكتاسي في الموضع الذي أسست فيه سجلماسة ، وأبو القاسم هذا هو جد بني مدرار أصحاب سجلماسة .

وكان أبو جعفر قد بلغه ما ارتكبته قبيلة ورفجومة في القيروان من المحرمات والفظائع فولى على مصر وأفريقية محمد بن الاشعث الخزاعي ، وسير من مصر جيشا عباسيا يقوده أبو الأحوص العجلي لاسترجاع أفريقية . فاشتبك العباسيون مع جيش عبد الاعلى في سرت في سنة ١٤٢ هـ فانهزم العباسيون . فعزل المنصور محمد ابن الاشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش في المغرب . فخرج ابن الاشعث على رأس جيش كبير عدته خمسون ألف مقاتل ، وكان في جملة عسكره عدد من كبار القادة العباسيين منهم الاغلب بن سالم والمحارب بن هلال وفاجأ ابن الاشعث قوات عبد الاعلى على غير استعداد للحرب فوضع العباسيون السيوف في الخوارج وأسفرت الموقعة عن مصرع عبد الاعلى ومعظم أتباعه في سنة ١٤٤ هـ وكان عبد الرحمن بن رستم قد تاهب لنجدة أبي الخطاب فلما وصل الى قابس بلغه ما انتهى اليه مصير أبي الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق باباضية المغرب الاوسط ، فالتقوا حوله وبإيعوه بالامامة ، فأسس مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ وأستقر بها في سنة ١٤٥ هـ مؤسس دولة بني رستم أول الدولة الرستمية .

أما ابن الأشعث فقد دخل القيروان في أول جمادى الأولى سنة ١٤٥ ، وأذعن له أهل أفريقية بالطاعة وأكتفى ببسط نفوذه على أفريقية إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها لتكون سدا منيعا أمام حركات الخوارج وتتابع على ولاية أفريقية من قبل ولكن ذلك لم يمنع حبيبا من اعداد العدة للاستيلاء على القيروان ، والتف حوله موالى أبيه وأنصاره ثم زحف الى القيروان وأستولى على الارس فخرج اليه عمه الياس لمقاتلته وأشتبك معه اشتباكا خفيفا ، فلما جن الليل وتوقف القتال أوقد حبيب النار في معسكره وأوهم عمه في المعسكر المقابل أنه مقيم في معسكره ثم أسرى وأسرع بدخول القيروان فأستولى عليها ، وأخرج من السجون من كان محبوسا ، فكثرت جموعه ، فلما عاد الياس اليه تصدى له حبيب ثم نازله فقتله . فهرب أخوه الياس بعد قتله الى قبيلة ورفجومة وكانوا من غلاة الخوارج الصفرية ونزلوا في كنف أميرها عاصم بن جميل . فكتب اليه حبيب يأمره برد أعمامه ولكن عاصم امتنع عن اجابته ، فزحف اليه حبيب وأصطدم معه في موقعة انتهت بهزيمته ، فقوى أمر ورفجومة وتقدموا نحو القيروان وسحقوا من تصدى لهم من أهلها ثم دخلوها في ذي الحجة ١٣٨ هـ فأستحلوا المحارم وأرتكبوا الكبائر . ثم ترك عاصم نائبا عنه في القيروان يسمى عبد الملك بن أبى الجعد وسار لمقاتلة حبيب في قابس فأنهزم حبيب وأحتفى ببربر جبل أوراس ، فطارده عاصم وأشتبك معه من جديد في قتال عنيف أسفر عن هزيمة عاصم ومقتله . وعندئذ تقدم حبيب الى القيروان وحاول اقتحامها ، فهزمه عبد الملك وقتله في المحرم سنة ١٤٠ هـ . وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الخوارج على أفريقية والمغرب وفقد العرب كل سلطان لهم في هذه البلاد وأنقرضت بذلك دولة بنى حبيب الفهرى .

وفي هذه الاثناء انتهز الخوارج الاباضية بنواحي طرابلس هذه الفرصة وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اماما عليهم

في طرابلس سنة ١٤٠ هـ من خليج سرت الى قابس ، وانضم اليه معظم سكان المغرب الأوسط المتشبعين بتعاليم الخوارج الاباضية وبايعوه أيضا بالامامة . أما افريقية فقد ظلت خاضعة لقبيلة ورفجومة الصفرية المتطرفة وكان أميرهم المقتول عاصم قد ادعى النبوة والكهانة ولذلك قاست ورفجومة من الفساد والظلم والاستهتار بالدين بحيث استحلوا المحرمات واستهانوا بالمساجد وارتكبوا كثيرا من الفظائع في القيروان . وذكروا ان رجلا اباضيا شاهد في القيروان قوما من ورفجومة أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون فأدخلوها الجامع ، فغضب الاباضى وقصد أبا الخطاب في طرابلس فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « بينك اللهم بينك » فاجتمع اليه حشد كبير من الاباضية في طرابلس الغرب وزحف بجموعة نحو القيروان وانتزعا من العباسيين بعد أن خلع ابن الاتسعت عن ولايتها في سنة ١٤٨ ووليها عدد من الولاة هم : الأغلب بن سالم التميمي (١٤٨—١٥٠) الذي استشهد في تونس ، وعمر بن حفص الذي قتله الصفرية في ١٥٤ ، ويزيد بن حاتم الذي توفي سنة ١٧٠ وأخوه روح بن حاتم حتى وفاته سنة ١٧٤ ثم الفضل بن روح الذي قتل في سنة ١٧٨ ، ثم هرثمة ابن أعين (١٧٨—١٨١) ثم محمد بن مقاتل العكي (١٨١—١٨٤) الى أن تولى ابراهيم ابن الأغلب على امارة افريقية واستقل بامارته استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية في سنة ١٨٤ هـ .

وبولايه ابراهيم بن الاغلب يبدأ عهد جديد في تاريخ افريقية والمغرب .

٢ — دولة الاغالبية في المغرب الادنى (١٨٤—٢٩٦) :

شهد المغرب الاسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه : ففي المغرب الادنى (أفريقية) قامت دولة الاغالبية ومركزها القيروان ، وفي المغرب الاوسط (الجزائر) قامت

دولة الرستمين ومركزها تاهرت ، وفي المغرب الاقصى قامت أربع دويلات صغيرة هي دولة الأدارسة الحسنيين (نسبة الى أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) في فاس ودولة بني المذرار في سجلماسة ودولة بني صالح في نكور ودولة بني صالح بن طريف البرغراطي في شالة وتامسنا • ودولة الاغالبة هي أهم هذه الدويلات جميعا ، والاغالبة أسرة مستتيرة حكمت أفريقية طوال القرن الثالث الهجري ، أسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي الذي ثبته الرشيد في ولاية افريقية في سنة ١٨٤ هـ ، وهي أسرة عربية راقية عملت على نشر بذور الحضارة الاسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها أي في أفريقية وصقلية وأقام امراؤها المدن والقصور وشيدوا المساجد والحصون وشجعوا الآداب والعلوم والفنون •

وأول أمراء هذه الدولة ابراهيم بن الاغلب (١٨٤—١٩٦ هـ) وكان من أفضل ولاة أفريقية ، فقد كان يجمع الى علمه وثقافته في الدين وأدبه حسن الرأي والنجدة والبأس والحزم والقيادة ، ولم يل أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا أسفق على رغبة ولا أوفى بعهد منه •

وأتخذ ابراهيم مدينة القيروان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة مكنت أعقابيه من بعده من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها منذ سنة ٢١٢ هـ وغزو مالطة وسواحل إيطاليا الجنوبية الغربية • ولقد أهتم ابراهيم بن الأغلب بالعمارة اهتماما خاصة ، فشرع في سنة ١٨٥ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان وسماها العباسية تعبيرا عن ولائه للعباسيين • ولم يخل عهد ابن الاغلب من الثورات والفتن ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التي كانت تضطرم في أفريقية في العهود السابقة •

وأعظم انجاز قام به الاغالبة هو فتح صقلية في عهد دولة زيادة الله ابن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣) أعظم أمراء بنى الاغلب وأفضلهم على الإطلاق ولم تنعم البلاد التونسية في عهودهم كما نعمت في عهده ، وكان رجل بناء وتشيد فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع الى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكن من اخماد الثورات التي اشتعلت بمجرد تولية الامارة وعكف على الاصلاح والبناء والتشييد ، وتشهد بذلك آثاره في سوسة والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات • ومن مآثر زيادة الله غنائه بالاسطول الاسلامي وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس • ففي سنة ٢٠٦ بعث أسطوله الى جزيرة سردانية فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة وأهم الغزوات البحرية التي تمت في عهده فتح جزيرة صقلية • وترجع أسباب فتح صقلية الى العوامل الآتية :

١ — القضاء على غارات الروم وعودة الى سياسة الجهاد البحري التي جرى عليها ولادة بنى أمية •

٢ — كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية في الوقت الذي أقفرت بلاد المغرب من الخيرات وكانت صقلية لذلك تمثل أراضى جديدة يمكن استغلالها •

٣ — هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل أفريقية كانوا قد تفهموا الدين وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الرباطات على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم •

ومن أسباب الفتح العربى لصقلية سبب مباشر يتلخص فى ان رجلا يسمى فيمى عارض حكم قسطنطين — بطريق صقلية وأعلن الثورة ، وشق عصا الطاعة ، ذلك لان حكومة بيزنطة كانت تشك فى نوايا فيمى الانفصالية ، وحرصت بطريق صقلية على التتكيل بفيمى • وأعلن فيمى الثورة فى سرقوسة ، ولكنه فشل ، فأعترم التخلص من البطريق ومن حكم بيزنطة ، فاستجد بالعرب •

اذن نوايا فيمى الاستقلالية والانفصالية كانت من أسباب استعاقته بالعرب لتخليصه من بطريق صقلية • وتضيف الروايات التاريخية عاملا آخر ، وهو أن فيمى احب اومونيزا الجميلة ، ولكن صاحب صقلية ، اغتصبها منه ، فأعلن الثورة ، واستجد ببنى الاعلب • وهذه الرواية قد تبدو ضعيفة • ولكننا نستطيع أن نقول بان هذا القائد فيمى كان طامعا فى الملك وفى حكم صقلية • وكانت جزيرة صقلية قد تعرضت من قبل لغارات عربية ، فنبهت الروم الى هذا الخطر الداهم ، واتخذوا من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فحصنوها بالقلاع ، ولم يتركوا جبلا الا وبنوا عليه حصنا ومن وقت لآخر كانت تخرج دوريات عسكرية تطوف بالجزيرة لمراقبة ، ما قد يشنه العرب من حملات على سواحل الجزيرة •

كانت بين أفريقية وصقلية هدنة ، ولكن استجداد فيمى بأمر أفريقية — زيادة الله — شجع هذا الأمير على نقضها ، ورآى انه آن الاوان ، وتعيأت الفرص لتحقيق حلم بيته المنشود فى فتح صقلية ، وضم أراض جديدة الى دولة الاسلام ، الامر الذى يكسبه تأييدا ومكانة ومهابة فى نظر المسلمين عامة والعباسيين خاصة ، كما انه آن الاوان لتأمين حدود بلاده من غزو بيزنطى عن طريق صقلية •

ومهما يكن من أمر جمع زيادة الله كبار رجال أهل القيروان والفقهاء والقضاة ، ومن بينهم اسد بن الفرات ، واستفتاهم فى أمر الهدنة ، وتقرير مصير صقلية ، هل يبقيا تابعة للدولة البيزنطية ، أم يضمها الى

الدولة العباسية ودنيا الاسلام ، وانقسم المجتمعون قسمين ، فريق يرى ضرورة الجهاد ، وغزو أراضى صقلية ، وفريق يرى التريث وعدم نقض الهدنة ، ولا يوافق الفريق الأول في نقض الهدنة ، ولكن في النهاية تغلب رأى أسد بن الفرات بنقض الهدنة ، وقال لهم : ولا تهنوا وتدعو الى السلم وأنتم الاعلون •

وأنتصر رأى اسد حينما تأكد للامير زيادة الله وجود اسرى مسنين في جزيرة صقلية ، فلا بد من فداء اسرى المسلمين ، والجهاد فريضة على المسلم • وأسند زيادة الله لاسد بن الفرات بقيادة جيش لغزو جزيرة صقلية ، وأقلع الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة في منتصف ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ في نحو مائة مركب ، وانضم الى هذا الاسطول مراكب فيمى •

وتعرض المسلمون لخطر داهم ومشقات وأهوال ، فانتشر بينهم الوباء وأهلكهم الجوع ، فمات الكثير من جند المسلمين ، وكل ذلك وزيادة الله في انشغال عنهم بفتن داخلية ، ومتاعب خارجية ، ولما انتهى من مشاكله ، أرسل نجدة للمسلمين مكنتهم من فتح بلرم — عاصمة صقلية — وكان فتح بلرم خطوة كبيرة وهامة في فتح باقى بلدان صقلية ، ذلك ان بلرم تقع على البحر ، ومن خلال البحر يستطيع المسلمون تلقى الامدادات من أفريقية ، كما أن بلرم صارت قاعدة عسكرية للمسلمين ، يتخذها المسلمون لشن الغارات على باقى بلدان صقلية وفتح مدنها وقراها ، بدلا من القلاع التى كانوا يعسكرون فيها من قبل ، ثم ان المنطقة حول بلرم خصبة ، ويكفيها ان ترود عساكرهم بما يحتاجون اليه من مسيرة وعلوفه ، ومن بلرم كانت السرايا تخرج كل يوم فتشن الغارات في انحاء الجزيرة ، وتعود محملة بالغنائم والاسلاب وخاصة الرقيق • وأدت هذه الغارات المتكررة في أنحاء الجزيرة ، الى ضعف المقاومة الوطنية فأستسلموا للمسلمين ، وطلبوا منهم الامان ، ودخلوا في طاعتهم •

واجه المسلمون مقاومة عنيدة ومريرة من بطريق صقلية من ناحية ،
وجيوش الدولة البيزنطية من ناحية أخرى وكانت أقوى مراكز المقاومة ،
وأكثرها ثباتا قصر يانة وسرقوسة وطبرمين ومنطقة دمنش •

واجه المسلمون كل هذه الاخطار ، وحاولوا جاهدين اضعاف
مراكز المقاومة ، واستولى المسلمون على مسينة فأنفتح أمامهم الطريق
الى جنوب ايطاليا ، وقد صرفتهم هذه الجهود نحو جنوب ايطاليا
عن تثبيت أقدامهم في صقلية ، وعن اتمام فتحها ، وأتاحت لادن صقلية
فرصة لاسترداد قوتها ، وتقوية وسائل الدفاع عن استقلالها ، واعداد
العدة لشن الهجوم على المسلمين ، ورغم ذلك ظلت السرايا الاسلامية
تشن هجماتها صيفا وشتاء ، ونتيجة لاصرار المسلمين على مواصلة
الفتح ، سقطت قصر يانة بيد العرب ، ذلك ان العباس بن الفضل حاصرها
ثلاثة أشهر متوالية ، قاسى خلالها أهل المدينة الجوع والعطش
والحرمان ، وفي فصل الشتاء غطى الدج البقاع ، وأعتقد أهل قصر يانة
انهم آمنون من هجمات المسلمين ، وجعلهم البرد غير مستعدين للقاء العدو ،
ولكن أحد البيزنطيين أتصل بالعباس ، ووعد به بتيسير مهمة المسلمين في
فتح قصر يانة ، فأمره العباس ببعض فرسانه وقاد الرومى الفرسان الى
مدخل المدينة ، ودخل المسلمون قصر يانة ، وشيد العباس بها مسجدا ،
واسر من فيها من بنات البطارقة ، وغنموا منها مغانم كثيرة • وبسقوط
قصر يانة أصبح المسلمون أكبر قوة في صقلية يعمل لها كل حساب • وبات
واضحا أن الحكم البيزنطى بصقلية على وشك الزوال • لذلك أرسلت
بيزنطة الأساطيل لطرد المسلمين ولكن المسلمين قهروا كل مقاومة
بيزنطية •

وحصن المسلمون قصر يانة ، حتى يتحصن المسلمون فيها من
العدو ، وأتخذ الروم من سرقوسة مركزا للمقاومة وشنن الهجمات على
المسلمين ، وكان القسم الشرقى من صقلية لا يزال مستقلا عن العرب ،
ولما كان هذا القسم أقرب الى القسطنطينية ، فقد أتخذ أهل صقلية

مركزا للمقاومة ، مستعينا بالامدادات البيزنطية ، وعادت القلاع التي استسلمت للمسلمين الى الثورة من جديد سنة ٢٤٦ هـ ومات القائد المسلم العباس بن الفضل في ساحة القتال ولكن ظل المسلمون يسنون الغارات على سرقوسة وغيرها ، وكادت طيرمين تسقط في أيديهم •

ولى جعفر بن محمد أمر صقلية ، وظل يقاوم الاخطار التي واجهته في صقلية ، ويعمل على اتمام فتح البلاد ، وظلت سرقوسة تقاوم منذ أيام أسد بن الفرات حوالى نصف قرن ، وصمدت في مواجهة هجمات المسلمين القوية ، ولكن اهلها ضعفوا ووهنوا في عهد جعفر ، حينما استولى على بعض أرباض المدينة ، ودمر المسلمون مراكب الروم التي جاءت لنجدة سرقوسة ، وحاصر المسلمون البلدة تسعة أشهر قاسى فيها الأهليون البؤس والجوع والحرمان واعد المسلمون معدات كثيرة لحصار البلدة ، وضعف الأهليون بسبب نفاذ المؤن والمعدات ، واضطرب أهل البلدة وعم فيها الاضطراب بسبب البحث عن القوات ، ونهب الناس بعضهم بعضا ، وضعف أهلها ووهنوا ، وكان جيش صقلية ضعيفا ، اختلطت فيه جنود من جنسيات تسمى • بينما يسود الجيش المسلم النظام والطاعة لاوامر قائدهم الاعلى • وخربت المدينة ، وتمكن المسلمون من أسر الكثير من أهل البلدة ، والحصول على الغنائم ، ونقل العرب غنائمهم واسراهم الى بلرم ، وثارت في نفوس هؤلاء الاسرى عواطف الوطنية ، وتطلعوا الى مقاومة العرب •

ويحدثنا صاحب كتاب العرب في صقلية بأن ثيود وسيوس نقل مع الاساقفة ورئيسهم صوفرنينوس بعد خمسة أيام الى الامير الاعلى ، ويعنى به والى • صقلية ، فوجدوه «جالسا في رواق وقد احتجب عن الاعين خيلاء وجبروتا» • وتحدث الأمير الى رئيس الاساقفة والمترجم يوجه الحديث بينهما في جدل دينى قصير ، ثم أذن لهم فأنصرفوا^(١) •

(١) انظر : احسان عباس « العرب في صقلية » •

كان سقوط سرقوسة نهاية محاولات طال مداها ، وقد بقى القسم الشرقى غير خاضع للمسلمين ، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه ، وظلت قطنانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب الدولة الاسلامية ، وكانت الروح الدينية في هذه المنطقة ذات أثر في اذكاء روح المقاومة ، وظل والى بلرم يخرج بجيشه أو يبيث سراياه ، ويفسد الزروع والثمار ، ويحرق الكروم ، ولما قرر ابراهيم بن الأغلب الخروج للجهاد سنة ٢٨٩ هـ ، استطاع فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سماع الامبراطور مؤلماً ، وارتكر عمل ابراهيم في منطقة دمنش ، ولكن منيته لم تمهله ليتم فتح هذه المنطقة وأخذت الفتن المحلية تشغل بال المسلمين ، ووافق ذلك ظهور العبيديين وسقوط الأغالبة ، وكانت مهمة أول والى عبيدى على صقلية أن يحارب دمنش ، ولكن استمرار الفتن مدة طويلة أراح شبه الجزيرة من الحاح الجيش الاسلامى ، حتى طبرمين التى فتحها ابراهيم عمرت من جديد ، واضطر أحد ولاة الكلبين على الجزيرة أن يعاود فتحها سنة ٣٥١ هـ ويدمرها ، وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماماً بسultan المسلمين الى آخر أيامهم بالجزيرة ، وقنع منها الولاة بالجزية ، ووجهوا جهودهم الى الفتح جنوبى ايطاليا .

وخضع أهل صقلية للأنظمة المالية الاسلامية المتعارف عليها في افريقية ، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب وتعيرت الاحوال الاجتماعية ، باختفاء العنصر البيزنطى صاحب السيادة على الجزيرة ، وتحرر العبيد بدخولهم في الاسلام ، وظهرت عناصر جديدة في المجتمع من العرب والبربر والفرس والخراسانيين ، كما شهدت صقلية ازدهاراً في الثقافة الاسلامية ، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه المالكى ، وألف سالم بن سليمان الكندى قاضى صقلية كتابه في الفقه المعروف بالسليمانية .

وانتشر علما للقراءات والتصوف ، وعمت الرباطات سواحلها
ومن أبرز نتائج الفتح الأغلبى لصقلية انشغال الجند بحركة الجهاد
في الجزيرة بدلا من انصرافهم الى الخلافات والمشاحنات فيما بينهم ،
الأمر الذي جنب دولة الأغلبة ويلاتهم •

يضاف الى ذلك انتعاش الأحوال الاقتصادية في افريقية بعد
حصول العرب الفاتحين على الكثير من الغنائم وتحف الكنائس ولم يعد
البيزنطيون أصحاب السيادة الحقيقية في حوض البحر المتوسط ، وفقدوا
موردا ماليا هاما بانفصال صقلية عنهم وأدى اللقاء بين البيزنطيين
والأغلبة ، الى استفادة الاغلبة من الفن البيزنطى ويتجلى ذلك بوضوح
في القلاع والحصون والعمائر التى شيدت في افريقية في عصر الاغلبة •

الاغلبة والفرنجة :

بدأ العداء بين الاغلبة ودولة الفرنجة سنة ٢٠٦ ٨٢١ م وشنت
السفن الاغلبية عدة غارات على سردينية عادت محملة بالغنائم وشن
الفرنجة بدورهم غارات على افريقية ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت
أبواب القيروان ، ولم ينسحبوا الا بعد جهود مضنية قادها محمد بن
سحنون ، واشتد العداء بين الاغلبة والفرنجة بعد حملة الاغلبة على
صقلية ، وعبروهم مضيق ميسينا الى شبه الجزيرة الايطالية ، التى كان
يخضع معظمها للكارولنجية •

شجعت العناصر المناوئة لنظام الحكم في ايطاليا الاغلبة على غزو
الجزيرة ، فقد نشب نزاع بين دوقية نابلى ودوقية بنيفنت اللومباردية
وانتهى هذا النزاع بعقد هدنة بين البلدين بمقتضاها وافقت نابلى على
أداء جزية للدوق سيكر اللومباردى ، ولم يوافق لويس التقي امبراطور
الفرنجة على مساعدة نابلى في نزاعها ضد اللومبارد • لذلك لم ير دوق
نابلى أندريه بدا من الاستعانة بالأخير الأغلبى في بلرم بصقلية ، واستطاع
أسطول الأغلبة أن يرفع الحصار عن اللومباردى الذى كان مفروضا على

نابلى ، لذلك اضطّر سيكر على عقد صلح مع دوق نابلى ٢٢١/٨٣٧ ،
ومن ثم بدأ التحالف بين نابلى والاغالبة .

ورأى الاغالبة فى وجودها فى جنوب ايطاليا تأميناً لجزيرة صقلية
من غارات البيزنطيين عليها ، لذلك رأى الاغالبة ضرورة ضرب معاقلهم
فى الطرف الآخر من مضيق مسينا ، وبصفة خاصة أسطول البندقي
الذى كان يهدد شمال صقلية . وتوفى سيكر سنة ٢٢٥ وانقسمت مملكة
اللومبارد الى امارتين متنازعتين هما بتيقنت وسالرن ، وشجع ذلك
الاغالبة على العبور الى شبه الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا الى الفتنة
المنظم وقد اتت لهم المدن والمعاقل فى أرض قلوريه وأنكبده ، وانكسرو
فيها بصفة دائمة ، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة كما ضربوا
كابوا فى غزوة خاطفة ، وأحرق الاسطول الأغلبى سفن البندقية التى
حاولت استعادة تارنت سنة ٢٢٦ / ٨٤٠ م .

وواصل الاغالبة زحفهم حتى وصلوا نهر ألبو ، واستولوا على
بارى ، واتخذ الاغالبة من بارى قاعدة عسكرية تخرج منها السرايا لشد
المغارات على سائر أنحاء شبه الجزيرة .

وأثبت دوق نابلى حسن نواياه من الاغالبة ففى سنة ٨٢٨ — ٨٤٢
وقف الى جانب الاغالبة أثناء حصارهم مدينة مسينا فى صقلية ولك
نابلى عادت عن موقفها الودى من الاغالبة ، وناصب دوقها العد
للاغالبة ، وواصل الاغالبة غاراتهم على شبه الجزيرة الايطالية حتى
استولوا على أربعة وعشرين حصناً .

وتعرضت روما نفسها لغزو الاغالبة بعد أن استطاع المسلمون ا
صقلية الاستيلاء على مسينا ، ويبدو أن هدف الاغالبة فى ذلك الوقت
فتح جنوب ايطاليا ، وقد باغت الاغالبة مدينة أوستى عا
التيير ، ووصلوا الى أسوار روما سنة ٢٣٣ ، وهاجموا الجانب الغربى
لأنه لم يكن محصناً وغنموا غنائم كثيرة ، واستولوا على كنوز القديس

بطرس والقديس بول ، وعادت الحملة الاغلبية الى أفريقيا ، حين تعرض لها قيصر بن الدوق سيرجيوس حاكم نابلى •

وانشغل الملك الكارولنجى عن الأغلبة بغزواته خارج ايطاليا وازداد الخطر الاغلبى على جنوب ايطاليا بتخريب بنيفنت وحصار جانيه حول منتصف عام ٢٣٣ / ٨٤٦ ، لذلك ظهر لويس الثانى فى جنوب ايطاليا على جيش قوى لمقاومة الأغلبة ولكن الاغلبة انتصروا عليه ، ولم يستطع الملك أن يجمع ثمل الامراء الايطاليين لدفع خطر الاغلبة عن ايطاليا •

وانتهز الاغلبة الفرصة فأغاروا على سواحل الكارولنجية فى ايطاليا وخارجها ففى سنة ٢٣٥ / ٨٤٩ سقطت مدينة آرل فى أيديهم كما عاودوا غزو روما وجهزوا لذلك أسطولا كبيرا فى جزيرة سردينية ، ولأبحروا تجاه مدينة أوستى ، ولم يستطع المسلمون اقتحام مصب التير لحصانته ومناعته ، ودمرت عاصفة عاتية الاسطول الاغلبى •

وأظهرت تهديدات الاغلبة ضعف البابوية وعدم قدرتها على مواجهة الغزو ، لذلك لم يجد البابا مناصا من التسليم للويس اثنى بتبنى الدفاع ضد المسلمين فى الغرب ، خصوصا وأن الامارات الايطالية لا تستطيع الاضطلاع بهذا العبء بسبب ما بينها من خلافات • ولم يستطع لويس الثانى مواجهة الاغلبة فى جنوب ايطاليا ، لذلك تمكن الاغلبة من الاستقرار فى جنوب ايطاليا ، وعسكر الجند الاغلبة فى المنطقة • فتدخل البيزنطيون لطرد العرب من ايطاليا ، واستولى الامبراطور البيزنطى على بارى ، لذلك ضعف شأن الاغلبة فى جنوب ايطاليا وشنوا الغارات على السواحل الغربية لشبه الجزيرة •

وبتولى شارل الاصلح حكم الامبراطورية وبتخليه عن أمور ايطاليا ازداد نفوذ الاغلبة فى جنوب ايطاليا من جديد ونجح الاغلبة فى صناعة بعض الامراء اللومبارد الصغار فى الجنوب ،

بل ظهروا في دوقية نابلى ، وهددوا روما نفسها ، وتواطأ معهم بعض موظفى البلاط البابوى على تسليم المدينة اليهم عام ٨٧٣/٨٧٦ م ، ولما ضعف البابا عن صد الاغالبية ولم يجد عوناً من الامراء والملوك ، دفع للاغالبية اتاوة مالية كبيرة مقابل الكف عن روما . وفي نفس الوقت اتجه البابا لبيزنطة لتخليص بلاده من الاغالبية .

وكان في امكان الاغالبية الاستيلاء على ايطاليا كلها لولا ضعف الاغالبية بعد موت ابراهيم بن أحمد ، واضطربت دولة الاغالبية في أفريقية في عهد ابنه أبى العباس عبد الله ، وانشغال خليفته زيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعى ، وأدى ذلك الى انصراف الاغالبية عن أعمال الفتح في ايطاليا ، وكان سقيوط الدولة الاغلبية على يد الفاطميين الشيعة خلاصاً لايطاليا من الخطر الاغلبى ومع ذلك فقد احتفظ الاغالبية حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة في ايطاليا مثل سابينو شمال بنيفنت وجنوب بسطوم .



كان عصر الاغالبية عصر ازدهار في تاريخ أفريقية ، فلم تعرف هذه البلاد منذ العصر الرومانى ازدهاراً اقتصادياً كما عرفت أيام الاغالبية ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على أفريقية وقيام البربر بالثورات على حكامهم ، والفتن الموكبة لغارات سكان الجبال والبدو على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الافريقية تعرف الامن اللازم لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادى في أفريقية عند بداية الفتح العربى للمغرب في غاية التصدع وعجلت ثورة كسيلة والكاهنة على هذا التصدع وأتى عليه تشدد أمراء بنى أمية في جباية الضرائب ومابغ ذلك من حركات بين حشود البربر الخوارج المتسادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الاغالبية بامارة أفريقية أحض المزارعون بنوع من الاستقرار النسبى كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة وفي ظل هذا الامن الذى ساد

في معظم عهود الاغالبية زادت المحاصيل الزراعية ولم تتعرض أفريقية للقطع . وقد أبدى اليعقوبى الجغرافى دهشسته لمظهر الخضرة وكثافة الاشجار في المنطقة الممتدة من قعودة الى الساحل ، حيث تسود زراعة الزيتون والنخيل والكروم أما المنطقة الواقعة شمال قعودة فكانت مراع للحبوب . ومن حيث ثروة أفريقية المعدنية فقد اشتهرت مجانة بمعادنها الكثيرة لا سيما الفضة والحديد والرصاص . ويفضل توفر المعادن ازدهرت الصناعات في عصر الاغالبية ومنها صناعة الالات الحديدية اللازمة لصناعة السفن والسيوف والسروج ولجم الخيل وصناعة التحف الزجاجية وكان في القيوان حى خاص بالزجاجين مما يدل على شهرة القيوان بهذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت في أفريقية بالتقاليد العراقية حيث كانت ترد على القيوان القراميد المذهبة البغدادية لترين قصور الأمراء . كذلك اشتهرت أفريقية بصناعة السجاد والمنسوجات وأهمها الثياب السوسية الرفيعة ناصعة البياض .

وأزدهرت الحياة التجارية في القيوان أزدهارا عظيما وكثرت في أيدي أهلها الاموال بسبب التجارة وكانت القوافل التجارية تسير في الطرق المؤدية الى أفريقية والمغرب آمنة مما يدل على الرخاء الاقتصادي والاستقرار .

تطور المجتمع الاسلامى في أفريقية في العصر الأغلبى ، واستقرت البلاد ، وانتعشت الحياة الاقتصادية فنمت المدن ، واتخذت طابعا اسلاميا مثل القيوان وتونس وسوسة ، فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار رجال الدولة .

ومن أبرز سمات المجتمع الاسلامى في أفريقية في العصر الاغلبى تماسك هذا المجتمع في عقيدة واحدة ومذهب واحد ، هو مذهب أهل السنة ، أما الخوارج فكانوا قلة في هذا المجتمع لا تأثير لهم في تطور شؤونه .

واهتم الولاة المهالبة بتطوير جامع القيروان وانشاء أسواق في القيروان وتونس ، وانشاء الدور للمرابطين والزهاد ، والمحارس على الساحل .

ولكن د . حسن مؤنس^(١) يقول بأن بنى الاغلب هم الذين أدخلوا الحضارة الاسلامية في افريقية والمغرب الاوسط ، وجددوا مسجدي القيروان وتونس الجامعيين ، وهما مسجد عقبة ، ومسجد الزيتونة ، وقد أنفق زيادة الله بن الاغلب الاموال الطائلة في تجديد مؤذنته ، واعطائه الصورة الرائعة التي هو عليها الآن ، وكان يقول : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحبتي أربع حسنات : بنائي المسجد الجامع بالقيروان وبنائي قنطرة أم الربيع ، وبنائي حصن مدينة سوسة وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء أفريقية . وهذا يدل على اهتمام زيادة الله بتعمير بلاده ، واصلاح أحوالها ، ونشر العدل بين ربوعها . واهتم ذلك باصلاح جامع تونس فأمر ببناء قبابه المضلعة ، ووضع فيه أعمدة الرخام ، وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، كما أمر ببناء القبة الكبيرة في جامع القيروان التي تعتبر من أجمل القباب في تاريخ المساجد .

ومن الآثار المعمارية الرائعة التي خلفها الأغالبة ، جامع سوسة الذي جدد بناؤه خامس الأمراء الأغالبة ، أبو العباس محمد بن الأغلب .

كذلك أهتم أمراء الأغالبة بالمنشآت العسكرية مثلما اهتموا بالمنشآت الدينية ، فأقاموا دار صناعة في تونس وسوسة ، كما شيد الأغالبة الرباطات ، وهي بيوت يقيم فيها المجاهدون في سبيل الله ، سواء رجال تطوعوا للجهاد أو جند في جيش الدولة ، وقد تضخم الرباط بمرور الزمن حتى تحول من معسكر للمجاهدين الى مدينة كبيرة تتضمن معسكرات ومساكن وأماكن للحراسة وأخرى للعبادة ، ويرعى هذا الرباط ويديره شيخ من رجال الدين والتقوى والجهاد ، ينظم شؤونه ، ويقود

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٦ .

رجالہ ، ویبصرہم بشؤون دینہم ، ویحدد واجباتہم نحو الله والوطن .
كان الشيوخ والفقهاء والزهاد رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم
أمام الحكام ، لأن بنى الاغلب لم يختلطوا بالبربر ، وانعزلوا في مدنهم
الملوكية ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالعامّة
الا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وكان الفقهاء في الغالب يكرهون
التردد على الحكام ومجالستهم ، لانهم في نظرهم أهل ظلم ، ولا يتقون
الله في القول والعمل ، لذلك كرهوا منصب القضاء ، وان كانت السلطات
ترغمهم عليه أحيانا .

ومن أبرز الفقهاء في ذلك العصر سحنون وهو أبو سعيد عبد السلام
ابن سعيد بن حبيب النخعي ، كان يجلس في جامع القيروان يعلم الطلاب
الفقه ويفتي ، ويعلم طلاب العلم علوم الدين وآداب السلوك ، وقد عاصر
الامراء الاغالبية الاربعة ، وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وينوم
الحاكم على ظلمه ، وينصحه ، ويحذره من معصية الله ، لذلك تعرض
للاضطهاد من قبل زيادة الله الاول ، وفي عصره أصدرت الدولة العباسية
أوامرها بامتحان الفقهاء والقضاة في قضية خلق القرآن ، وكان سحنون
هو وكثير من فقهاء المغرب يرفضون القول بخلق القرآن ، وقبل أن يتعرض
سحنون للمعذاب انتهت المحنة ، وتوقف تعذيب المعارضين للقول بخلق
القرآن .

والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسمع عن مالك بن أنس ،
وهو المعروف بالمدونة ، وهي كتاب فقه على المذهب المالكي ، يعرض لمسائل
الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضا بليغا وموجزا ، وتعتبر
المدونة من أشمل كتب الفقه الاسلامي (١) .

ويعتبر حكم الاغالبية فترة انتقال في تاريخ افريقية ، فقد تحولت
البلاد من مجتمع مضطرب الى مجتمع له سماته وخصائصه من البربر

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٦ .

والعرب الوافدين والخراسانيين والاندلسيين يعملون جميعا بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويندمجون مع بعضهم البعض ، ليظهر من هذا الاندماج مجتمع جديد ، يضم خلاصة هذه العناصر ، وخصائصها وميزاتها ، ويبرز شخصية هذا المجتمع المتميزة .

وفي أفريقية ظهرت المدن بكل امكاناتها بها المساجد الفخمة والقلاع الحصينة والاسوار والقصور المنيفة ، وظهرت هذه البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي شعبا اسلاميا عربيا مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الاسلامي في عصره الذهبي^(١) .

٣ — دولة الادارسة في فاس

استطاع العلويون بعد ثورات متعددة في العهد الاموي وفي العصر العباسي الاول تحقيق هدفهم الرامي الى اقامة دولة يحكمها امام من ال بيت رسول الله ، ذلك هو ادريس بن عبد الله وهو الاخ الرابع لابناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، واستشهد اخوته الثلاثة في ثوراتهم ضد الخلافة العباسية ، وأولهم هو محمد ذو النقيس الزكية ، وثانيهم ابراهيم شهيد باخمري ، وثالثهم يحيى بن عبد الله ، ورأى ادريس البعد بثورته عن مركز الخلافة العباسية ، فلجأ الى المغرب الاقصى وأيده البربر . وأقام دولة الادارسة .

ودولة الادارسة هي دولة طويلة العمر ، قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، واستمرت حتى أواخر القرن الرابع الهجري أي أنها استمرت قرنين ونصف قرن أي ضعف ما عمرته دولتا الاغالبة والرمثيين ، واستطاعت أن تصمد في وجه دعاة الفاطمية ، وحافظت على استقلالها من دولة الامويين في الاندلس ولكنها رغم صغرها أدت دورا حضاريا بارزا في تاريخ المغرب سواء في نشر الاسلام أو في تحرير

(١) المصدر السابق . ص ١٠٠ .

البلاد وفد ادريس الى الغرب الاقصى ومعه موله راشد يقال انه من أصل بربري ، وكان راشد يتربى بالتجارة ويتظاهر بأنه السيد وادريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره ، ذلك ليخفى شخصيته أمام الناس وفى خلال سنة ١٧١/٧٨٨ ظهر الاثنان فى طنجة وأخذ راشد يدعو لامير علوى يحمل راية الاسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة •

وقد التفت الناس حول راشد حيث جذبتهم الدعوة لرجل من آل بيت رسول الله ، وواصل راشد الدعوة بين أفراد قبيلة أوربه ، وكثر أتباعه ومؤيدوه فى بلده ولىلى ، وهى أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، لأنها مركزا تجاريا ممتازا وسوقا عظيما للقبائل ، وتشهد تجمعات كثيرة من البربر ، ونزل ادريس مدينة ولىلى حوالى ١٧٢ ، وبدأ يدعو لنفسه ، وأيده شيوخ أوربه ورأوا فيه خير منقذ لهم من سلطان برغواطه ، وتطلعوا الى أن يقيم بهم دولة مستقلة مثل دولة بنى رستم فى تاهرت خصوصا أن هذا الداعى من آل البيت ، وبعد جهد ليس باليسير عهد شيوخ القبائل الى ادريس بحكم ولىلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربه ، وتبعه بعض أفراد القبائل الصغيرة المقيمة فى تلك النواحي ، وكانت ناقمة على برغواطه ، وواصل ادريس بث سلطاته فى تلك النواحي سلما أو حربا حتى امتد سلطانه فى أقل من عام الى بقعة كبيرة فى الشرق الاقصى •

وقد استاء الرشيد من اقامة دولة الادارسة ، فقد اقتطع ادريس جزءا من دولته ، ورأى الرشيد أنه من الصعب ارسال جيش للقضاء على هذه الدولة لبعده المسافة ، ولأن ادريس يتمتع بتأييد البربر ، وينسب المؤرخون الى الرشيد بأنه لجأ الى التآمر للتخلص من غريمه ، فأرسل طبيبا يقال له الشماخ ، قدم لادريس دواء فيه مادة سامة قضى عليه ، وتوفى ادريس بعد حكم دام ثلاث سنوات سنة ١٧٥ / ٧٩١ م •

حافظ راشد على استقرار حكم الدولة الجديدة فى آل ادريس ،

وقد ترك ادريس جارية له حاملا ، فاتفق ادريس مع شيوخ القبائل على الانتظار حتى تلد الجارية ، وأنجبت ولدا ، فظل ادريس وصيا عليه حتى بلغ العاشرة من عمره وولاه سنة ١٨٦ م حكم الدولة الجديدة .

ولى ادريس الثانى الحكم خلفا لابييه — وهو طفل — فكفله راشد ، وأحفظه القرآن فى طفولته وعلمه الحديث وعلوم اللغة وسير الملك وأخبار الماضين وأيام الناس وركوب الخيل والرمى ، والخلاصة أعدده للملك خير اعداد .

ولما تهيأ ادريس للملك ، أخذ راشد له البيعة من سائر القبائل سنة ١٨٦ هـ ، ولكن ابراهيم بن الاغلب خشى على ملكه من دولة الادارسة ، وكان يرى أن راشد هو المدير الحقيقى لهذه الدولة ، لذلك دبر مؤامرة للتخلص منه ، على أن هذا العمل لم يؤثر ولم يضعف دولة الادارسة ، بل تولى أبو خالد يزيد بن الياس العبدى الاشراف على المملكة واستقرت الامور ، وقويت الدولة .

ازدادت قوة ادريس بتوافد العرب عليه ، وقربهم ورفع منازلهم ، وجعل منهم بطانته دون البربر . وبذلك خرج ادريس من سيطرة البربر على الحكم .

قرر ادريس الثانى بناء مدينة ليقيم فيها هو وخاصته وجيشه ووجوه مملكته ، واشترى أرضا فى موضع مناسب لبناء مدينته ، وشرع العمال فى البناء فى موقع يقع بين جبلين صغيرين ، على ضفتى نهر صغير وهو نهر فاس ، وبدأ البناء فى سنة ١٩٢ هـ بعدوة الاندلس ، وقد سمى هذا الشق من المدينة فيما بعد باسم المهاجرين الذين أجلاهم الحكم ابن هشام عقب الفتنة الربضية ، وشيد ادريس سور المدينة ، والمسجد الجامع ، وأما عدوة القرويين فانها أسست سنة ١٩٣ هـ ، وأذن ادريس للناس ببناء الدور وغرس الاشجار والبساتين حولها ، وبنى جامعا

متصلا بمنزله ، وهو المعروف بجامع الشرفاء ، وعقب اتمام أسوار شقى المدينة والجامعين ، أنزل ادريس الثانى الوافدين عليه من الاندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت عدوة الاندلس وأنزل الوافدين من القيروان الذين كانوا معه بالعدوة الغربية ، وسميت عدوة القرويين ، ثم أمر بزيادة البناء والغرس والدور والمساجد والخوانيت ، وعمرت الارض وكثرت خيراتها ، وقصدها الناس من مختلف المناطق للإقامة والتملك ، وسكنها العلماء والادباء والتجار والصناع . وهكذا كانت مدينة فاس عبارة عن مدينتين منفصلتين مسورتين ، كفتاهما فى سفح جبل ، ويفصل بينهما نهر ، تمتد عليه جسور ، ويستمد مياهه من عين غزيرة ، وقد احتفظت كلتا العدوتين بكيانها على النمط الذى خطه ادريس الثانى حتى عهد ملوك زنانه فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فكان لكل من المدينتين مساجدها وأسواقها وولاتها .

حاول ابراهيم بن الاغلب التخلص من ادريس الثانى ، وذلك بالحداد الفرقة بين أصحابه وحملهم على مبايعة الرشيد ولكن هذه المؤامرات باءت بالفشل ، ثم خرج ادريس سنة ١٩٧ هـ لغزو من بقى من الكفار بنفيس ، ودخل هذه المدينة ثم اتجه الى الجنوب ، واستولى على مدينة أغمات ، وبعدها أخضع البلاد بين المنطقتين ، ثم دخل تلمسان صلحا وقضى فى تلمسان ثلاث سنوات نظم أمورها ، وأضعف الفوارج ، وبعدها عقد هدنة مع الاغالبة ، أمن بها من بطش الاغالبة وتوفى ادريس الثانى سنة ٢١٣ هـ .

ويعتبر ادريس الثانى بحق المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة وهى أول دولة كبيرة فى المغرب منذ الفتح الاسلامى — فقد تمكن من درء خطر الاغالبة ، وسيطر على البربر سيطرة كاملة ومد حدود مملكته — التى كانت تضم أوربه — عبر جبال الاطلس الاعلى فى جنوب مراكش حتى درعة ولذلك ضمن لنفسه الاستفادة من موانئ المحيط الاطلسى والسيطرة على مضيق جبل طارق من طنجه وسبته قاعدتا الزحف الى الاندلس .

ومن أهم انجازات ادريس الثانى التوغل عبر الجبال المنيعه ومواجهة القبائل شبه المتوحشه المعتصمة بهذه الجبال ، والتي ظلت في معزل عن الدنيا ، واجتاز ادريس الثانى هذه الصعاب ، ونشر الاسلام بين أهل هذه الجبال الذى امتد منها الى الصحارى الواسعة التى تمتد وراءها . ومن أهم انجازات ادريس القضاء على الخوارج الصفرية الذين أضعفوا بلاد المغرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا أما خوارج بنى مدرار والدولة الرستمية فقد تعايش ادريس معها سلميا .

بلغت دولة الادارسة — كما قلت — أوج عظمتها في عهد ادريس الثانى ، وأما عهد ابنه ممد بن ادريس ، فهو يمثل استقرارا للامور ، والمحافظة على المكاسب التى حققها أبوه ، وأعقبه عهد تدهور كبير بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، والتنافس بينهم وبين الامويين فى الاندلس .

تأسيس مدينة فاس

فى الواقع نشأة مدينة فاس ، هو نشأة مدينتين احدهما قريبة جدا من الاخرى ، وان بقيتا مستقلتين برغم هذا سنة واحدة ويستمرى الانتباه كيف استطاع ادريس الثانى القيام بهذا العمل الضخم على الرغم من صغر سنه ، تأسيس مدينتين متباينتين فى مكان واحد ، وجعل لكل منهما سورا بدلا من احاطتهما معا بسور واحد ، وحقيقة الامر أن مدينة فاس قد بنيت فى سنة ١٧٢ هـ عندما دخل المغرب ادريس بن عبدالله هاربا من تعقب أبى جعفر المتصور له حيث التف حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم وبنوا له مدينة فاس على مستنقع عشبي ، وعندما حضرت الاسس — استكشفت فأس فى الأرض ، وهكذا سميت بمدينة فاس ، وضربت بها النقود ابتداء من تاريخ غير محدد ، ولكنه يرجح على الاقل سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ويقضى ادريس الثانى ولايته فى المدينة الجديدة ولما كان ولما بالتجديد ، بنى هو الآخر فى الجزء الواقع الى الغرب من نفس الموقع ، والذي وجده الافضل مدينة جديدة على

الطراز الشرقى ، أو على الطراز الافريقى ، هذه المدينة أطلق عليها رسميا اسم العاليه ، ولعلهم سموها أيضا فيا ذكر اليعقوبى اسم أفريقية وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذى انتهى به الامر الى أن صار شائعا على ألسنة الناس ، فقالوا مدينة القرويين أو مدينة القيروانية ، وبعد ذلك بتسع سنين سنة ٢٠٢ هـ كان حضور القرطبيين المعروفين باسم ثوار الربض الى ادريس الثانى مؤديا الى اضعاف الصفة التى اتسمت به مؤسسة أبيه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها ، وقد انشأوا مدينة فاس على النمط الاندلسى ، وما لبثوا أن أعطوها طابعا جديدا لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم مدينة الاندلسيين أن حل محل الاسم القديم ، وهو مدينة فاس فصار يطلق بعد ذلك على كل الاقليم والمدينتين القائمتين فيه .

كانت مدينة فاس فى عصر ادريس الاول لا تبدو أكثر من أنها مدينة بربرية صغيرة ولم يزل بمراكش أمثلة عدة لهذا النوع من المدن مما يجعل طابع القرى الرغوية خاصة وهى غالباً تكتلات قليلة الكثافة الى حد ما تنشأ فى طريق جبلى أو فى الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصينا بدائيا ، حيث نجدها متراصة بوجه عام على سطح ينحدر الى بطن أحد الأودية ، وفيها سوق أسبوعى . أما فى الداخل بيوت متواضعة ومراع للماشية ومخازن الخلال وجامع متواضع .

وفى عهد ادريس الثانى عاشت فاس فى رخاء وضربت فيها عملة سنة ١٨٥ هـ ، واستقبل فيها ادريس الثانى المهاجرين العرب الذين لجأوا اليه من الاندلس ومن أفريقية الاغلبية وكان وجودهم فى فاس مكسبا كبيرا لادريس الذى كان يشعر أنه فى عزلة وسط البربر ، وأخذ يستعد لاستغلال هذا العنصر المهم من العرب للتخلص من البربر ، وأخذ يستعد واتخذ بلاطا عربيا له وزير وكاتم سر وقاض من أفاضل العرب .

والظاهر أن الوزير عمير الذى تزوج عاتكة — ابنة ادريس الثانى —

قام بدور مهم حاسم في تأسيس مدينة عدوة القروانيين ولا شك أنه أقنع سيده الشاب بألا يقيم مقره في مؤسسة أبيه بمدينة فاس وأنه يستقر بقربها على الجزء الأكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن انشاءها المدنى الحقيقى الجدير بالمدن السورية والانجليزية الزاهرة في ذلك الوقت ، فأنشأ في المدينة الجديدة قصرا للامارة ، كما بنى مسجدا اسمه مسجد الاشراف وكان لابد للمدينة الجديدة من أن تنمو سريعا ، وكان أحد أحيائها خاص بيهود استقروا فيه ، وقرعوا النشاط التجارى ، على أن العرب والموالى كانوا في الغالب من الفارين القروانيين ممن وفدوا لخدمة الحكومة الاغلبية بأفريقية • أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، اذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع الذى يميز حياتهم ، وكانت قريبة من منازلهم •

ومن هنا نرى أن ادريس الثانى قد احتفظ بمدينة فاس لئلى تكون سكنا لجنده البربر ولضباطهم •

وكل الدلائل تدل في النهاية على أنه بينما كانت مدينة ادريس الثانى تنمو وتزدهر اذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة في مضممار المدن العربية بل وتزداد اضطرابا لدرجة أنها بعد ذاك بعدة سنين عندما سمح الامير للقرطبيين من أهل الربض بالاقامة فيها — لم تكن بلا شك أكثر من مجرد قرية كبيرة تقوم عليها بيوت متواضعة من اللبن مغطاة بفروع الأشجار ، وكان على الاندلسيين أن يحسنوا مدينتهم سريعا ومع هذا فقد تركوا في أحيائها المتطرفة طابعا ريفيا قويا •

حركات الخوارج في المغرب

الاباضية فرقة من الخوارج ، وقبل أن نشير الى حركتهم في بلاد المغرب في أواخر العهد الاموي ، يجب أن نتكلم بإيجاز عن الخوارج •

الخوارج مفردا خارجي ، وهم أتباع أقدم فرقة في الاسلام ، وقد نشطوا في أواخر عهد علي بن أبي طالب ، وتولية معاوية للخلافة ، وأحدثوا اضطرابات كثيرة في الدولتين الاموية والعباسية ، وقدر لبعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن^(١) •

نشأت فرقة الخوارج أثناء معركة صفين بين علي بن أبي طالب ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله في النزاع بين الفريقين ، وعارض فريق من جيش علي التحكيم على اعتبار أن الرجال لا يصح أن يحتكم اليهم في حكم الله • وهذا الفريق قوامه قبيلة تميم بالذات ، وهجروا جيش علي قائلين لا حكم الا لله ، ثم تركوا الجيش ، وانسحبوا الى قرية حروراء غير بعيد عن الكوفة ، وارتصوا بعبد الله بن وهب الراسبي قائدا عليهم^(٢) •

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية^(٣) ، وانتعشت هذه الفرقة ، وانضم اليها القراء في جيش علي • بعد ما شعروا بالخذلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التي كانت في صالح معاوية وفي غير صالح علي وأظهر الخوارج مذهبهم وقالوا بعدم أحقية علي في الخلافة ، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون ، ومن ليس على عقيدتهم كافر^(٤) ، وعليهم رد هؤلاء الكفار الى حظيرة الدين ، وطعنوا في مسلك عثمان ، وأبوا الثأر لمقتله ، وقوى أمر الخوارج شيئا فشيئا بترديد

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ •

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٨ — ٦٠ •

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٣٤ •

المساواة بين الشعوب في الاعتقاد وهو المبدأ الذي قال به الخوارج^(١) .

وكان على بن أبى طالب قد غول على الزحف الى الشام لمحاربة معاوية ، واعادة الوحدة الى دولته ، بعد أن رفض قرار الحكّمين لكنه علم أن الخوارج تجمعوا في النهروان ، وقوى أمرهم واشتد خطرهم ، وقتلوا مخالفينهم ، وأشاعوا الذعر بين الناس ، وسبوا النساء وأشاعوا الخراب والدمار ، فتحول على الى النهروان ، وألحق بهم الهزيمة سنة ٣٨ هـ^(٢) ، ونكل بهم ، لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى آرائهم ، فظل بعضهم يقيم معه بالكوفة ، كما أقامت جماعة منهم بالبصرة ، وقتل على بن أبى طالب بيد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ . ولما قامت الدولة الاموية قوى شأن الخوارج ، واعترضوا على تولية معاوية الخلافة ، لأنه لم ينلها باجماع كلمة المسلمين ، وخالف سيرة الخلفاء الراشدين باتخاذهم الحرس والحجاب وتشييده قصر الخضراء مقرا له ، وقوى أمرهم في البصرة والكوفة^(٣) .

استند ولاية بنى أمية في العراق في قمع الخوارج ، وتعقبوهم ، ونكلوا بهم لكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، وظلوا يعارضون الحكم الاموي ، ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في مكة ، انضم اليه فريق من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وذهبوا الى مكة ليجاهدوا مع ابن الزبير ضد الحكم الاموي ، ويذودوا عن البيت الحرام^(٤) .

على أن الخوارج اختلفوا مع ابن الزبير حول رأيه في عثمان فقال لهم : انى ولى لابن عفان في الدنيا والاخرة ، وولى أوليائه وعدو أعدائه ، فقالوا له : برىء الله منك يا عدو الله . ثم انصرفوا عنه .

(١) نشوان الحميري : الحور العين ص ١٧٠ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٣٨ هـ .

(٣) ابن الاثير : الكمل في التاريخ حوادث سنة ٤٠ هـ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص ١٠٠ .

فسار جماعة منهم الى البصرة وفيهم نافع بن الازرق الحنفى وعبد الله ابن صفار السعدى ، وعبد الله بن اباض^(١) .

ساد الاضطراب بلاد العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وعجز ولايته عن مقاومة الخوارج ، فأعادوا تنظيم صفوفهم ، وأعلن نافع بن الازرق نفسه أمير المؤمنين فى الاهواز ، وبايعه أنصاره ، وعارض بيعته عبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض ، وأتباعهما من الخوارج .

واصل الخوارج شن غاراتهم فى شرق الدولة الاسلامية . وكانت غاراتهم أشبه بحرب العصابات . ويرجع الفضل فى معظم انتصاراتهم الى سرعة حركة فرسانهم فكانوا يتحركون فجأة لا يتوقعهم أحد ، ويكتسحون البلاد ، ويباغتون المدن غير الحصينة ، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من مطاردة جيش الدولة لهم^(٢) .

وكان على ولاية بنى أمية بعد القضاء على ابن الزبير أن يخوضوا حربا لا هوادة فيها على الخوارج الذين كانوا أعداء لابن الزبير والامويين على السواء . وانقسم الخوارج الى أزارقة وصفرية واباضية وتعددت فتنهم فى شرق الدولة الاسلامية وازداد خطرهم نتيجة لاعمالهم التخريبية . وانتفاضاتهم التى اتسمت بطابع العنف والقسوة بل والوحشية ، ولم تفت فى عضدهم ، ولم يضعفوا ولم يهنوا من بطش الامويين وتنكيلهم بهم . على أن المطلب بن أبى صفرة . والحجاج بن يوسف الثقفى . قد تمكنا بعد جهد جهيد وعناء شديد دام عدة سنوات من هزيمة جموع الخوارج^(٣) .

وكانت جزيرة العرب مسرحا لحركات الخوارج وبالذات بين عامي

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٤٢٣ .

(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٩٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٠ .

٦٥ — ٧٢ هـ حيث استولوا على اليمامة • وامتد نفوذهم الى حضر موت واليمن ومدينة الطائف ولم يمنعهم من الاستيلاء على مكة والمدينة الا خوفهم من اثاره الشكوك في دينهم • حقيقة نكل بهم الحجاج بن يوسف ولكنه لم يكن قضاء مبرما • فقد بقى أفراد من الخوارج في بلاد اليمن يتهيئون للثورة ضد الحكم الاموى حينما تتاح لهم الفرصة • فيذكر الخزرجي^(١) أن الخوارج قدموا الى صنعاء سنة ٧٢ هـ • فجمع وهب بن منبه الناس لقتالهم • • فقال له الناس : لا طاقة لنا بهم ، ونحن نخشى أن يستحلوا دماءنا فتفرق الناس • وصالحوا الخوارج على مائة ألف دينار • فاستعان أهل صنعاء بأهل المخاليف على المال • فأمدوهم بالمال • وتفرق الخوارج •

اضطربت الأمور في الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة — الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية • وبقي في الخلافة سنة وشهرين • ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ • وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر وبويع أخوه ابراهيم ، وفي عهده تجلّى الاضطراب في البيت الأموى فلم يكن هناك أجماع على توليته • فكان ثاس يسلمون عليه بالخلافة ، وثاس بالامارة • • وثاس لا يسلمون عليه بواحدة منهما • وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد^(٢) • ولما ولى مروان بن محمد الخلافة تعصب للقيسية وطالب اليمانيين بدم الوليد بن يزيد • فنار عليه يزيد بن خالد القسرى بدمشق^(٣) وانضمت اليه اليمانية فأرسل مروان الى دمشق جيشاً أخمد الثورة كما قضى على ثورات أخرى في بلاد الشام قام بها اليمانية^(٤) •

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك • ودعا أهلها الى خلعه • وانضمت

(١) الكفاية والاعلام ص ٦٨ -

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ •

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ، في الاداب السلطانية ص ١٢٣ •

(٤) الداينورى : الاخبار الطوال ص ٣٢٤ •

اليه اليمانية • فسار اليه مروان • وأوقع به^(١) الهزيمة ولما كانت أكثر
عرب الشام من العنصر اليمنى فقد أثر مروان بن محمد أن يتخذ حران
حاضرة لدولته بدلا من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته^(٢) •

وكان مروان بن محمد من أقدر خلفاء بنى أمية في الادارة والحرب
والسياسة ، ولكنه ولى في وقت كثرت فيه القلاقل والاضطرابات في
الدولة ، وتعددت الثورات ، وانقسم البيت الحاكم على نفسه ،
وانتشرت الدعوة العلوية في الكثير من أرجاء الدولة الاسلامية ،
ونجحت الدولة العباسية في اقليم خراسان نجاحاً كبيراً • وازداد
نشاط الخوارج •

قيام الدولة الرستمية

قام نزاع بين حبيب بن عبد الرحمن والى العباسيين على افريقية
مع ورفجومة وما أنضم اليها من الخوارج واضطربت الأمور في افريقية
حيث دخلوا القيروان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وقتلوا كل
من كان من قريش وسامت أهل القيروان سوء العذاب ، وندم الذين
دعوهم أعانوههم أشد ندامة في هذا الوقت • رأى الإباضية في منطقة
طرابلس وجبل نفوسة الوقت قد حان ليكونوا لهم امارة مستقلة ينظمون
فيها شؤونهم وفق تعاليمهم ومبادئهم ، ويكون على رأسها امام تتوافر
فيه الشروط التي يجب أن تكون في الامام كما يرى ذلك علماءهم ويقول
المؤرخون أن الإباضية في منطقة طرابلس صاروا في دور (الكتمان)
بعدها أقتل الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس الهواري من طرف
عبد الرحمن بن حبيب ، وظلوا كذلك حتى قدم أبو الخطاب وأصحابه
من المشرق ، فتطلعوا الى الخروج من هذا الدور الى دور (الظهور)
وخاصة بعدما قدروا قواتهم • وقدروا مكان مدافعة عدوهم ورأوا أنهم
قادرين على الدفاع عن كيانهم بعد ظهورهم •

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٥٦ •

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٧ •

وقد تطلب أمر الظهور منهم تعيين أمام يقسود حركتهم • وكان الامام الذى اتفقوا عليه هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعفارى الذى أشسار له بالامامة من قبل أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وقد أشترط الأباضية عليه أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين ، أما هو فقد اشترط عليهم — حتى يقبل الامامة — ألا يثيروا مسألة الحارث وعبد الجبار التى أحدثت الفرقة بين صغوفهم وقبلوا منه ذلك فبايعوه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنة واتباع أئمة المهتدين ، وكان ذلك على رأس ١٤٠ هـ • وآتاه أهل القيروان داخلين فى حماه وطلعوهم بما ارتكبه الوريغوميون من ضروب البطش والظلم والفساد ، وأستباحة الأعراض وتدنيس المساجد • فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها فتحركت فى نفسه عوامل الغيرة على الاسلام • فأستتفر أتباعه من الأباضية وشايعة بربر طرابلس وفى مقدمتهم هواره وزحف بجموعه يريد القيروان لقتال ورفجومة ، فالتقى معهم وقااتلهم ، ثم هزمهم وتبعهم يقتلهم ، ثم أنصرف الى القيروان •

ترعم أبو عبيدة حركة الأباضية السرية ، وأوجد مجتمعا متعاوننا متماسكا ، وكون جماعة تعمل فى سرية وكتمان على نشر المذهب الأباضى وأنشأ مدارس سرية لتعليم الدعاة وتوجيههم ، وهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بحملة العلم ، انتشروا فى بقاع العالم الاسلامى لنشر المذهب الأباضى ، وعرفوا بحملة العلم ، وقد وفقوا فى نشر المذهب الأباضى فى كثير من البلاد ، ومن بينها المغرب ، التى عرفت أفكار الخوارج منذ نشأتها • وأول من دعا للأباضية فى المغرب ، سلمة بن سعد الحضرمى فى أواخر القرن الأول الهجرى •

استقر سلمة بن سعد الحضرمى فى جبل نفوسة فى منطقة طرابلس وأخذ يدعو لمذهبه بين قبائل هواره البربرية التى كانت تسكن فى تلك المنطقة ، وكان سلمة شديد الحماس ، متفانيا فى نشر مذهبه ، مضحيا

في سبيل ذلك بالنفس والنفيس ، وقد استطاع هذا الداعي اقناع بعض مؤيديه المتحمسين للمذهب بالذهاب الى البصرة للتفقه بأصول الدعوة الأباضية على يد زعيم الحركة في البصرة الامام أبى عبيد مسلم بن أبى كريمة التميمي^(١) .

وبعد أن انتشرت الدعوة الأباضية في المغرب ، توافد الطلاب على البصرة لتلقى الدروس عن فلسفة المذهب ، ومن أبرز هؤلاء الطلاب عبد الرحمن بن رستم من القيروان ، ومكثوا في البصرة عدة سنوات يتعلمون علوم المذهب الأباضي في المدرسة السرية للأباضية هناك ، وعادوا الى بلادهم لنشر المذهب ، ودعاهم الامام بالرجوع اليه في كل ما أشكل عليهم من أصول المذهب وقد نشط هؤلاء الدعاة في نشر مذهبهم بين أهلهم من سكان المغرب ، وقاموا بتأسيس المدارس السرية على غرار مدرسة البصرة ، وتخرج على أيديهم عدد من الدعاة الأباضية المغاربة يسمون تلاميذ حملة العلم ، وأخلص الأساتذة والتلاميذ في نشر دعوتهم ، واستطاعوا بعد اشتباكات ومعارك متعددة مع الولاة العباسيين في المغرب ، أن يعلنوا امامة الظهور سنة ١٤٠ هـ ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري اماما عليهم ، وتمكن الأباضية بقيادة أبى الخطاب من الاستيلاء على طرابلس ، ومعظم بلاد المغرب الأدنى ، والقيروان خاصة أفريقية .

تصدى الولاة العباسيون للحركة الأباضية الناشئة ، ورأوا ضرورة القضاء عليها في مهدها ، فحاربهم الولاة العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ ، فقتل الامام الأباضي أبا الخطاب المعافري في معركة تاورغا سنة ١٤٤ هـ .

ويرى المؤرخون من الأباضية ما أن أبا الخطاب بعد انتصاره على ورفجومة وأهل القيروان الذين ناصروه طبق مبدأ الأباضية الذي

(١) عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية في شمال افريقية ج ١٧ .

ينص على أن أموال المخالفين ودماءهم حرام أخذها ، ولا يحل الا السلاح ، ومحاربة السلطان وجنده فقط ، لان المخالفين ليسوا مشركين ولكنهم كفار نعمة •

وآثر أبو الخطاب أن يرجع الى طرابلس ، ويتخذها عاصمة له ، فغادر القيروان بعد أن عين عليها ومن والاها من المدن عبد الرحمن ابن رستم الذى تلقى العلم معه فى مدرسة أبى عبيدة بالبصرة والذى سيصبح له شأن كبير فيما بعد عندما يؤسس دولة أباضية بالمغرب هو وأولاده قرابة المائة والخمسين سنة • ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كئب ، وأن يغذى المذهب الأباضى بالكثير من الأنصار والأتباع ، اذ رأى فى المغرب الأوسط امتداد يحمى الدولة الناشئة من طرابلس ويؤكد نظرية عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وقبيلة الماية البترية التى كانت تسكن فى هذا الاقليم •

لكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا فى القيروان ، وذلك لتطور الأحداث السياسية من جديد فى اقليم طرابلس • فبعد أن هزم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع ورفجومة وفد جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج ، وشكوا اليه تسلقهم على كرسى الامارة بالقيروان •

فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى على مصر وأفريقية • وسير من مصر جيشاً من المسودة بقيادة أبى الأحوص عمر بن الأحوص العجلى لاسترجاع المغرب وكان ذلك سنة ١٤٢ هـ فخرج اليه أبو الخطاب ، فالتقوا بمقداس على شاطئ البحر ، فانهزم أبو الأحوص وأصحابه ، وأحتوى أبو الخطاب على عسكرهم • ورجع أبو الأحوص الى مصر ، وأنصرف أبو الخطاب الى طرابلس • وكانت أفريقية كلها فى يديه •

ولم ينعم أبو الخطاب بالنصر الذى أحرزه ، اذ مالبث أن رأى

جيوش العباسيين قادمة الى المغرب لاستعادة نفوذها وسيطرتها عليه ،
ففى سنة ١٤٣ هـ اتصل بأبى الخطاب أن محمد بن الأشعث والى مصر
والذى عينه أبو جعفر المنصور كقائد الجيوش الى المغرب عازم على
مصاربته فخرج اليه أبو الخطاب فى زهاء مائتى ألف فمسكر بهم فى
أرض سرت ، واتصل ذلك بمحمد بن الأشعث • فسار اليه فى أربعين
ألفا ومعه الأغلب بن سالم التميمى ، فالتقوا بأبى الخطاب ، وكان قد
جمع أصحابه من كل ناحية ، ومضوا فى عدد عظيم ، فضاق ابن الأشعث
ذرا بقاء ابن الخطاب لما بلغه من كثرة جيوشه • وانهزم أبو الخطاب
ومن أسباب انهزامه حدوث انقسام فى جيشه ، حيث تنازعت زناتة
وهوارة بسبب قتل من زناتة ، فأتهمت الأخيرة أبا الخطاب بأنه يميل
الى هوارة واقتربت جماعة من المعسكر بسبب ذلك •

ويقول المؤرخون أن أبا الخطاب عندما وصل الى (تاورغا) من
أرض سرت وهى على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس هو وعسكره تأقت
نقوسهم الى الجهاد فى سبيل الله ، والتقى بابن الأشعث
وأشد القتال ، فكانت الرجال فى الميدان تتهدم كالحيطان ، ولم يبرح
أبو الخطاب وأصحابه حتى استشهدوا جميعا وكانوا فى أربعة عشر ألفا
أو أثنى عشر ألفا •

وكان مقتل أبى الخطاب وعامة من معه فى صفر : كما يروى ابن
الأكثير أو زبيح الأول كما يروى النويرى سنة أربعة وأربعين ومائة •
فاجتاز ابن الأشعث رأس أبى الخطاب وبعث به الى المنصور ببغداد •

- وعندما علم الأباضية بقتله هربوا الى الجبال ، ولجأوا الى
الحصون المنيعه والقلاع العالية ، ورجع عبد الرحمن بن رستم عامل
القيوان • عندما علم بالهزيمة بعدما انتهى الى مدينة قابس ، وكان فى
طريقه الى أبى الخطاب مع المدد الذى طلبه منه • وقبل أن يدخل
القيوان ، علم أن أهلها أوثقوا عاملها فى الحديد ، ولوا عليهم عمر بن
عثمان القرشى من المواليين للخلافة فأتجه الى تاهرت بالمغرب الأوسط
حيث جمع حوله الأباضية ، وأسس دولة هناك •

على كل حال — أثمرت اتصالات ابن رستم بأباضية المغرب الأوسط ، فأزروه في حصار عمر بن حفص بطبنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وكانت هزيمتهم في تهوده في نفس العام سببا في اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تجمع شمل أباضية المغرب ، وإنشاء مدينة تكون قسبة الدولة ومركزا للمذهب ، وكانت هذه الدولة اسلامية في قضائها ، عربية في معارفها ، بربرية في عصبيتها ، فارسية في ادارتها •

وأقام عبد الرحمن بن رستم بين قبائل لمالية ، واستقر رأى الأباضية على تنصيب عبد الرحمن بن رستم لما رأوا فيه غن حميد الخصال ومجيد الأعمال وقالوا (يا عبد الرحمن رضيك الامام أبو الخطاب في ابتدائنا ونحن الان نرضى بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمنا أنه لا يصلح أمرنا الا امام نلجأ اليه في أمورنا ونتحكم اليه في قضايانا فقال لهم ان اعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثلما شرط عليهم ، وقدموه على أنفسهم وألقوا اليه بأيديهم • ثم قالوا له لا بد لنا من امامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو وتكون مأوى ومقر لامامتنا وملجأ لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم • فأختاروا من أهل العلم والخبرة بالأرض جهساء ليرتادوا مكانا جيد الهواء كثير الحياة خصب الأرض ، قابلا للعمارة • مأمونا من العدو كما طاقوا أقطار تلك الجهات الى أن عثروا على المكان الذي بنيت فيه وهي في سفح جبل يقال له جزول • ولما أراودا بقاء المدينة أى تاهرت كانوا يبنون النهار كله ، فاذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة وتبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال • وكانت تاهرت القديمة موجودة قبل ذلك التاريخ فالمدينة القديمة ترجع الى العصر الرومانى ثم البيزنطى ولقد جاء ذكرها أيام الفتوح الاولى سنة ٦٢ هـ / ٦٨١ — ٦٨٢ م •

دخول عبد الرحمن بن رستم المغرب الاوسط وبناء مدينة تاهرت :

لما علم عبد الرحمن بن رستم بمقتل أبى الخطاب عبد الأعلى عبد السمح ، وجد أن من الاسلام له ولاتباعه النجاة الى المغرب الاوسط حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد انشاء دولة على المذهب الإباضى على نسق دولة أبى الخطاب فى طرابلس •

فخرج مستخفيا هو وأبنة عبد الوهاب وعبد لهما متوجهين الى أرض المغرب وليس معهم حمولة ولا مركوب غير فرس واحد فمات الفرس فى بعض الطريق فدفنوه مخافة أن يقتل أثرهم أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيطعم فيهم ، فسمى ذلك الموضع قبر الفرس ، ولما كانت المسافة الى لاية طسويلة والتي توجه اليها عبد الرحمن بن رستم لحلف قديم بينه وبينهم فقد كان من الطبيعى أن يحس عبد الرحمن ابن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته تعاون معه ابنه يحمله تارة ويحمله العبد تارة أخرى •

وأخترق شمال وادى سوف ، وسار الى سوفجج غاية المنعة والحصانة لصعوبة مرقاه •

وبهذا الجبل لحقه من طرابلس ستون شيخا من شيوخ الاباضية ، من أكابر العلماء وأهل رأى ، وتنازعت قبائل هواره ولواته ، ولما بالانضمام اليه ، والالتفاف حوله • ولما علم ابن الأشعث فى القيروان بتمكن ابن رستم من الفرار الى المغرب الاوسط أقبل مجدا فى طلبه فأخبر بانه فى جبل منيع فقصدته حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد أن خندق على عسكره مخافة أن يأتية ابن رستم وأصحابه ، فأطال المكث تحته ، وسئم جنده بعد أن فشئ بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر الى فك الحصار والعودة الى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله أن سوفجج لا يدخلها الا دارع ومدجج •

فانتقلوا بذلك الى تاهرت الحديثة وبقيلتها لواته وهوارة
ويعربها زواغة ويجوفيهها مطمامة وزناته ومكناسة وكانت الأرض
التي بنيت تكتنفها غابة ملتفة بالأشجار ، يسكنها أنواع من الوحوش
فاستأنسوا فاتفق على بنائها وكانت أرضا صالحة للزراعة
حيث تنبع فيها العيون الطبيعية ويجرى فيها نهر لا ينقطع ماؤه اسمه
نهر مينة وهو في قبليها ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى تاتش
ومن تاتش شرب أهلها وكانت هذه الأرض ملكا لقبوم
مستضعفين من مرانة وصنهاجة فساومهم عبد الرحمن على البيع فأبوا
فوافقهم على أن يؤدوا الخراج من الأسواق ويقول النفوسى في
روايته أنهم أمروا مناديا فنادى بأعلى صوته يا من بها من الوحوش
والسباع ان اخرجوا وارتحلوا فانا نريد عمارتها ونازلون بها ولكم أجل
ثلاثة أيام ولم تمر الاجل ولم يبق من تلك الوحوش شئ فأوقدوا
شجرها نارا ، ولما خمدت النار وتمت تنقية الأشجار . وصارت
صالحة للعمارة . شيدوا مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع
بلاطات وكان لهذا الجامع مصلى للجنائز . وبديهي أن يهتموا بتحسين
المدينة وحمايتها فأقاموا سورا حولها وجعلوا لها أبواب أربعة وهى باب
الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وأصبحت المدينة
الجديدة فى مأمن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها معسكر
عبد الرحمن وقيل معسكر المبارك .

ولقد أعجب بهذه المدينة جميع المؤرخين . النيعقوبى الذى كان
معاصرا لائمة بنى رستم يصفها بقوله : والمدينة العظمى مدينة تاهرت
جلييلة المقدار عظيمة الامر تسمى عراق الغرب ، بها أخلاط من الناس
تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلاح بن عبد الوهاب
ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسى .

امامة الامام عبد الرحمن بن رستم (١٦٠ - ١٦٨ هـ / ٧٧٦ - ٧٨٣ م) :

كان تأخير اعلان الدولة ومبايعة امامها دهاء كبير من عبد الرحمن ابن رستم وصحبه ، أنهم لو أعلنوها قبل أن ترسخ عروقتها ، ويستند جذعها ، وتتدخل في شبابها ، لجعلها العباسيون نصب أعينهم • فلربما حشدوا لها من الجيوش الكثيفة ما حشدوا لدولة أبي الخطاب فينقضون عليها ، ولكنهم تمهلوا ، فنظموا كل أمورهم في الداخل وحلوا كل المشاكل ، ووحدوا صفوفهم ، وبنوا عاصمتهم ، فبرزت شخصية الدولة وبدت سامقة في الوجود ، وأصبح في استطاعتها الوقوف في وجه العباسيين •

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته في العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياساتها الخارجية أو الداخلية وآثر بسياسة المهادنة في الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين ومائة في موادعة صاحب القيروان روح بن قبيصة بن الهلب فوادعه وانكسرت شوكة البربر واستكانوا وتمكن الاسلام من قلوبهم ، وفرض على البربر الضرائب الشرعية ، وصاهر بنى هدرار •

ولما أطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع في ارساء دعائمها • وكان عليه أن ييسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسي دعائمها • وييسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسي نظمها في الحكم والادارة •

وعكف عبد الرحمن على تنظيم وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عبقرية الفرس في الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الديني المذهبي على ما أتخذه من اجراءات في هذا الصدد فكانت دولته مستقرة

وسيرته حسنة وقضاته مختارة ، وبيوت أمواله ممتلئة
وأصحاب شرطته وعماله ، قائمون بما يجب ، وبفضل قدرته على
إيلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة (لم ينقم عليه أحد في
خصومة ولا حكومة ولم يكن على يديه افتراق •

وفي سنة ١٦٠ بويغ ابن رستم بالامامة بعد أن أرسى قواعد الدولة
ووطد أركانها بحيث أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وهاجر الى
تاهرت كثير من المشاركة والمغاربة والاندلسيين وقصدها التجار والكتاب
ورجال الصناعة والفن من سائر أنحاء العالم الاسلامي وكان لذلك أعظم
الآثر في اتساع عمرانها ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية •

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بقرب دنو أجله أقتدى بعمر بن
الخطاب فاختار سبعة من خيرة رجال دولته ممن يتوسم فيهم الزهد
والصلاح منهم مسعود الاندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن
رستم ، وعمران بن مروان الاندلسي ويزيد بن فندين ثم توفي
عبد الرحمن في سنة ١٧١ • ثم اجتمع المرشحون للامامة شهرا وانتهوا
الى اختيار عبد الوهاب ، وتمت مبايعته بالامامة • ولكن ابن فندين أحد
المرشحين للامامة عارض في امامته وأخذ يعمل على اشعال نار الفتنة
وأنكر امامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن في المسلمين من هو أعلم
منه ، وأدى ذلك الى حدوث انقسام مذهبي عند الاباضية الى نكارية
ووهابية ، ثم دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب ، ولكن المؤامرة
فشلت ، وقامت المعارك في المدينة بين أنصار كل من الفرقتين وانتهت
بمهيمنة النكارية ومصرع رئيسها ابن فندين •

ولما توفي الامام عبد الوهاب في سنة ٢١١ خلفه ابنه الامام أفلح •
وفي عهد أفلح ساد الأمن في البلاد ووصلت حضارة الرستميين الى ذروتها ،
وتوالى على الامامة بعده ولده أبو بكر ، ثم أبو اليقظان محمد ثم
أبو حاتم يوسف بن محمد وأخبرهم الامام اليقظان بن أبي اليقظان
محمد ، الذي انقرضت الدولة الرستمية على عهده •

وكان من الطبيعي أن تتوتر العلاقات السياسية بين الاغلبية
والرستميين ، اذ أن أمراء بنى الاغلب كانوا يمثلون الدولة العباسية كما
أنهم كانوا ينازعون الرستميين أملاكهم بطرابلس الغرب ، وفي مقابل
ذلك قامت بين الرستميين والامويين في الاندلس علاقات ودية ، لأن
العباسيين الذين كانوا يحاربون بنى أمية في الاندلس ، كانوا أيضا أعداء
للإباضية في تاهرت ، فقامت بين قرطبة وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت
السفن تتردد بين وهران والمرية . وكانت تاهرت تضم جالية كبيرة من
أهل الاندلس . وكان لافلح بن عبد الوهاب مع أمراء بنى أمية في
الاندلس مواصلة وأرتباط ومودة بها يودونه بالهدايا النفسية ويهاديهم
بمثلها ، وظلت العلاقات الودية مع الاندلس قائمة في عهد ابنه أبى اليفظان
محمد ، وكان أبو اليفظان لا يتخذ قرار الا بموافقة محمد بن عبد الرحمن
الأوسط .

وازدهرت الحياة العلمية في تاهرت ازدهارا كبيرا ، فقد كان
أئمة الدولة الرستمية علماء كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها وشاركوا
مشاركة فعالة في الحركة العلمية فكانوا يتولون التدريس في جامع
تاهرت ، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره برع في علوم الدين
واللغة والفلك وأقبل على التأليف ، وكان ابنه عبد الوهاب تواقا للعلم
محبا له وكان يبعث الأموال إلى العراق لشراء الكتب ولا يمل قراءتها .
واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي كانت تضم نصوا من ٣٠٠ ألف
مجلد وقد حرقت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين ومن حيث الحياة
الاقتصادية توسع الرستميون في الانتاج الزراعى يتوافر المياه وخصوبة
الارض وغزارة الامطار . والى جانب الثروة الزراعية اعتمد الرستميون
على التجارة البحرية مع الاندلس والبرية مع السودان وعانة وسجلماسة
والغرب الأقصى . وقد جنت الدولة الرستمية بسبب التجارة مكاسب
هائلة فازدهر العمران وأشرقت الحياة وتألفت ، وتعبدت
المباني والمنشآت وقد تبقى بعض آثار العمائر الرستمية في
الصحراء الجزائرية . حيث استقرت حتى اليوم بعض الاسرات
الإباضية .

ومن نظم الاباضية مجلس العزابة ، ويؤسس في كل مدينة أو منطقة ، يدين معظم سكانها بالمذهب الاباضى ، ولهذه الجماعة رئيس ينتخبونه من بين أعضائها ، ممن اشتهر بالسيرة الحسنة والعدل والغيرة على المذهب الاباضى ، وشؤون أفرادهم ، ومن بين هؤلاء الجماعة قضاة يحكمون في المنازعات التى قد تقع بين أفراد المذهب ، ومن بين هؤلاء شيوخ لتعليم أبناء المذهب ، فكانت^(١) مجالس العزابة تعقد في مقر سرى ، وكان أعضاء مجلس العزابة يستعملون في قراراتهم السرية ألفاظا غير معروفة للاحتفاظ بسرية المذهب .

ولمجلس العزابة مهام دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية مثل الاشراف على المساجد والجوامع ، وضمان تطبيق المذهب الاباضى وتعيين القضاة ، وتأليف الكتب ، وارسال الوعاظ الى تجمعات الاباضية لتفقيه الناس بأصول المذهب ، ومن مهام المجلس تنظيم العلاقات بين الاباضية في المدينة والاباضية في المناطق الأخرى سواء كانوا في شمال افريقية أو في زنجبار أو عمان ، وابرام الاتفاقيات مع الدول الاسلامية سواء في شمال افريقية أو في الدول الأخرى ، ويحرص المجلس على تكوين مجتمع اباضى يسوده المحبة والوئام ، وذلك عن طريق اللقاء الخطب والمواعظ واسداء النصائح والارشادات التى تدعو الناس الى التضامن والتمسك بالمذهب ، وكذلك مساعدة الاغنياء للفقراء حتى يخلو المجتمع الاباضى من الحقد والحسد ، ويحترم الاباضيون بعضهم بعضا ، وكان مشايخ الاباضية يراقبون الاسواق ، وينهون الناس عن الغش والربا وأنواع المعاملات التى لا يقرها الاسلام .

أنشأت مجالس العزابة في المناطق التى يدين فيها الناس بالمذهب الاباضى مدارس للتعليم داخلية خاصة بالقلاميذ الاباضية ، وذلك للمحافظة على المذهب .

ويرأس المدرسة الاباضية الشيخ ، وهو المسؤول الاول في المدرسة ،

(١) المصدر السابق .

ومن مهامه قبول الطلاب وتحديد المناهج وتعليم الطلاب ، والنظر في ادارة المدرسة وميزانيتها •

وقد حافظ نظام العزابة على وحدة الجماعة الاباضية وساهم في نشر اللغة العربية بين بعض القبائل البربرية وكان علماء الاباضية يرتحلون الى الحواضر العريقة لتعلم فنون اللغة العربية واتقانها ، وقد حرص مشايخ العزابة على نصح طلابهم بالترود بعلوم العربية واتقانها وذلك لفهم القرآن الكريم وعلوم التفسير والحديث وساهم شرط حفظ القرآن الكريم في مدارس العزابة على تعلم اللغة العربية •

وساهم شيوخ الحلقة وتلاميذهم الى جانب التجار الاباضية في نشر الاسلام في بعض البلاد الافريقية جنوب الصحراء ، ونشر الاسلام طبقا للمذهب الاباضى في بعض بلدان البربر ، كما ساهم هذا النظام في نشر التعليم بين أبناء المذهب الاباضى^(١) •

وقام شيوخ العزابة بنشاط كبير في تأليف الكتب التي تبحث في العلوم الاسلامية على المذهب الاباضى ونظام العزابه فيه من القسوة بحيث لا يترك للطالب فراغا ، كما عزل أتباع المذهب عن بقية اخوانهم من أصحاب المذاهب الاخرى بدعوى السرية والمحافظة على تراثهم وعدم كشف أسرارهم لمخالفهم خوفا من تعرضهم للاذى والعدوان ، بل كان شيوخ العزابة يمنعون طلابهم من قراءة كتب بقية المسلمين^(٢) حتى لا يضلوا •

دولة بني مدرار

كان أهل سـجلمانسة من مكاسبه يعتقدون مذهب الصفرية ، وتعلموه من مشايخ وفقهاء الخوارج الذين وفدوا على بلادهم ، وولوا عليهم سودانيا يسمى عيسى بن يزيد — من موالى العرب — ويلاحظ

(١) المصدر السابق ص ٩٣

(٢) المصدر السابق ص ٩٤

أن الصفرية والاباضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشارا في المغرب عقب الفتح العربي ، كما كانوا أكثر المذاهب تسامحا واعتدالا مع المخالفين لأذهبهم .

ومؤسس الدولة المديارية سوداني أسود اللون يسمى عيسى بن يزيد ، وأخذ يستأثر بالاموال في أواخر أيامه ، مما أثار معارضة مواطنيه ، وتصدى له زعيم المعارضة ويسمى أبو الخطاب الصفرى ، وقال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد : « السودان كلهم سراق حتى هذا » وأشار الى عيسى ، فأخذوه وشدوه وثاقا الى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل ، وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل في سنة ١٥٥ هـ

ويشير الأستاذ الدكتور محمود اسماعيل الى أن تقليد عيسى ابن يزيد الاسود ، امامة الصفرية ، كان مرتبطا بتفريق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى المقيمة والمستقرة في هذا الاقليم ، كما كانت هجرة مكناسة الى هذا الاقليم سببا في سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها للإمامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التي اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين أفراد بني مدرار المكناسين ، وبايعوا كبيرهم أبا القاسم سمكو بن واسول بن مصلان ابن أبى نزول ، وكان من أنصار عيسى بن يزيد ، وهو الذى دعا أهله الى طاعته ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته سنة ١٦٧ هـ ثم خلفه ابنه الياس ، ولكنهم خلعوا طاعته ، وعزلوه سنة ١٩٤ هـ ، وولوا مكانه اليسع بن أبى القاسم فلم يزل أميرا عليهم ، وشيّد سور سجلماسة ، وفي عهده قويت دولته الصفرية ، وأكمل بناء سجلماسة واختط القصور ، والدور ، والاسواق .

ولقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة في مكان حصين ، فأقاموها في موسطة الصحراء جنوبى تلمسان بعشرة مراحل ، وأسس الصفرية حصنا في وسط المدينة أسموه المعسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الامارة ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن .

فاتسع العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية ، وشيد لها سور وأربعة أبواب •

ومما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية في سجلماسة توفر الماء فيها الصادر من نهر ملوية ، وشقت فيها الترع وغرست أشجار النخيل والفاكهة ، فتحوّلت الحياة من الرعى والبدواة الى الزراعة والاستقرار ، وقد أغرى الازدهار الاقتصادي لسجلماسة الصفرية في أنحاء بلاد المغرب الى الرحيل اليها ، والاستقرار بها •

وتحسنت العلاقات بين الصفرية وبين الدولة الرستمية المجاورة وبزواج ابنه مدرار من ابنة عبد الرحمن بن رستم — أمير تاهرت — •

ولى مدرار حكم سجلماسة خلفا لأبيه سنة ٢٠٨ ولقبه المنتصر ، وطال أمر ولايته ، وكان لها ولدان يدعى كل منهما مأمونا ، أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى بقية ، فعرف ابنها بميمون بن بقية وكان المنتصر يفضل ابن الرستمية على أخيه حتى أنه عهد اليه بولاية العهد ، وكان ذلك انتصارا للأباضية سجلماسية ، ودخل الاخوان في صراع مرير ، استمر ثلاث سنوات ، ولم يستطع المنتصر انتهاء هذا الصراع لذلك خلع نفسه ، وعهد الى ابن الرستمية بعد طرده ابن بقية من سجلماسة ، وأغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية في سجلماسة ، لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيطرة الأباضية من ناحية أخرى ، فخلعوا ابن الرستمية ، وان كان قد رفض الامامة ، لذلك أعادوا أباء مدرارا الى الامامة •

لكن المنتصر أرسل الى ابنه ابن الرستمية يطلب منه العودة الى الحكم ، فخلعه تسيوخ الصفرية ، وولوا ابنه ميمون ابن بقية سنة ٢٢٩ هـ ، ولقبوه بالأمير ، وظل يحكم البلاد حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ ، وكان قد نفى

الى قرية سجلماسة ، وخلفه ابنه محمد ، وكان أباضيا وتوفي سنة
٢٧٠ هـ ، فخلفه اليسع بن المنتصر ، ووفد عليه عبيد الله المهدي وابنه ،
فزجها في السجن ، الى أن سار أبو عبد الله الشيعي ، فأفرج عنهما ،
ودخل مع أبي عبد الله الشيعي في معركة قتل فيها سنة ٢٩٦ هـ ودخلت
سجلماسة في حوزة الدولة الفاطمية الناصئة وبذلك سقطت الدولة الدرارية
سنة ٢٩٧ هـ .

الدولة الاسماعيلية الأولى

في اليمن

ترجم جعفر الصادق العلوي في أواخر العهد الأموي ، وهو الامام السادس عند طائفة الامامية ، وترى هذه الطائفة أن الامامة يجب أن تنحصر في أبناء علي الحسينيين ، وأنها لا تنتقل من أخ الى أخ بعد أن انتقلت من الحسن الى الحسين ، ولا تكون الا في الاعقاب ، وقد انقسم الامامية الى فرقتين بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، الامامية الموسوية والامامية الاسماعيلية . وسبب هذا الانقسام ما قيل من أن جعفر الصادق ، عزل ابنه الأكبر اسماعيل — صاحب الحق في الامامة من بعده — لأنه نسب اليه أموراً تقتنافي مع الدين ، وعهد الى ابنه موسى فرفض فريق من الامامية نقل الخلافة من اسماعيل الى موسى . وبذلك ظهرت فرقتان : الاسماعيلية والموسوية .

بايع الاسماعيلية محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بالامامة ، بعد وفاة اسماعيل في حياة أبيه ، ووفاته جعفر ، وظلت الامامة الاسماعيلية ، التي ترى أن الامامة لا تنتقل من أخ الى أخ ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السادس عندهم .

حرص الأئمة الاسماعيلية على نشر دعوتهم سرا ، خوفا من بطش بني العباس فكان محمد بن اسماعيل ينتقل في البلاد الاسلامية النائية ، خوفا من أن تلاحقه عيون بني العباس ، حتى استقر به المقام في قرية تدعى سملا بالقرب من جبل دماوند . وأطلق عليها فيما بعد — محمد آباد — .

استقر الامام عبد الله الرضى في سلمية — من أعمال حمص — وأصبحت دار هجرة للأئمة الاسماعيلية ، ولما توفي عبد الله ، تولى ابنه امامة الاسماعيلية .

وكان الدعاة ينبشون في أرجاء العالم الاسلامى يدعون الى المهدي المنتظر في سالميه ويبتسرون بقرب ظهوره ، ولما ولى الحسين بن أحمد الامامة خلفا لأبيه ، بذل كل جهد لنشر الدعوة الاسماعيلية في البلاد الاسلامية .

بث الاسماعيليون دعائهم في سائر أنحاء العالم الاسلامى لتحقيق حلمهم المنشود وهو اقامة دولة اسماعيلية ، ولجأوا الى الستر ، ورأى الدعاة في بلاد اليمن أرضا صالحة لنشر دعوتهم واقامه الدولة الفاطمية فيها ، نظرا لطبيعة البلاد الجبلية الوعرة وتضاريسها المعقدة ، وصعوبة سيطرة العباسيين عليها .

وكان الدعاة يلتقون بالشيعة المتحمسين في الكوفة ، ويقربون اليهم من يلتسمون فيه الكفاءة والمقدرة وقوة الشكيمة ونفاذ البصيرة . وممن قربوه اليهم ، أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوسب بن زادا الكوفي ، وهو من ولد عقيل ابن أبى طالب ، وكان متعمقا في دراسة علوم القرآن الكريم ، والفقه والحديث مخلصا لعقيدته الشيعية ، على مذهب الانبياء عشرين (١) .

وقد التقى بالامام القاسمى الحسين بن أحمد الذى تعرف على فضله وعلمه ، ولا يمكن قبول ما ذكره بعض المؤرخين مثل الحمادى اليمانى والجندى من أنه التقى بعبيد الله بن هيمون القداح أو بميمون القداح نفسه ، لأنهما قد توفيا قبل مولد ابن حوشب بكثير ، كما أن ابن حوشب ، لم يذكر أنه اتصل بأحد منهما ، وقال ان الامام الحسين بن أحمد كان يخصنى ويقربنى ، ويرمز بقرب الأمر ودنو العصر (١) .

(١) الاثنا عشرية يقولون ان الامامة بعد موسى الكاظم ، تنتقل الى ابيه على الرضا ثم الى اعدائه من بعده حتى الامام الثانى عشر ، وهو محمد المنتظر ابن الحسن العسكري بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ، وعرفت هذه الطائفة باسم الامامة الاثنا عشرية ، لانتظارهم امامهم الثانى عشر ، ويقال ان امامهم الثانى عشر دخل سردابا في مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ واختفى على اثر ذلك الاثنا عشرية ينتظرون عودته ليملأ الدنيا عدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا .

(التوثيقى : فرق الشيعة ص ٥٧ وما بعدها)

ومهما يكن من أمر فإن الامام الفاطمي لقن ابن حوشب^(١) أسرار الدعوة الفاطمية ووجهه الى بلاد اليمن ، وقال له : يا أبا قاسم • البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى ، والكعبة يمانيه ، وعهد اليه بأمر بت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن وأن يقتبأ الناس بأن نسمي الدولة الفاطمية ستظهر في اليمن^(٢) •

وفي نفس الوقت تعرف الدعاة الفاطميون على ، على بن الفضل الجيثساني — وهو يمانى من بنى جيسان — وكان تسييعيا اثنى عشرى ، وقد أدى فريضه الحج^(٣) • وسار في ركب حجيج العراق لزيارة قبر الحسين بن عالى ، وتأكد الدعاة من احلاصه في التسييع ، فقبوه اليهم ، وأقنعوه بالدخول في المذهب الاسماعيلى^(٤) • واتصل بالامام الاسماعيلى المستور — الحسين بن أحمد الذى اقتنع به ، ورأى ضرورة ضمه الى ابن حوشب والدعوة في بلاد اليمن ، لأنه يمانى يتعرف على طبيعة بلاده وأهلها^(٥) وجمع بينه وبين ابن حوشب ، ودعاها الى التعاون والتضامن في نشر الدعوة ، وقال لابن حوشب : « الى عدن عليها فاقصة ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ، ومنها تفترق دعائنا » وأمره أن يخلص للمذهب ، ويتخذ التأويل الذى هو من فلسفة التسييع ، ويقول بالظاهر والباطن^(٦) • « فما خلق الله من ظاهر الا وله باطن » ، ودعا

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٠ •

(٢) الحمادى البهائى : كشف اسرار الباطنية ص ٢٢ •

(٣) الجندى : أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص ٦٣ •

(٤) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٧ •

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الافكار ج ٣ ص ٢٧ •

(٦) استدلو على ما ذهبوا اليه بقوله تعالى : (وخروا لظاهر الائم وباطنه) — (وقل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) • فالظاهر ما ينظره الناس وعرفه الخاص والعام • وأما الباطن ملا يعرفه الا الا قليل • من ذلك قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) وجمع ما عليه الناس امثال مضروبة لمثولات وحجوبة • فأعرض للصلاة وما فيها وقف على باطنها ومعانيها ، فان العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه فمثلا (اقيموا الصلاة وآتوا وأنوا الزكاة) .. فالزكاة مفروضة في كل عام مرة وكذلك الصلاة •

الى العمل بالظاهر ، واخفاء الباطن ، ودعو الى ظهور المهدي من اليمن ، وأن يجند الرجال ويجمع الأموال ، ويظهر الصوم والصلاة والزهد ، ثم أوصاه خيرا بعلی بن الفضل ، وأوصى علی بن الفضل بأن يتف الى جانب أبی القاسم بن حوشب ، ويحسن صحبته •

وفي نهاية سنة ٣٦٧ هـ غادر الداعيان الاسماعيليان الكوفة ، وتوجها الى مكة المكرمة ، وأديا فريضة الحج ، وبعدها عادرا بلاد الحجاز منوجهين الى اليمن ، وبلغا غلافقة في مستهل عام ٣٦٨ هـ ، وكانت بنجر مدينة زبيد ، تقع على ساحل البحر الأحمر ، ثم افترق الداعيان ، بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ، ليتعرف أحواله (١) •

سار ابن حوشب في صحبة التجار قاصدا عدن لآعه ، ورحل معهم وقال أنا رجل من أهل العلم ، رغبت في الخروج معكم الى بلادكم ، ففرحوا به وقدروه وأكرموه ، وقالوا : نحن أحوج الى من يبصرنا بأمور ديننا ، ونحن نكفيك المونة ، وكان في الرحلة يسامرهم ، ويروي لهم عريب الأخبار ، فأحبوه وأصغوا اليه وأكرموه حتى قدموا لآعه ، فادعى مذهب السنة والجماعة فتسامع به الناس ، وأقبلوا اليه من كل ناحية ، وهو يظهر الزهد والورع (٢) •

وانتشر أمره ، وطار ذكره في البلاد ، حتى أيدته مغارب اليمن ، والتفوا حوله ، وولوه أمرهم ، وعهد الى الثقة العدول منهم بجمع الزكاة عن أموالهم طبقا للنريعة الاسلامية (٣) ، ولما استقر أمره في مغارب اليمن ، وأطاعه الناس ، وأخلصوا له ، ولم يعد يخشى من القوى المحلية في بلاد اليمن — وخصوصا بعد مقتل محمد بن جعفر ، واختلاف الحوالتين فيما بينهم — وطلب من أتباعه وأنصاره بناء حصن يدع فيه

(١) ابن فيص الله الهمداني . الصليحون والحركة الفاطمية في اليمن

(٢) الحمادي اليماني : كشف اسرار الباطنية في اليمن ص ٣٥ .

(٣) النسياني : قرّة العيون ص ١٨٢ .

الأموال التي تجمعت لديه ^(١) . ويتخذها معصما يعتصم به إذا هاجمه
عدو ، وقاعدة لشن الهجمات على أعدائه ، فبنوا له موطئا يقال
له عجز محرم ، وهو جبل تحت مسور ، وأقام في الحصن بعد بنائه هو
وأصحابه ونساؤهم وأولادهم ^(٢) .

استطاع حوشب من معقله التصدي لكل التحديات التي واجهته
وهزم صاحب صنعاء من بني يعفر — وبذلك ازدادت هيئته ، وقوى بأسه
وعظم أمره ، ودخل في طاعته من كان حوله طوعا أو كرها ، واتخذ الطبول
والرايات ^(٣) وهنا تخلص عن ادعائه المذهب السني ، وكشف للناس عن
حقيقة أمره ، وأظهر أنه داع اسماعيلي يدعو إلى المهدي المنتظر من آل
محمد ، فبايعه عامة الناس على المذهب الاسماعيلي ، وسيطر على
جميع مخاليف مغارب اليمن وعهد إلى ولاية من قبله بحكم البلاد التي
سيطر عليها وقمع كل المؤامرات التي تعرض لها ، واستولى على سبام ،
وغنم مغانم كثيرة من أموال بني يعفر ^(٤) ، وكتب إلى عبيد الله المهدي
سنة ٢٩٠ هـ يخبره بانتصاراته ودخول الكثير من البلدان اليمنية
الاسماعيلية ، وأوصى له بالهدايا النفيسة ^(٥) .

أما علي بن الفضل ، فبعد أن فارق ابن حوشب بخلافته ، قصد
سرو يافع ، ورأى أن أهلها سريعو التأثير بمذهبه ، فطلع رأس الجبل ،
وبنى فيه مسجدا ، وأظهر العبادة والورع والتقوى والزهد ، فكان
نهاره صائما وليله قائما ، فاجتذب بذلك قلوب الناس إليه ، وولوه أمرهم .
وسأله أن ينزل عن ذلك الجبل ، ويسكن بينهم ، ولكنه رفض وقال :
لا أفعل هذا ولا أسكن بين قوم جهال ضلال ، إلا أن يعطوني العهود
والمواثيق باتباع تعاليم الدين ، ونبذ ما نهى عنه الاسلام النخيف ،

(١) الشيباني :قرة العيون ص ١٨٤ .

(٢) الحادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٦ .

(٣) الشيباني :قرة العيون ص ١٨٩ .

(٤) الحادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٧ .

(٥) المغربي : أتعاظ الحنفا : ص ٦٨ — ٦٩ .

وينكرون المنكر ، ويأمرون بالمعروف (١) .

فاستجاب لعلی ، وأمرهم ببناء حصن سرو يافع (٢) وشن عدة حملات على لحج وأبين ، وهزم سلطانها أبا العلاء ، وأخلص له الجنود لأنه أظهر لهم أنه يجاهد أعداء الدين ، ورغبوا كذلك في الحصول على غنائم الحرب ، وما زال يواصل انتصاراته حتى دخلت قبيله مذحج وغيرها في طاعته ، ودخل المذيخرة سنة ٢٩٤ هـ واستولى على حصن المتعتر وعلى يحصب ، ودخل بنكت ، ودمرها ، ثم زحف الى صنعاء فلما بلغ عنس ، رأى ابن يعفر أن لا طاقه له بابن الفضل وجنده ، فخرج من صنعاء هاربا الى الجوف (٣) ، فدخل ابن الفضل صنعاء ، وسيطر عليها (٤) . وبذلك استطاع ابن حوشب وابن الفضل اخضاع معظم بلاد اليمن لسيطرتهم .

وقد أبدى الرجلان من التعاون وانتسيق ، ما جعلهما ينجحان في نشر الدعوة ، وكانت سياستهما واحدة ، فاتخذ كل منهما حصنا لحفظ المال والاحتواء به ، واتخاذ قاعدة للهجوم على أعدائه .

وقد نال ابن حوشب تقدير الامام الفاطمي ، ولقبه المنصور ، وبلغ من ثقته به أنه كلفه بنشر الدعوة في أرجاء بلاد الاسلام ، فكان يرسل الدعاة من قبله الى مصر واليامة والبحرين والهند والمغرب ، فضلا عن بلاد اليمن .

لم يكتف الامام محمد الحبيب بنشر الدعوة في بلاد اليمن ، بل عول على بثها في بلاد المغرب ، ذلك أن بلاد المغرب أرض صالحة لنشر المذاهب الاسماعيلية لأن أهلها عرفوا بمعارضتهم لبني العباس ، وعبروا عن ذلك بانضمامهم الى الأحزاب المعارضة كالخوارج والشيعة . لذلك أرسل

(١) الشيباني : قرة العيون ص ١٨٧ .

(٢) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٨ .

(٣) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٧ — ٢٨ .

(٤) الشيباني : قرة العيون ص ١٨٧ .

الامام الفاطمي أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا المعروف بالسيدي الى ابن حوشب وأمره بالدخول في طاعته ، وان يأخذ عنه تعاليم ومبادئ المذهب الاسماعيلي ، ويستفيد من تجاربه ، وبعدها يتجه الى المغرب لنشر الدعوة على غرار ابن حوشب في اليمن ، وهذا يدل على أن ابن حوشب أصبح من أكبر الدعاة الفاطميين في دار الاسلام .

ظل أبو عبد الله الشيعي في اليمن عند ابن حوشب يتلقى منه تعاليم الدعوة حتى توفي الداعيان الفاطميان في المغرب ، أبو سفيان والحلواني ، فأذن ابن حوشب لأبي عبد الله الشيعي بالتوجه الى المغرب ونشر الدعوة فيها (١) .

بذل أبو عبد الله الشيعي جهدا كبيرا في نشر المذهب الاسماعيلي في المغرب ، وبشر اهلها بقرب ظهور المهدي ، وظل على اتصال بالامام محمد الحبيب ، لما توفي خلفه ابنه عبيد الله المهدي أظهر له الطاعة والولاء ، وأرسل يبشره بنجاح الدعوة في المغرب ، بل أرسل اليه وفدا من كتامة يدعوه الى القدوم الى بلاد المغرب (٢) .

على أنه في نفس الوقت الذي كان يعتقد فيه رؤساء الدعوة الفاطمية في اليمن ، أن المهدي سيظهر في اليمن ، كان دعاة الاسماعيلية في المغرب يسعون أيضا الى ظهور الدولة الفاطمية في المغرب ، وأرسل رؤساء الدعوة في اليمن ، كما أرسل رؤساء الدعوة في المغرب الى عبيد الله يطلبون قدومه الى بلدهم (٣) .

لا علم للخليفة المكتفي بازدياد نشاط عبيد الله المهدي ودعائه ، بث عيونه في سلمية حتى يتمكن من المهدي ، فغادر المهدي سلمية

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) ابن الأمير : الكامل ج ٨ ص ٩٥ .

هو وحاشيته وأسرتة ومواليه ^(١) ، وأظهر للمقربين اليه أنه يريد اليمن، ولما بلغ مصر ، غير وجهته ، وسار الى المغرب بدلا من اليمن في وقت در منصور اليمن ، ابن حوشب — يستعد لاستقباله في اليمن •

تختلف الروايات التاريخية حول أسباب تغيير عبيد الله المهدي وجهته الى المغرب بدلا من اليمن • فيرى البعض ^(٢) أن المهدي علم بخروج ابن الفضل على ابن حوشب ، فكره أن يستقر في بلد منقسم على نفسه بين الدعاة وغير موحد وتسوده القلاقل والاضطرابات • ولكن هذا الكلام بعيد عن الحقيقة ، لأن ابن الفضل لم ينتقض على ابن حوشب ، الا بعد أن علم بتغيير وجهه نظر المهدي من اليمن الى المغرب فخلع طاعة المهدي وداعيه ، وارقد عن المذهب ، واستقل بالبلاد التي في حوزته •

ولا يبعد أن عبيد الله المهدي اعترم بعد خروجه من سليمة المذهب الى المغرب بدلا من اليمن ، وقد أغراه بذلك أبو عبد الله الشيعي وزين له أمر المقام فيها • أما اعلانه لخاصته ومواليه حين مغادرته سلمية بأنه ذاهب الى اليمن ، وغير وجهته من مصر الى المغرب ، فيتمشى مع ما جبل عليه الاسماعيليون من اظهار غير ما ييطنون ، كما حرص الامام الفاطمي على ألا يتسرب الخبر الى بنى العباس فيتعقبونه وينكلون به •

غضب الداعي فيروز — الذي كان في صحبة المهدي في رحلته من سلمية الى مصر — من تغيير المهدي وجهته الى المغرب بدلا من اليمن ، فتخلى عن صحبته ، ورحل مغاضبا الى اليمن ، وأكرم ابن حوشب وفادته ^(٣) ولما علم ابن حوشب بخروج فيروز على الامام، شرع في قتله ، غلجا

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٨ قس ٩٦ •

(٢) المقرئ : أتعاط الحنفا ص ٩٠ •

(٣) ابن المؤيد اليمني : انباء الزمن في اخبار اليمن ص ٣١ •

فيروز الى على بن الفضل ، الذي ثارت ثائثرته عندما علم بتغيير المهدي وجهته^(١) وخلع طاعته ، وارتد عن المذهب الاسماعيلي ، وكون لنفسه ملكا عريضا في ربوع اليمن ، حكمه بالقوة والعنف مستقلا عن الدولة الفاطمية ، واتخذ المذيخرة سنة ٢٩٤ هـ عاصمة لدولته^(٢) .

حاول منصور اليمن أن يعيد على بن الفضل الى سابق طاعته للامام عبيد الله المهدي ، لكن بن الفضل أكد لابن حوشب أنه يحذو حذو أبي سعيد الجنابي الذي استقل بالبحرين ، وكتب اليه يقول : « ان لي بابي سعيد الجنابي أسوة • وأنت ان لم تنزل وتدخل في طاعتي نابذتك الحرب » فكتب اليه منصور اليمن يعاتبه ، ويذكره بالعهود والمواثيق التي أخذها عليه الالمام ، كما حذره عاقبه الانقسام ، الأمر الذي سيكون له اثره في اضعاف الدعوة • وقال في كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيرا الا ببركة الدعاء اليه • وقد أعطينا من العهود ماقد علمته^(٣) . فأجابه ابن الفضل بقوله : « انما هذه الدنيا تساة ، ومن ظفر بها افترسها »^(٤) • وبذلك فنسلت جهود ابن حوشب في اعادة ابن الفضل الى المذهب الاسماعيلي ، ونشأ العداء بين الرجلين •

قاد ابن الفضل عشرة آلاف رجل لحرب ابن حوشب والتخلص منه ، حتى تصفوا له اليمن ، فدخل قرية شبام ، وخرج المنصور للقائه ، وحاصره المنصور ، وشدد عليه الحصار في جبل الحميمة ثمانية أشهر^(٥) ، حتى مل المقام ، وأرسل اليه المنصور ابنه ، فأكرمه ابن الفضل ، وبقي عنده مدة ، ثم أطلق سراحه^(٦) • وبذلك لم يستطع

-
- (١) الحمادي اليماني : اسرار الباطنية ص ٣٢ .
 - (٢) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ .
 - (٣) الحمادي اليماني : كشف اسرار الباطنية ص ٣٢ .
 - (٤) الشيباني : قرّة العيون ص ٢٠٢ .
 - (٥) المصدر السابق : ص ٢٠٥ .
 - (٦) زيارذ : أئمة اليمن ص ٣٣ .

المصور النيل من ابن الفصل ، وظل يحكم دولة كبيرة في اليمن • وكان
جبارا عاشما •

وأول من دعا الى المذهب الاسماعيلي بأفريقيه الحلواني وأبو
سفيان ، أنفذهما جعفر الصادق ، وقال لهما بالمغرب أرض بور فاذهبا
واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر ، فنزل الرجلان ببعض بلدان كتامة،
وبذلا جهودا مضنيه في نشر الدعوة الاسماعيلية، وكان الامام الاسماعيلي
محمد الحبيب ينزل بسلمية من أرض حمص ، وبعد هذا الامام محمد
الحبيب — كما قلنا — على بن الفضل وابن حوشب الى اليمن لنشر
الدعوة ، وفي غضون ذلك اتصل أبو عبد الله الشيعي بالامام الاسماعيلي،
فلاحظ فيه مواهب الداعي ، فأرسله الى ابن حوشب في اليمن ، ليتعلم
منه أصول المذهب ، وعلوم الظاهر والباطن ، وواجبات الدعاة وأسرار
الدعوة ، وبعد أن يتيقن ابن حوشب من تعلمه وتفقهه في الدعوة ، يرسله
الى المغرب ، ويقصد بلاد كتامة فيظهر بينهم الدعوة •

لزم أبو عبد الله الشيعي جانب ابن حوشب ، وشهد مجالسه
واستفاد من علمه ، ثم خرج مع حاج اليمن الى مكة ، فلقى رجالات
كتامة ورؤساءهم ، وجلس اليهم وسمعوا منه ، وألقى عليهم دروسا في
الدين والأدب ، وأعجبوا به خصوصا لما رأوا ما هو عليه من الزهد
والعبادة ، فأحبوه وأخلصوا له ، وتعلقوا به ، وصار يتعهدهم فرحالهم،
فاغتنبوا به ، واغتنب بهم ، ولما أرادوا الرحلة الى بلادهم ، سألوه
الصحة ، فوافقهم ، وحرص على أن يخفى حقيقة مذهبه عنهم •
واستطاع في رحلته معهم أن يعرف أحوال بلادهم السياسية والاجتماعية
والاقتصادية ، ولما بلغوا مصر تظاهر برغبته في الانصراف عنهم ولكنهم
آلحوا عليه ، وأصرروا على أن يصحبهم الى بلادهم •

وفي سنة ٢٨٨ هـ وصل وفد كتامة الى بلادهم في صحبة الداعي أبي
عبد الله الشيعي ، وأكرم أهل كتامة وفادة الداعي الاسماعيلي ، وكانت

الدعوة الاسماعيلية قد انتشرت بينهم من قبل بفضل الحلواني وأبو سفيان ، وكانا قد حرثا هذه البلاد ، كما انتشر التشيع من قبل في بلاد المغرب على يد الامام ادريس بن عبد الله الذي أقام أول دولة نسيجية في بلاد المغرب الأقصى بعد موقعة فخ ، التي قادها الثائر العلوي الحسين ابن علي بن الحسن بن علي ، وكان معروفاً بالعلم والتقوى والكمال ، ولكن العباسيين تصدوا له في ذي طوى بالقرب من مكة ، وقتل في مكان يقال له فخ على بعد ستة أميال من مكة •

ومما أدى الى سهولة مهمة أبي عبد الله النسيجي في المغرب انتشار التشيع بينهم ، بل اعتنق بعض وزراء الأغالبة في تونس المذهب الاسماعيلي •

تتنافس أهالي كتامه على اكرام وفادة أبي عبد الله الشيعي وبشرهم بقرب ظهور المهدي الذي سيصلح الدنيا ويعيد العدل ويمنع الظلم ويطمئنهم على حاضرهم ومستقبلهم ، ولم يلبث أن كنف أبو عبد الله الشيعي عن نواياه لأهل كتامه ، فقال لهم : أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني •

انتشرت وراجت الدعوة لآل البيت بين أهل كتامه وناظر أبو عبد الله الشيعي علماءهم ، ودعا للرضا من آل محمد ، وكانوا يسمونه بالشيعي أو المشرقي •

استخدم أبو عبد الله الشيعي التنبؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية البربر في هذه البلاد ، ويروى المؤرخون أن الشيعي لما نزل افريقية سأل أين فج الأخيار ؟ وهو جبل من جبال كتامه ولم يكونوا قد ذكروه له ، فدهشوا من سؤاله ، ودلوه عليه . فقال ما سمى الا بكم • ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن

الأوطان ، تنصره فيها الأخيـار قوم اسمهم مستق من الكنـمان
• أى كتامه)

كذلك استخدم الداعى السحر ، وصنع من الحيل والطلاسم والرقى
والأحجية ما أذهل العقول •

لما علم ابراهيم بن الأغلب — أمير افريقية — بأمر أبى عبد الله
الشيعى ، أنكر ذلك ، ورأى أن وجوده فى المغرب يشكل خطرا على
ملكه ، فبعث اليه بالتهديد والوعيد ، وتتبعه عمال الأغالبة ، فخشى رؤساء
كتامه عليه ، وأخفوه عن أعين الأغالبة •

أظهر الداعى أبو عبد الله الشيعى الولاء والطاعة للامام الاسماعيلى
— المستور — محمد الحبيب ، وكان يرسل اليه الهدايا وأخبار الدعوة فى
بلاد المغرب •

لم يكتف أبو عبد الله الشيعى بنشر الدعوة فى بلاد المغرب ، بل
حرص على بسط سيطرته ونفوذه على افريقية ، فأرسل رجاله الموالين
له الى بلدان افريقية ، فسقطت فى أيديهم الكثير من بلدان افريقية ،
وكانت دولة الأغالبة ، قد اعتراها الضعف والوهن ، وانتشر التشيع بين
كبار رجال الدولة ، وانقسم أفراد البيت على أنفسهم ، وفى خلال ذلك
هلك ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وقتل ابنه أبو العباس ، وقام
بالأمر ابنه زيادة الله ، وانتقل من تونس الى رقادة ، وانهمك فى
ملاذاته ، وانتشرت جيوش أبى عبد الله الشيعى فى البلاد ، وعلا أمره ،
وطار ذكره فى الآفاق ، وبشر الناس بقرب ظهور المهدي ، « فكان
كما قال » •

لم تنقطع الحرب بين زيادة الله الثالث والشيعة على الرغم من أن
وزراءه أيدوا دعوة الداعى الشيعى • وفى سنة ٢٩٦ هـ دارت واقعة
الاربس التى أدت الى زوال دولة الأغالبة بافريقية ، وامتد نفوذ
الفاطميين فى ذلك الوقت الى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا
مسيطرين تماما على أكثر بلدان المغرب الواقعة الى الغرب من مدينة
القيروان •

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن اسماعيل الامام عهد الى ابنه عبيد الله ، وقال له : أنت المهدي ، وتهاجر بعدى هجرة بعيدة ، وتلقى محنا شديدة . واتصل خبره بسائر دعااته في افريقيه واليمن ، وبعث اليه أبو عبد الله رجالا من كتامه يخبرونه بما فتح الله عليهم ، وأنهم في انتظاره وشاع خبره ، واتصل بالعباسيين ، فقتبعه الخليفة العباسي المكتفى ، وبث عيونه للملاحقة والقبض عليه وعلى أنصاره واحباط الدعوة الاسماعيلية ، واستطاعت الخلافة الكشف عن الموضع الذي يختفى فيه الامام ، لذلك رأى الامام الخروج من سلمية ، وفر هو وأنصاره ومواليه وأهله من أرض الشام ، الى العراق ، ثم لحق بمصر ، ومعه ابنه أبا القاسم غلاما حدثا معترضا للحاق بأبى عبد الله الشيعي ، والنزول بأرض المغرب ، وارتحل من القسطنطينية الى الاسكندرية ، ثم خرج من الاسكندرية في زى التجار ، وجاء كتاب الخليفة المكتفى الى عامله على مصر عيسى النوشري يأمره بملاحقة عبدالله المهدي والقبض عليه وعلى أنصاره واستطاع عيسى النوشري تتبع المهدي والقبض عليه ، لكن المهدي أغراه بالمال ، فأخلى سبيله ، وزعم الوالى للخليفة بأن الرجل الذي قبض عليه ليس المهدي ، ولكنه أحد التجار ، وبذلك استطاع المهدي الفرار من أعين العباسيين .

واصل عبيد الله المهدي زحفه الى بلاد المغرب ، فبلغ برقة ، ومنها الى طرابلس ، وتعرضت قافلته لهجمات قطاع الطرق ، ونهب اللصوص فيما نهبوا كتبها في الملاحم منقولة عن آبائه .

لما وصل عبيد الله المهدي الى طرابلس ، أرسل رسلا الى داعيه أبى عبد الله الشيعي ، يبلغه أنه في الطريق اليه ، ومن هؤلاء المرسل أبو العباس أخو أبو عبد الله الشيعي وجماعة من الكتاميين ، ولكن خبر هؤلاء المرسل بلغ زيادة الله وهو يسأل عنهم ، فقبض على أبى العباس ، ولم يستطع أن يعرف منه خبر عبيد الله المهدي ، والموضع الذي يقيم

فيه ، وطلب زيادة الله من عمله على طرابلس القبض على المهدي وعلى رفاقه ، ولكن المهدي كان قد غادر طرابلس متجها الى قسطنطينية ، ثم عدل عنها خشية على أبي العباس أخى الشيعي المعتقل في القيوان ، فذهب الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار ، فأكرم وفادته ، وأنزله في ضيافته غير أن زيادة الله أرسل الى اليسع يبلغه بأن الرجل الذي قدم اليه هو المهدي . لذلك قبض عايه اليسع ، وزجه في السجن .

واصل أبو عبد الله الشيعي انتصاراته في بلاد المغرب وسقطت في يده البلاد ، الواحدة تلو الأخرى ، وشاع عن الشيعي وفاؤه بالأمان ، فأمنه الناس ، وسار يريد رقاده فرأى زيادة الله أنه لا قبل له بالشيعي ، ففر من رقاده الى المشرق ونهبت قصوره ، ولجأ أهل رقادة الى القيوان وغيرها ودخل أبو عبد الله الشيعي رقاده ، وأعطى للناس أمانا على أموالهم وأنفسهم ، وأكرمهم ، ورحب به أهل رقادة والقيوان ، ودخل رقادة في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، ونزل في قصرها ، وأطلق سراح أخيه أبي العباس ، ونودي في الناس بالأمان ، وقسم الشيعي الدور في رقادة على أهل كتامه واستولى على أموال وأسلحة زيادة الله ، وحذف اسم الخليفة العباسي عن الخطبة وعن العملة .

كان لابد لأبي عبد الله الشيعي بعد أن أسقط دولة الأغالبة واستولى على عاصمتهم رقادة ، أن يطلق سراح الامام عبيد الله المهدي المعتقل في سجلماسة ، فاستخلف على افريقية أخاه أبا العباس ، اهتز المغرب لخروجه ، وفرت زناته من طريقه ، ثم دخلوا في طاعته ، وأرسل الى اليسع بن مدرار - صاحب سجلماسة - يخطب وده ، لكن اليسع قتل الرسل ، ولم يقبل صداقته ، بل خرج لمحاربته ، ولكنه لمس قوة أبي عبد الله الشيعي ، وكثرة جنده ، وقوة بأسه ، فهرب هو وأصحابه ، وخرج أهل البلد للقاء الشيعي ، وساروا في صحبته الى سجن المهدي وابنه ، وأفرجوا عنهما وباع للمهدي ومثنى مع رؤساء

القبائل بين أيديهما ، وهو يبكى من الفرح ، ويقول : هذا مولاكم .
ولنزل المهدي في مخيم ريثما يتخلص من اليسع بن مدرار ، وفعل
قتله ، وسار في صحبة المهدي الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ وبويع المهدي
البيعة العمة ، واستقام أمره وبث دعائه في الناس ، فرضوا الا قليلا ،
وقسم الأموال والجواري في رجال كتامه ، وأقطعهم الأعمال ، ودون
الدواوين ، وجبى الأموال ، وبعث العمال على البلاد .

اتخذ عبيد الله المهدي رقادة حاضرة لدولته سنة ٢٩٧ هـ وأمر بذكر
اسمه في الخطبة من منابر البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وبذلك
قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ، وتطورت بذلك نظرية الخلافة ،
فبعد أن كانت الخلافة وحدة واحدة لا تتجزأ ، صارت هناك خلافة
جديدة ثانية ، لا تعترف بخلافة بني العباس ، وتدعى أنها أحق
لانتسابها الى آل بيت رسول الله .

أرسل عبيد الله المهدي بعد اعلان خلافته ، عمالا الى الولايات
المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة ، وغيرهم من أهل المغرب الذين
أظهروا الولاء والطاعة للامام ، وأمر أبو عبد الله الشيعي بتوحيد
بلاد المغرب تحت سلطانه ، واستطاع أبو عبد الله الشيعي اخضاع
بعض بلدان المغرب الأوسط والأقصى ، وفي سنة ٢٩٨ هـ أخضع قبائل
زناته جنوبي بلاد كتامة ، فدانوا له بالولاء والطاعة .

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية مدينة بوجودها وقيامها
لجهود أبي عبد الله الشيعي ، الا أن المهدي تخلص منه ، ذلك لأنه
استاء من استبداد أبي عبد الله وأخيه أبي العباس بالأمر دونه ، ذلك
أن المهدي لما شعر بتحكم الشيعي في أمره ، نهاه عن مباشرة الناس ،
وقال : انه مفسد للهيبة ، وساعت العلاقات بين الأخوين من ناحية
والمهدي من ناحية أخرى ، حتى أن أبا عبد الله الشيعي أوهم الناس
أن عبيد الله ليس هو الامام المعصوم ، حتى أن رجلا من كتامه ، يعرف
يشبيخ المشايخ ، ذهب الى المهدي وقال له : جئنا بأية على أمرك ،

فقد شبكتنا فيك ، فقتله المهدي ، وحامت الشكوك حول امامة المهدي واتفق الكتاميون على قتله ، ولكن المهدي استقطب زعماءهم ، وأغراهم بالمال والمناصب ، وأرسل المهدي رجلا لقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ، وحينما هم الرجل بقتل الشيعي ، قال له : لا تفعل . فقال : الذي أمرتنا بطاعته ، أمرنا بقتلك ، ثم قتلها في سنة ٢٩٨ هـ .

استاء الكتاميون من مقتل أبي عبد الله الشيعي ، وثاروا على عبيد الله المهدي ، ولكن المهدي أخمد الفتنة ، ثم اشتبك الكتاميون مع أهل القيروان في معارك متعددة .

ولما استقام الأمر للمهدي بعد مقتل الشيعي ، وهذأت البلاد ، وتوقفت الفتنة ، عهد عبيد الله المهدي بولاية العهد لابنه أبي القاسم نزار ، وولى على برقة وما إليها حباسة بن يوسف ، وعهد إلى أخيه هروبه بولاية المغرب ، وفتح تاهرت .

لكن الكتامين لم ينسوا حادث مقتل أبي عبد الله الشيعي ونصبوا طفلا لقبوه المهدي ، وزعموا أنه المهدي ، وأن أبا عبد الله الشيعي لم يموت ، فأرسل عبيد الله المهدي ابنه أبا القاسم اليهم ، فصار بهم وقاتلهم ، وهزمهم ، وقتل الطفل ، وبذلك هذأت هذه الفتنة .

وفي سنة ٣٠٠ هـ ثار أهالي طرابلس على الحكم الجديد ، والدولة الجديدة ، ولكن أبا القاسم أخضعهم وفرض عليهم غرامة مالية كبيرة .

تطلع عبيد الله المهدي لفتح مصر لأنها قلب العالم الاسلامي ، ولقربها من الحرمين الشريفين ، ولوفرة خيراتها ، ولعدم ثقته باستمرار ولاء أهل المغرب له ، فأرسل حملة من أهل كتامة ، بقيادة أبي القاسم سنة ٣٠١ ، يدعمها أسطول في البحر بقيادة حباسة بن يوسف ، وامتلكت الحملة برقة ثم الاسكندرية والفيوم ، ولكن جيوش بني العباس تصدت لهذه الحملة ، وأجلتها عن مصر .

استاء المهدي من هزيمة حباسة ، فقتله ، وانتفض لذلك أخوه
عروبه في المغرب ، واجتمع اليه خلق كثير من كتامه والبربر ، ولكن
المهدي أخذ الفتنة ، كما قضى على فتنة في صقلية •

اعتزم المهدي بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصما
لأهل بيته ، لما كان يتوقعه على الديلة من الخوارج ، وخرج بنفسه
يرتاد موصعا لبنائها ، ومر بتونس وقرطاجنه حتى وقف على مكانها ،
جزيرة متصلة بالبر ، وتقع على بعد ستين ميلا جنوبي القيروان ،
واختط المهدي هذه المدينة ، وأسماها المهدية ، وجعلها دار ملكه ،
وحاضرة دولته ، وأدار بها سورا محكما ، وجعل لها أبوابا من الحديد ،
وابتداً ببنائها أواخر سنة ٣٠٣ هـ ، وجعل زنة كل باب ألف قنطار ،
وطوله ثلاثون شبرا ، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات ،
وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجري فيها من القنوات ،
وبنى المهدي في المهدية دارا للصناعة ، تسع أكثر من مائتي مركب ،
وشيد فيها الأسواق والقصور والدور ومخازن الطعام والسلاح
وصهاريج المياه ، ولما أتم بناء حاضرة دولته سنة ٣٠٦ هـ ، قال : اليوم
آمنت على الفاطميات ، يعنى بناته ، وفي سنة ٣٠٨ رحل اليها ، وأقام
فيها ، وراجت فيها التجارة ، وكان لكل طائفة من التجار سوق يمارسون
فيها نشاطهم التجاري ، ولأرباب الحرف شوارع معلومه ، يقيم فيها
أهل كل حرفة ، وقد انتقل الناس الى هذه المدينة الجديدة ، وأقاموا
فيها ، وشيدوا بها الدور والبيوت ، فعمرت ، وانتعشت فيها
التجارة •

أقام المهدي مدينة أخرى الى جوار حاضرتة ، يفصل عنها ميدانا
فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب ، وسماها زويلة ، نسبة الى إحدى
قبائل بلاد المغرب •

وفي سنة ٣٠٧ هـ أرسل المهدي ابنه أبا القاسم الى مصر لفتحها
لملك الاسكندرية ، والجيزة والاسمونين ، وكثيرا من بلدان الصعيد ،

وتكتب الى أهل مكة يطلب منهم الدخول في طاعته ، ولكنهم أبوا ، وكان مصير الحملة الفاطمية على مصر ، نفس مصير سابقتها ، حيث الحق جند بنى العباس بها الهزيمة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ أخضع عبيد الله المهدي الأدارسة في المغرب الأقصى بسلطانه ، وضم فاس الى حوزته ، وزالت دولة الأدارسة ، وأخضع قواد عبيد الله المهدي بنى مدرار حكام سجلماسة ، وقتلوا أميرها المدراري المكتاسي ، وتعددت الثورات في بلاد المغرب ضد الحكم للفاطمي ، فأرسل عبيد الله المهدي قاداته لاختضاع الثورات خصوصا الحركات المناوئة من قبل الخوارج الاباضية والصفرية . والخلاصة أن عبيد الله المهدي قضى سني حكمه في اخضاع الثورات المتعددة والمتفرقة في بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٢٢ هـ توفي عبيد الله المهدي ، وولى ابنه أبو القاسم محمد ، ولقب القاسم بأمر الله ، وكثر عليه الثوار وثار عليه بنواحي طرابلس ، ابن طالوت القوشى ، وزعم أنه ابن المهدي ، وحاصر طرابلس ، ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه وأخضع ثورة في فاس وفي الريف ، حتى خضعت هذه البلاد للدولة الفاطمية ، وشن عدة غزوات على بعض جزر البحر المتوسط وأرسل حملة الى مصر باعت بالفشل .

وفي عهد هذا الخليفة شهدت بلاد المغرب ثورة كبيرة ، أشعلها ضد الحكم الفاطمي ، أبو يزيد مخلد بن كيداد ، وهذه الثورة دافعها قومي ، ذلك أن أبا يزيد عبر عن مواطنيه البربر الذين أقاموا ملكا اسلاميا في الأندلس ، وفتحوا هذه البلاد بسيوفهم ودمائهم ، واستأثر العرب بالثروات والنفوذ دونهم ، ولم يجنوا ثمار كفاحهم ، وكذلك الحال في المغرب فقد رأى أبو يزيد مواطنيه البربر أقاموا الدولة الفاطمية في المغرب ، ولم يحصلوا على مكاسب من جهودهم ، فرأى ضرورة الثورة من أجل اقامة حكم وئاني من البربر ، وازالة كل حكم دخيل عن بلاد المغرب .

اعتنق أبو يزيد مذهب الخوارج الصفرية ، وسافر الى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان ، ولما صار الشيعي الى سجلماسة في طلب المهدي ، انتقل أبو يزيد الى نقيوس يعلم فيها وكان يدعو الى ما يدعو اليه الخوارج الصفرية من استباحة الأموال والنساء والخروج على السلطان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر سنة ٣١٠ هـ ، فكثر أتباعه ، ولما توفي المهدي خرج بناحية جبل أوراس ، وتلقب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر الخليفة الأموي بالاندلس ، فانضم اليه جمع غفير من البربر ، وهزم عامل باغاياه الفاطمي ، واستولى عليها ، ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها ، ثم ملك أربس ، وأحرقها ونهبها ، ودخلت في حوزته بعض البلدان التي يحتلها الفاطميون ، ولم يلبث أن اقترب من المهدية ، وشن عليها عدة غارات ، حتى هجرها أهلها الى البلاد المجاورة . وسار عسكره الى القيروان ، وامتلكوها سنة ٣٣٣ هـ ، وخرج اليه شيوخ القيروان فأمنهم ، ورمع النهب عنهم .

شاع الخراب والدمار في بلاد افريقيه من غارات أبي يزيد فبعث الفاتم الى رؤساء كتامه والقبائل والى زيري بن مناد - ملك صنهاجه - بالمسير الى المهدية لاختصاص الثوار .

ولم يلبث أن ضعف نفوذ أبي يزيد بسبب انضمام عدد كبير من البربر الى جيوش الفاطميين ، الأمر الذي اضطره الى مغادرته المهدية تاركا حلقه المؤن والعتاد ثم تقدم الى القيروان ، ووقع بأهلها الهزيمة سنة ٣٣٤ هـ .

وفي هذه السنة توفي الخليفة القائم ، بعد أن عهد الى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده ، وولى اسماعيل الخلافة ، وتلقب بالنصور ، وكتم موت أبيه بسبب اضطراب البلاد من جراء ثورة أبي يزيد ، فلم يلعب نفسه خليفه ، ولم ينقش اسمه على السكه ولم يذكر اسمه في الخطبة ولا البنود الى ان فرغ من أمر أبي يزيد .

وأى للنصور ضرورة التخلص من أبي يزيد ، واعادة الهدوء

والسكينة إلى البلاد ، فأرسل جيشا وأسطولا إلى سوسه لمحاصرة
أبى يزيد ، فانهزم أبو يزيد ، واستبيح معسكره ، ولحق بالقيروان ،
فمنعه أهلها من دخولها ، وطردوا عامله من بلدهم ودخل المنصور
القيروان ، أمن أهلها ، ودارت عدة حروب بين الخليفة وأبى يزيد
في مواضع متفرقة ، وهزم جند أبى زيد ، ومزقوا سر ممزق ، ومضى
أبو يزيد منهزما في قلة من جنده ، ودارت الحرب بين الفريقين في كل
موضع وفي كل ناحية ، حتى لجأ أبو يزيد إلى بعض القلاع ، ففتحها
الفاطيون عنوة ، وأضرموها فيها النيران ، وقتل أصحاب أبى يزيد في
كل ناحية ، وقبض على أبى يزيد ، ومات متأثرا بجراحه سنة ٣٣٦ هـ .

تدهورت الأحوال الاقتصادية في بلاد المغرب بسبب ثورة أبى
يزيد ، فانهارت الزراعة ، وتعطلت التجارة ، وكشفت هذه الثورة عن
مدى معارضة أهل المغرب للحكم الفاطمي واستعدادهم للاتصام إلى
الحركات المعارضة للدولة الفاطمية . وأخذ النفوذ الفاطمي ينضاع
منذ قيام هذه الثورة ، كما ابتدأت الحكومات المستقلة في الظهور في
المناطق الغربية من الدولة الفاطمية .

وفي سنة ٣٣٧ هـ شيد المنصور في الموقع الذي دارت فيه المعركة
التي أنهت حركة أبى يزيد على مقربة من القيروان مدينة سماها
المنصورية ، واتخذها حاضرة لدولته ، وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ،
الباب القبلى والبواب الشرقى وباب زويلة ، وباب كتنامه ، وباب
الفتوح ، وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب . وازدهرت
فيها التجارة والصناعة ، وعم فيها العمران ، وظلت حاضرة للدولة
الفاطمية ، حتى غادرها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى حاضرتة
الجديدة ، القاهرة سنة ٣٦٢ هـ .

وفي سنة ٣٤١ هـ توفي المنصور ، وخلفه ابنه معد ، ولقب بالمعز
لدين الله الفاطمي ، وحرص على توطيد النفوذ الفاطمي في بلاد
المغرب ، وقهر معارضيه ، فأرسل في سنة ٣٤٧ هـ قائده جوهر الصقلي

الى تاهرت ، فاستولى عليها ، ونكل بواليتها يعلى بن محمد الزناتى ،
الذى خلع طاعة الفاطميين وأعلن ولاءه للخليفة عبد الرحمن الأموى فى
الأندلس . وواصل جوهر زحفه الى البلاد المعارضة للحكم الفاطمى
فوصل الى سجلماسة ، وقد سيطر عليها ابن واسول الذى تلقب
بالسأكر بالله ، وخاطبه الناس بأمر المؤمنين ، ونقش اسمه على
العملة ، وقد استطاع جوهر مطاردته ، وهزيمته ، واسترد نفوذ
الفاطميين على سجلماسة .

واصل جوهر جهوده فى بسط السيطرة الفاطمية على بلدان
المغرب الأقصى حتى تم له ذلك باستثناء سبته وطنجه التى سيطر
عليهما الأمويون فى الأندلس وبذلك استرد الفاطميون سيطرتهم على
بلاد المغرب ، وان كان ذلك بصفة مؤقتة ، لأن المغاربة وان كانوا قد
خضعوا للحكم الفاطمى ، الا أنهم كانوا غير راضين عنه ومعارضين له ،
ويتحينون الفرص للثورة على هذا الحكم ، وقد انتهت الفرص بخد
انتقال المعز الى مصر .

الدولة الزييرية

لما اعتزم المغز لدين الله الفاطمي الرحيل الى مصر ، رأى ضرورة تولية أحد القادة الثقة افريقية والمغرب ، حتى يضمن استمرار ولاء هذه البلاد لحولته ، فعهد إلى بلكين بن زيوري بن مناد بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، وأسماه يوسف بدلا من بلكين ، وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة ، وأسند إليه قيادة الجيش والأسطول وإدارة الولايات ، وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحدا من أهل بيته ، وأوصاه بأن لا يسمح للأمويين بمد نفوذهم في بلاد المغرب ، وأن يحافظ على السيطرة الفاطمية والنفوذ الفاطمي في هذه البلاد .

اضطلع بلكين بالمهمة التي أسندت إليه ، فأخضع بلاد المغرب الأوسط ، وسيطر على سجلماسة ، وقضى على ثورة أهل قاهرت ، وأخضع جموع زناته في تلمسان ، وحاصر هذه البلدة حتى استسلمت له ، ولكنه لم يتوغل في المغرب بناء على أوامر الخليفة المعز ، ولم يلبث أن ضم إليه الخليفة ، طرابلس ، وعاد بلكين إلى محاربة زناته ، وفرت أمامه ، فملك فاس وسجلماسة والبلاد المجاورة ، وطرد منها عمال بني أمية الأندلسيين ، ثم غزا جموع زناته بسجلماسة ، وأوقع بهم ، وقبض على ابن خزر — أمين مغراوه ، وقتله .

استنجدت جموع زناته التي لجأت إلى سبته بالحاجب المنصور في الأندلس ، فأمدهم بجيش كبير ، ولكن بلكين تراجع عن القتال ، بعد أن هاله قوة جيش المنصور ، وانسحب إلى برغراطة ، وشغل بجهادهم ، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأتصار ، وأزال الدعوة الأموية ، والنفوذ الأموي من أنحاء المغرب ، وتفرق الزنانيون في الصحراء .

ولما توفى بلكين خلفه ابنه منصور ، فقام بأمر صنهاجة من بعد أبيه ، وفي سنة ٣٧٤ هـ أرسل جيشا الى المغرب الأقصى لاستعادة هذه البلاد من أيدي زناته ، الذين استولوا على سجلماسة وفاس ، ولكن زييري بن عطية المغراوي الملقب بالقرطاس — أمير فاس — هزم جيش منصور بن بلكين ، وتعددت غزوات الأمير منصور وحملاته على بلاد زناته في المغرب الأقصى ، وعلى فاس بالذات ، حتى أذعن زييري بن عطية — أمير فاس — وتخلي عن طاعته للأمويين في الأندلس . وفي سنة ٣٨٢ هـ ، وفد على المنصور في القيوان فأكرم وفادته ، وعفا عنه ، وولاه تاهرت .

خلف باديس أباه المنصور في حكم الدولة الزييرية ، وأرسل عدة حملات لقهر زناته ، ولكنها هزمت ، واضطربت بلاد المغرب ، وتعددت ثورات زناته ، وقطعوا الطرق فاضطربت التجارة ، وساءت أحوال البلاد الاقتصادية ولكن حماد — قائد الأمير الزييري — شن عدة هجمات على زناته سنة ٣٩٥ هـ ، وشق عصا الطاعة على سيده ، واستقل بما تحت يده من البلاد ، فسار اليه باديس ، لكنه توفى في معسكره ، فخلفه ابنه المعز ، فعاد حماد الى الثورة ، ودخل المسيلة ، فسار اليه المعز وهزمه ، واستسلم ، حينئذ نظم المعز بن باديس ادارة دولته ، وولى الولايات من يثق في اخلاصه ، وانقسمت الدولة الزييرية الى قسمين : دولة المنصور بن بلكين — صاحب القيوان ، ودولة آل حماد بن بلكين — أصحاب القلعة . ولكن المعز لم يقبل انفصال جزء من دولته فسار الى القلعة ، وحاصر حماد سنة ٤٣٣ هـ ، عدة سنين ، ثم ألق منها ، وعاد الى بلاده واستقر ملك المعز بالمريقية والقيوان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بالمريقية ، وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها وعظمت ثروتها ، وازداد دخلها ، وقهر زناته في معظم المعارك التي اشتبك فيها ، وقد رفض المعز المذهب الإسماعيلي ، اعتنق مذهب أهل السنة ، ولعن الشيعة وقتل من وجد منهم ، ونكل بدعاة الشيعة ، وقد استاء منه الخلفاء الفاطميون ،

وأرسلوا إليه يتوعدونه ، لكنه خلع طاعتهم ، وقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والسكة ، ودعا للخليفة العباسي القائم . وبذلك زال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب ، وعادت إلى حوزة الخلفاء العباسيين .

لما قطع المعز بن باديس الخطبة للمستنصر الفاطمي سنة ٤٤٠ هـ كتب إليه المستنصر يهدده ويتوعده ، فأرسل المستنصر بنى هلال إلى إفريقية ، وملكهم كل ما يفتحونه ، وبعث الحسين بن علي التازوري وزير الدولة الفاطمية في مصر — إلى المعز بن باديس « قد أرسلنا إليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فصولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

سار بنو هلال إلى برقة ، فوجدوها خالية ، لأن المعز قد أضعف أهلها ونسنت شملهم ، فاستوطن الهلاليون برقة ، ولكن المعز ارتاب في شأنهم ، وساء لهم ، العيث الذي أحدثوه في البلاد ، وسيطرتهم عليها ، وتخوف على ملكه منهم ، كما تخوف من سيطرتهم على النواحي الاقتصادية للبلاد ، الأمر الذي قد يهدد سلطانه عليها ، لذلك عهد إلى ثلاثين ألفا من أرقائه بالقضاء على بنى هلال ، واجلائهم عن إفريقية ، فملكوها سنة ٤٤٦ هـ فخرج كبار رجال بنى هلال إلى المعز بن باديس ، وطلبوا منه العفو والصفح ، فعفا عنهم ، ووصلهم ، وأجزل لهم العطايا . ولكنهم عادوا إلى العيث والفساد في الأرض ، ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية توقفت الزراعة ، والتجارة ، فعمى القحط والبلاء بالبلاد ، وإنهار المجتمع ، وهجر الفلاحون قرابهم ، وترك أصحاب الحرف أعمالهم ، فخرج اليهم المعز في جموعه من صنهاجة والسودان فيما لا يقل عن ثلاثين ألفا ، ولكن الهلاليين هزموا جنود المعز باديس ، وقتلوا الكثير منهم ، واستباحوهم وعاد المعز إلى القيوان مهزوما . وعاد إلى الاستيلاء معهم فهزموه مرة ثانية وثالثة ، وملكوا مدنية باجة ، وأمر المعز أهل القيوان ، بالانتقال إلى المهدية تجنباً لبطش

بنى هلال وويلاتهم ، وانتقلت أيدي العرب على القسيرون بالنهب والتخريب ، وعلى سائر الحصون والقرى •

وهاجر مع بنى هلال من مصر الى بلاد المغرب ، عرب بنى سليم ، وهم بطن من مضر ، وأكثرهم جموعا ، وكانت منازلهم بنجد ، وكان بنو سليم حتى عهد الخلافة العباسية ، سوكة بنى وفتنة ، حتى لقد أوصى أحد خلفائهم ابنه ، ألا يتزوج منهم ، وكانوا يغيرون على المدينة ، وتخرج الكتائب من بغداد اليهم ، وتوقع بهم ، وتحالفوا مع أمراء القرامطة من بنى طاهر أمراء البحرين ، وتغلبوا على البحرين بعد انقراض أمر القرامطة ، وظلوا بها معتنقين لمذهب الشيعة ، فطردوا عنها ، فهاجروا الى صعيد مصر ، وأذن لهم الخليفة المستنصر بالهجرة الى افريقيه ، لمحاربة المعز بن باديس ، واقاموا مع الهلالين في برقة وجهات طرابلس ، ثم صاروا الى افريقيه •

نعود الى المعز بن باديس ، فقد هاجمته القبائل العربية — كما رأينا — حتى اضطر الى الانسحاب الى المهديّة ، وسقطت بلاد دولته الواحدة تلو الأخرى في أيدي العرب الهلاليه وعرب بنى سليم ، وقضى السنوات الأخيرة من حكمه في المهديّة التي لم يبق له من ملكه سواها حتى توفي سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م ، وحلفه ابنه نعيم الذي حكم المهديّة وبعض البلاد المجاورة لها •

ويعتبر عهد تميم بن المعز يداهي النهاية للدولة الزييرية ، وتقاسم ملك آل زييرى الهلاليون وبعض زعماء زناته وصنهاجه ، يحكم كل قائد بلدا صغيرا ، الأمر الذي فتت وحدة البلاد ، وأساء الى اوضاعها الاقتصادية وأضعف من قوه المجتمع في افريقيه ومن تماسكه وادي ذلك في النهاية الى انهيار اجتماعي حطير في افريقيه •

وفي سنة ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م استرد روجر الأول النورمندى جزيرة صقلية بعد جهود حربية قليلة ، وانسحب آخر المدافعين عنها ،

وهو أبو الحواس بأهله وماله الى افريقية ، ولم تلبث قصريانة أن سقطت في أيدي النورماندين • وفي سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩٢ م سقطت بلرم — آخر معاقل المسلمين في صقلية — وبذلك زال الحكم الاسلامي من صقلية ، وزالت دولة الاسلام ، وانطلقاً نوره عن هذه الديار •

وقد قاوم تميم بن المعز النورماندي ولكن دون جدوى وأصبح النورمان يشككون خطراً جسيماً على المهدية نفسها ، فاستتجد على ابن تميم بالرابطين ، ورفعوا الخطر عن المهدية ، وغزوا صقلية ، وبعد انصراف الرابطين عنها ، جمع روجر أسطولاً ضخماً ، وشن عدة غارات على المهدية ، وعجز الحسن بن علي بن تميم عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهدية سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م وكذلك كل مدن الساحل الاقريقي وطرابلس في يد النورمان • ولكن الموحدين أنقذوا هذه البلاد ، واستردوها من أيدي النورمان •

ويجدر بنا أن نشير الى ملحمة أبي زيد الهلالي فنقول أن بنى هلال لما هاجروا الى المغرب ، دارت بينهم وبين الزناتيين معارك متعددة ، وكان الهلاليون يرسلون بأخبار هذه المعارك الى بنى جلدتهم في مصر ، فينظمها شعراؤهم في صورة قصص شعبي عربي مصري ، عرفت فيما بعد بقصة الهلالية ، وبطل القصة يسمى أبو زيد الهلالي أما خصمه ، فيسمى خليفه الزناني أو الزناتى خليفه • وهذه الملحمة تعتبر من أبرز الأسعار الشعبية العربية ، وتمتاز بطابع شعبي حالص ، يجعلها في الادب الشعبي المرموق •

ويرى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأن قصة بنى هلال في الادب تختلف عن وقائع التاريخ تماماً ، فالقصة الأدبية تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال أحبت فتى من أقاربها ، وأراد الزواج منها ، فرفض أهلها زواجه من ابنتهم بعد تمامه ، واحتالوا على حبيبها ونقلوها الى مكان بعيد في المغرب ، وزوجوها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقاً بعشيقها ، ولم ينس الفتى محبوبته ، وتنتهى القصة بموت الفتاة كمداً لحربائها من عشيقها ، وموت الفتى حزناً على فراق حبيبته له •

وتجدر بنا الإشارة تفصيلا عن سيرة بنى هلال في المغرب فنلاحظ أنهم نسوا خلافتهم في هذه البلاد ، وتحالف القيسية واليمينية بعد طول خصام ، ويقدم السلطان حسن بن سرحان على الزواج من أخت دياب ابن غانم وتدعى « نائلة » ويتعهد السلطان حسن لشيخ اليمينية دياب ابن غانم على أن يزوجه أخته نوربارق التي سميت بالغازية أو الجازية وأصبح لها دور كبير في تدبير أمور بنى هلال ، ورثته من أمها .

وحدثت عدة حروب قبلية ، أنهت بهجرة بنى هلال الى المغرب - كما أشرنا من قبل - ولعب بنو هلال دورا كبيرا في تعريب بلاد المغرب ونشر الاسلام بين البربر .

وعن هذا الدور الهلالي نتحدث السيرة عن قحط شمل الجزيرة العربية ، وتسبب في هجرة الهلالية الى بلاد المغرب حيث الخصب والزرع ، وقادهم أبو زيد الهلالي ، مصطحبا الأمراء الثلاثة أبناء السلطان حسن بن سرحان ، مرعى ويونس ويحيى الى تونس ، ولكن حاكم هذه البلاد ، الزناتى خليفة خشى على ملكه من هؤلاء الهلالية ، وأوجس منهم خيفة ، فقبض على الأمراء الثلاثة ، وزجهم فى السجن . ولم يلبث أن أطلق سراح أبى زيد ، وعاد الى نجد ، وعقد العزم على غزو تونس ، وفك أسر الأمراء الثلاثة .

وسار أبو زيد الهلالي على رأس جيشه من بنى هلال وحلفائهم وأصطحبت الجازية الجيش ، وكانت فى مقدمته ، وكان لهذه الجيوش بطولات فى صعيد مصر ، ولما بلغت تونس ، وضع لها أبو زيد الهلالي خططا حربية ناجحة ، فهو يضلل الجواسيس تارة ، ويستولى على عيون الماء تارة أخرى ، وأثار جيش الهلالية الرعب فى نفوس الزناتى وجنده ، واستخدم أبو زيد الهلالي النساء كثيرا فى أعمال السلب والنهب داخل بلاد العدو لالقاء الذعر فى قلوب أهل البلاد ، والتمهيد لدخول الهلالية بلادهم ، وكانت الجازية تدبر هذه الخطط ، وتقود النساء الى تنفيذها . وتواصل السيرة الهلالية حديثها عن بطولة الجازية ، التى

تمكنت من إطلاق سراح مرعى ويونس ، ولم يلبث أن لقي الزناتى مصرعه بمؤامرة دبرتها ابنته سهدة التى وقعت فى حب مرعى عندما كان فى سجن أبيها ، فهى التى أشارت على الهلالية بارسال دياب الى أبيها ومحاربتة ، لأن دياب أقدر الفرسان على التعرض لخليفة •

وبذلك تغلب الهلالية على الزناتى خليفة ، ويكنى أبا سعدى وكان فارسا شجاعا ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان ياتمر بأمره أقبال ذوو بأس شديد ، وتحدثنا السيرة أن الهلالية دخلوا فى حرب ضارية ، قتل فيها الكثير من الطرفين ، وقتل زناتى عددا كبيرا من صناديد العرب وشجعانهم ، واستمرت الوقائع سجالا ، والفرسان يتساقطون زرافات ووحدانا وانتهت المعارك بانتصار الهلالية بعد أن قتل دياب زناتى خليفة ، وتفرق جنده ، ولانوا بالفرار ، وتم فتح تونس ، وجلس دياب على عرشها ، ولبس تاجها ، وعلق رمحه على بابها ، وأمر العرب أن يهروا تحته ، اشارة الى تملكه عليهم • وثار به بنو هلال ، وكادوا يقتلونه (١) •

وواصل العرب تقدمهم فى بلاد المغرب ، ولكن عادت الصراعات التقليدية بينهم ، واشتد العداء بين القيسية واليمنية • ولكن ظل العرب رغم ذلك يواصلون زحفهم فى بلاد المغرب حتى بلغوا الأندلس •

ويمكن القول بأن هذه الجموع العربية أدت دورا كبيرا فى نشر الاسلام واللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب • وبعبارة أخرى أحدثت تغيرا كبيرا فى البنىء الاجتماعى لشعوب المغرب ، وحولته الى مجتمع عربى لغة ودينا وثقافة •

الفصل الخامس

الخلافة الأموية

بالأندلس

(٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٩ - ١٠٣١ م)

- ١ - الخليفة عبد الرحمن الثالث - الناصر لدين الله •
- ٢ - الخليفة الحاكم الثاني - المستنصر بالله •
- ٣ - الخليفة هشام الثاني - المؤيد بالله والدولة الحامرية •
- ٤ - الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر •
- ٥ - أبناء المنصور نهاية الدولة الحامرية •

عبد الرحمن الناصر

٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦٢ م

الانتقال من عصر الأمير عبد الله الى عصر عبد الرحمن الناصر يمثل بالفعل نقلة كبيرة من عصر الى عصر ، ومن فترة الى أخرى تختلف كل منهما عن الأخرى تمام الاختلاف ، وهذا الاختلاف هو تباين بين حكمين وعين عهدين كل منهما يتميز بصفة خاصة وكل منهما له خصائصه وسماته . ذلك أن الأمير عبد الله كان حاكما عاديا من حكام الأندلس ، أما عبد الرحمن الناصر فقد نهض ببلاده نهضة شاملة ، وحول الامارة الى خلافة ، وتمتع بحب شعبه واحترام أعدائه ومنافسيه .

حكم عبد الرحمن حوالي نصف قرن ، وطول العمر بالنسبة للحكام قد يتيح لهم الفرصة الكافية لاصلاح أحوال البلاد .

وعبد الرحمن حفيد سلفه الأمير عبد الله ، وقد عهد عبد الله لحفيده عبد الرحمن ، ولم يعهد لأحد من أبنائه ، ذلك أنه قتل ابنه محمد والد عبد الرحمن بعد أن وجه اليه تهمة التآمر ضده وضد نظام حكمه . ويبدو أن الأمير عبد الله ندم على قتل ابنه ، وشعر بتأنيب الضمير بفليس من "هين على قابوب الآباء موت الأبناء بل التسبب في موتهم — ولقد دفع هذا الندم الأمير على تكريم ابنه عبد الرحمن ، والمبالغة في هذا تكريم ، ففضله على أبنائه وأحفاده ، ودفعته عقدة الذنب ، الى عهد لحفيده عبد الرحمن بالحكم من بعده متخطيا أبنائه ، ولما توفي عبد الله بايع أهل البيت الأموي والشعب عبد الرحمن ، ولم ينازعه في ذلك منازع . ويبدو أن اضطراب بلاد الأندلس ، وكثرة الفتن والثورات بها . جعلت الحكم محفوفا بالمكاره وأصبحت مهمة حاكم الأندلس شاقة ، لا تدعو الى المنافسة ، ولا يتطلع اليها أحد . وعلى أمير الأندلس أن يواجه متاعب داخلية وخارجية للتغلب عليها من الأمور العسيرة . أي أن أمير عبد الله ترك تركة لا يحسد عليها .

سياسة عبد الرحمن التامر الداخلية

وجد الأمير عبد الرحمن أرض الأندلس مضطربة كل الاضطراب ، فبدأ عهده بمحاولة فرض الوحدة على بلاد الأندلس ، وذلك بتأديب العصاة ، والقضاء على الفتن والثورات . واعادة الهدوء والاستقرار الى البلاد ، والعودة بدولة الأندلس الى سابق قوتها ، فاتبع سياسة الترغيب والترهيب ، والشدّة واللين ، فأنفذ الكتب الى العمال في جميع كور الأندلس ، يطالبهم بالطاعة والولاء ونبذ الخلاف والشقاق بمبايعة أمير قرطبة ، والخضوع لحكومتها ، وبدأ باصدار منشور أرسله الى كل أمير أو ملك من هؤلاء المتغلبين على النواحي ، وفيه يعد ويتوعد ويحذر فالرجل الذي يقدم ولاءه للحاكم الشرعي ، فانه سيكون من المقربين وسيحقق له ما يريد من مال وسلطان تحت راية الأمانة المركزية ومن لم يفعل فينذر به حرب مدمرة لا تبقى ولا تذر ، فكان يرسل جيوشه الى الناحية ، ومع قائده خطاب الأمان للمتغلب اذا تخاضع عن الحرب ، وأقلع عن العناد ، فاذا رفض قائد الناحية الأمان ، لقنه جيش عبد الرحمن درسا قاسيا ، ويفرض الجيش عليه وعلى ناحيته الاستسلام . أما اذا وافق القائد على الصلح أعطاه الأمان ، ونقله هو وعائلته وأهله ومواليه الى قرطبة ، حيث يكفل لهم بها رغد العيش ، ينزله بمنازل تليق به ، ويعقد عليه من الرواتب ، ما يجعله يعيش وأهله في رخاء واطمئنان .

وعرف عن عبد الرحمن الوفاء بوعوده ، لذلك اطمأن له الأمراء في النواحي والقادة . ومن هنا نرى كيف استطاع عبد الرحمن أن يتغلب على هؤلاء الأمراء ، الذين قضوا السنوات الطوال في حروب ، يستسلمون واحدا بعد واحد ، ويقبلون الى قرطبة ، حيث يعيشون في أمن وعزه ، على أننا لا ننكر أن الأمير عبد الله قد عهد لحفيده عبد الرحمن أمر اضعاف هؤلاء الأمراء وانهاك قواها .

وكان أشد الأمراء عنادا بنى الحجاج في اشبيلية وبنى حفصون

في بيشتر ، أما بنو الحجاج فقد استطاع عبد الرحمن أن يجتذب منهم اليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، الذي ولى اشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، ثم أذعن له محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونية ، واستعمل عليها أنصار سعيد ابن المنذر فهدم سور اشبيلية حتى لا يتمكن الثوار من التحصن بداخلها ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة ، وحصنه بسور من الحجر .

والخصم العنيد الذي أشرنا اليه سابقا ، وهو ابن حفصون ، لما ضعف عمر بن حفصون بعد اعتناقه النصرانية ، تظاهر بالانضمام الى عبد الرحمن بن محمد حتى وفاته سنة ٣٠٢ هـ ، وخلفه ابنه جعفر الذي ذهب مذهب أبيه في العناد والفساد ، فسير اليه عبد الرحمن جيشا سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى في طريقه اليها على حصن دوس أمائنس ، وحاصر حصن بلدة من حصون رية ، ودخل المدينة . وفي عام ٣٠٧ هـ ، افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين من أعمال ابن حفصون واستأمن صاحبه عبد الرحمن بن عمر بن حفصون داخل حصن بيشتر ، فخلفه أخوه سليمان ، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسأله الأمير ، فلما قوى أمر سليمان ، نكث عهده ، وشن الغارات على قرطبة ، ودخل مدينة المنكب عنوة ، وقتل جميع سكانها وظل يشن الغارات على قرطبة ونواحيها ، ويشكل خطرا على دولة الأمويين في الأندلس ، حتى قتل سنة ٣١٤ هـ ، فخلفه أخوه حفص في قلعة بيشتر ، ولما لم يجد هذا الأمير فائدة من التمداد في العصيان ، استسلم للأمير عبد الرحمن ، وأسلم الحصن وبذلك قضى الأمير عبد الرحمن على أخطر الخارجين عليه ، وهم آل حفصون .

وهكذا أعاد الأمير عبد الرحمن الى أسبانيا وحدتها وقضى على كل الحركات الانفصالية التي هدت كيائها ، وجمع شمل الأندلس تحت راية واحدة ، الأمر الذي جعل حكومة قرطبة قوية مهابة أمام أعدائها في الداخل والخارج .

تحويل الامارة الى خلافة

بعد أن أخضع الأمير عبد الرحمن الأندلس ووحدها تحت سلطانه رأى أن يعلن نفسه خليفة ، وياقب بأمر المؤمنين بدلا من لقب أمير الذي ورثه عن أسلافه الأمراء الأمويين ، فأصدر منشوره في ٢ ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ الى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ، وردودها علينا كذك . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومقسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعننا ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الحطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله » وأمر الناصر لدين الله بآثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين في أعلامه وطراره ودنانيره ودراهمه ، ونفذ الأمر بذلك » .

وهكذا تحولت الامارة الأندلسية الى خلافة ، واستمر خلفاء عبد الرحمن الناصر يلقبون بلقب خليفة ، حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م .

رايتم أن الأمراء الأمويين — قبل الناصر — كانوا يلقبون بأبناء الخلفاء أو الأمراء ، ولم يجز واحد منهم على التلقب بلقب خليفة على الرغم من العداء الشديد بين الامارة الأموية ، والدولة العباسية ، وعدم اعتراف الأولى بالثانية ، ذلك أن مفهوم الخلافة عند المسلمين في ذلك العصر ، أنها وحدة لا تتجزأ ، وأن الخليفة ، هو حامى حمى الحرمين ، والمسيطر على الحجاز أهل العرب والملة . ولكن بمرور الوقت أفقى علماء الأندلس بجواز تجزئة الخلافة الى أكثر من واحدة ، بحيث يكون بينهما مسافات شاسعة ، منعا للحروب بين الخلفتين ، وذكر بعض المؤرخين أن الأندلسيين أنفسهم طلبوا من عبد الرحمن ، اعلان نفسه خليفة ، ولقبوه الناصر لدين الله . وبذلك تكيف نظرية الخلافة السنية تكيفا جديدا ، تبعا للواقع والضرورة السياسية ومصلحة المسلمين .

ونستطيع ان نجمل أسباب اعلان عبد الرحمن نفسه خليفه في نقاط منها ، ان اخلافه العباسيه قد ضعفت في العصر العباسي الثاني ، بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، وعدم مقدرة الخلفاء على السيطرة على بلدان الدولة ، وضعف نفوذهم وسلطانهم . وفي نفس الوقت قامت الخلافة الفاطمية في المغرب ، وهي خلافة علوية لا تعترف بالعباسيين ، وتري أن الخلافة يجب أن تنحصر في آل بيت رسول الله ، وانخلفاء الفاطميون هم أول من جزأوا الخلافة ، وشجعوا الأمويين على اعلان الخلافة في الأندلس ، وكان لابد لعبد الرحمن أن يعلن نفسه خليفه لمواجهة خطر الخلافة الفاطمية في المغرب على دولته ، وبعد أن شهدت الأندلس الانقسامات واغتنن الداخلية ، كان لابد لحكومة قرطبة من أن تحول الاماره الى خلافة ، حتى يكتسب حكمه هبة دينية وسياسية أمام رعاياه ، وتضمن على الدولة قوة ومهابة .

ونضيف الى ذلك ما سبق القول من أن أهل الأندلس قد طلبوا من الأمير عبد الرحمن اعلان نفسه خايفة .

مهما يكن من أمر فقد قامت الخلافة الأموية في الأندلس وهي تستند الى السياسة أولا ثم الدين ثانيا ، وتتبع قاعدة الوراثة في الحكم بمختلف في ذلك عن نظام الخلافة في الاسلام أيام الراشدين الذي يتبع قواعد الشورى والانتخاب .

وبذلك قامت في العالم الاسلامي ثلاث خلافات ، الخلافة العباسية المتداعية ، والخلافة الفاطمية الناشئة في المغرب ، والخلافة الأموية في الأندلس ، واذا ما قارنا بين هذه الخلافات الثلاث لوجدنا أن الخلافة الأموية في الأندلس أكثرها ديموقراطية ذلك أن الخلافة العباسية تقوم على الاستبداد ، والخليفة يرى أنه مفوض من الله ، أو سلطان الله في أرضه كما قال الخليفة المنصور . أما الخليفة الفاطمي فيرى أنه الامام المعصوم من الخطأ ، ولا يسأل عما يفعل ، ورث العلوم الدينية وخفايا الكون وأسرار الوجود عن رسول الله ﷺ .

أما الخلافة الأموية في الأندلس ، فلا تضافى على نفسها هذه القدسية ، وإنما تتبع الديموقراطية في الحكم ، وتستمتع الى آراء المعارضة ودليلنا على ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر حينما شيد مدينة الزهراء ، وأنفق عليها أموالا باهظة ، عارضه الأهالى بزعمه قاضى قرطبة ، الذى هاجم الخليفة الناصر على المنبر ، واتهمه بالاسراف والتبذير ، وتبديد أموال الدولة بدون وجه حق ولكن الخليفة لم يعزله ، ولم يعاقبه ، بل تركه وشأنه •

وكانت الدولة الأندلسية تمتاز عن الدولتين السابقتين من حيث الوحدة والتجانس بين الحاكم والمحكوم ، ثم انها كانت ثغرا من ثغور المسلمين ، يواصل عملية الجهاد •

سياسة الناصر الخارجية

١ — الخطر الفاطمى في المغرب :

كان الفاطميون عند تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب ، يهدفون الى غزو الأندلس ، لجعل المغرب الاسلامى كله خاضعا للسيطرة الفاطمية الشيعية ، وبهذا ينقسم العالم الاسلامى الى قسمين ، قسم شرقى تابع للخلافة العباسية السنية ، وقسم غربى تابع للخلافة الشيعية الفاطمية ، فأرسل خلفاؤهم العيون الى الأندلس ، لكشف عوراتها ، والتجسس على أحوالها أمثال ابن حوقل ، وقد لعب هؤلاء الجواسيس في الأندلس ، دورا هاما للدعاية الفاطمية فى الأندلس ، في نفس الوقت الذى أمدوا فيه الخلفاء الفاطميين بمعلومات غزيرة عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد نجح هؤلاء الجواسيس في اجتذاب أنصار لهم في الأندلس من العناصر الناقمة على حكومة قرطبة •

خشى عبد الرحمن الناصر من بأس هذه الدولة المجاورة الطامعة

في بلاده ، فاتخذ خطوات مضادة لحماية حدوده ، وتأمين بلاده من غزو فاطمي مرتعب ، فأعلن نفسه حليجه — كما فلما — ليضفي على سلطانه مهابة ، وبت بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، وانضم اليه الأدارسة أمراء العدو ، وملوك زناته ، وأمدهم عبد الرحمن بالمال والعناد ، وسائد انثائر موسى بن أبي العافية في ثورته ضد الفاطميين ، حتى كثر جمعه ، وشكل خطرا على الحكم الفاطمي ، ولكي يؤمن الناصر حدود بلاده ، استولى على ثغرى سبنة وطنجه ، وسيطر على حركة الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأخضع بقايا الأدارسة ، كما وطد علاقته بأمراء تاهرت ، وشجع التوار على انخيلفه الفاطمي أمال أبي يزيد مخلد بن كيداد كما أنشأ عبد الرحمن أسطولا قويا نازع فيه أسطول الفاطميين في البحر المتوسط ، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميين ، وحدث أن هاجم الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي مدينة المرية سنة ٣٤٤ هـ وأحرق السفن الراسية في الميناء ، وسلب رجاله المدينة وأسروا عددا كبيرا من سكان البرية ، فعمد غالب — قائد أسطول عبد الرحمن الناصر — الى الرد على هذه الحملة ، فأغار في ستين سفينة على سواحل أفريقيه سنة ٣٤٥ هـ وبالذات على مرسى الخزر ، ودمر كل منطقة سوسة .

كما وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك إيطاليا هو جودي بروفانس الذي كان غاضبا من الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوه ، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذي كان يهدف الى استرداد صقلية من الفاطميين ثم وطد علاقته بالأخشيديين في مصر ، وعمل على ارسال الفقهاء المالكية من الأندلس الى مصر لمحاربة المذهب الشيعي . وهذه السياسة منعت الفاطميين من غزو الأندلس .

٢ — الخطر الأسباني المسيحي في الشمال :

لما فتح المسلمون الأندلس أبقوا على بقعة جبلية وعرة وهي

جليقة دون فتح ، وأهملوا أمر الجماعات المستضعفة فيها ، ولكن هذه البقعة نمت وترعرعت وقوى أمرها مستغلة الحروب بين المسلمين والاضطرابات الداخلية في البلاد ، وترغم حركة المقاومة ضد المسلمين بلاى ، تم نمت هذه المملكة ، وقوى بأسها في عهد الفونسو الأول الذى استولى على مدينة ليون ، وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية التى صارت تعرف بمملكة ليون وقد حصنت هذه المملكة حدودها من خطر المسلمين بسلسلة من القلاع ، ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن الرابع الهجرى في امارة واحدة عرفت باسم مملكة قشتالة .

ولم تقتصر حركة المقاومة الاسبانية على ليون وقشتالة بل انتشرت قواعد لها على سفوح جبال البرانس شرقا ، ومن أهمها مملكة نافار ، التى سيطرت بحكم موقعها الجغرافى على المعابر الجبلية التى تربط أسبانيا بأوروبا ، وكانت قاعدتها مدينة ببلونة .

ويلاحظ أن هذه الممالك النصرانية نشأت في الجبال خوفا من بطش المسلمين ، وتحصنت بها ، ولما قوى أمرها ، بسطت نفوذها على السواحل المجاورة ، واستولت على أراضى المساميين وهذه الممالك كانت تسند المعون والتأييد من أهم القوى النصرانية المجاورة مثل فرنسا والعالم الكاثوليكي والبابوية .

ولما ولى عبد الرحمن الاندلس ، كان شانשו الأول — ملك نافار — وأوردنيو الثانى — ملك ليون — قد تحالفا على مهاجمة أراضى المسلمين في الأندلس ، وضمها الى بلادهم ، منتهزين فرصة الفتن الداخلية في الأندلس ، واحتل الملكان فعلا بعض المدن ، واستوليا على بعض الأراضى ، ولما هاجما الملكان قاعدة الثغر الأعلى — سرقسطة — رأى عبد الرحمن الناصر ضرورة التصدى لهذا الخطر الداهم ، فخاض عدة حروب ضد هذين الملكان ، وألحق بهما هزائم كثيرة ، وهدم حصونهم وأسترد البلاد التى انتزعوها من المسلمين ، ومن هذه البلاد أسما وتطيلة ، ولكن راميرو

الثاني كان ملكا عنيدا واصل القتال ضد المسلمين ، واستمرت الحرب بينه وبين عبد الرحمن فترة طويلة ، وأشد هذه الحروب ضراوة ، تلك الحملة التي قادها نجده الصقلبي ضد راميرو ، غير أن هذه الحملة انتهت بهزيمة المسلمين عند خندق مدينة شمنقة سنة ٣٢٧هـ ومن أسباب هزيمة المسلمين في هذه الواقعة الانقسام بين العرب والصقلابة أثناء المعركة ، وقتل القائد نجده الصقلبي ونجا عبد الرحمن الناصر هو وقلة من الجند من أيدي العدو بأعجوبة ، حتى أن عبد الرحمن ، لم يشترك في غزوة بعد ذلك •

ولكن هزيمة الناصر لم تؤثر على قوته العسكرية في الأندلس تنفنه عن عزمه في السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس ، ووقف حملات النصارى على بلاده • اذ لك جرد على ممالك النصارى عدة حملات أخضعهم ، وأوقف توغلهم في البلاد الاسلامية وفي النهاية صار سيد الأندلس بلا منازع •

ولما توفي راميرو الثاني ملك ليون ، ودب النزاع بين ولديه أوردينو وسانشو ، كان الناصر الحكم بينهما ، تحالفت ممالك النصارى معه في الأندلس ، وكسب صداقتهم وأجبر الباقين على احترامه ، كل ذلك في سياسة وكياسة جعلت الجميع لا ينظرون اليه كعدو ، بل صديق ، يحكمونه قيما شجر بينهم • والدايل على الصداقة بين ملوك النصارى وعبد الرحمن الناصر ، أن سانشو — ملك نافار — كان مغرطا في السمنة ، وطلب من قرطبة طبيبا يعالجه ، فأرسل اليه عبد الرحمن طبيبا حاذقا في الطب ، هو حسداى بن شيروط الاسرائيلى لعلاجه ، ونجح هذا الطبيب في مهمته ، فقدم سانشو الى قرطبة على رأس وفد من كبار رجال امارته لشكر الخليفة فأكرم عبد الرحمن وقادته ، وندب الاطباء لمواصلة علاجه وكان من نتيجة ذلك عقد محالفة ، نال من ورائها المسلمون حصونا على حدود مملكته • ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون ، يفدون الى قرطبة ، يحتكمون الى أميرها ، ليقر السلام بينهم • وحينما عزل سانشو عن عرشه

طلب من عبد الرحمن مساعدته ، فأرسل جيشا الى ليون أعاد الى ساتنسو عرشه سنة ٣٤٩ هـ ، وهذا يدل على أن الناصر استطاع أن ييسط مفوضه على الشمال المسيحى، وأن يفصل فى مشاكل ملوكه، ويعزل من يشاء منهم .

الخطر النورماندى :

سبق القول أن النورماندى هاجموا سواحل الأندلس فى عهد عبد الرحمن الاوسط عدة مرات ، واكن عبد الرحمن الاوسط تمكن من صد هجماتهم . وفى عهد الناصر ، اتخذ الخطر النورماندى طابعا جديدا ، فأتخذ قاعدة لهم بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية ، فى ولاية نورماندىا فى غرب فرنسا . وقد شكلت هذه الولاية النورماندية خطرا كبيرا على الأندلس ، فكانت تخرج منها الحملات البحرية ، وتغير جنوبا على السواحل الغربية ، وعن طريق الحملات البرية التى كانت تعبر جنوبا فرنسا ، تجتاز جبال البرانس ، وتشن غاراتها على الثغور الأندلسية الشمالية ، وقد تصدت جيوش عبد الرحمن لهذه الحملات البرية والبحرية ، ولم تمكنها من تحقيق أهدافها التخريبية .

العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملوك أوروبا

لم يرتبط الناصر بعلاقات دبلوماسية مع ملوك الولايات الشمالية فى أسبانيا فحسب ، بل كانت له علاقات دبلوماسية مع ملوك أوروبا ونشير فى هذا الصدد الى سفارة بيزنطية فى عهد الخليفة الناصر ، اذ وقد رسل الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع ٣٣٨هـ / ٩٤٩م حاملة هدية رائعة الى الخليفة العظيم واحتفل الناصر بقدوم الرسل واصطف العساكر فى ذلك اليوم بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخلافى بأبهى معالم

الزينة ، وصنوف الصقور ، وعهد الخليفة الى أحد قواده باستقبالهم ومرافقتهم من الميناء الى العاصمة فلما اقترب موكب رسل الروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبلهم بالعدد وانعتاد ، واصطف القواد وتلقوهم قائداً بعد قائد ، ثم استقبلهم اخيراً الفتيان الكبيران ياسر ونمام أعظم قواد الخليفة ، وذلك مبالغة في الاحتفال بهم ، ورافقاهم الى احد قصور قرطبة ، التي أعدت لمقامهم ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس من الاقتراب منه ، ورتب الناصر حاكماً لقضاء حوائج الرسل ، وكان الخليفة الناصر مقيماً وقتئذ بالزهراء ، فلما مضى شهر على قدوم هؤلاء الرسل ، وحين موعد مقابلة الخليفة ، رحل من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ، وجلس لهم في ١١ ربيع الأول سنة ٨٣٣٨ هـ في بهو المجلس الزاهر ، الذي يعتبر أروع قاعات القصر في قرطبة ، وكان مخصصاً للاستقبالات الرسمية وجلس الى يمينه الحكم المستنصر ولى العهد ، ويليهِ عبد الله فعبد العزيز فالأصبغ فمروان ، وجلس الى يساره المنذر ثم عبد الجبار فسليمان — من أبناء الخليفة •

وتوزيع الوزراء حسب مراتبهم الى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى وراءهم وفرشت أبهاء القصر بالبسط القيمة • وبدأت قاعة المجلس الزاهر متأنقة بستور الديباج ، ويريق الثريات ، وسادها السكون ، حتى وصل رسل الأمبراطور مبهورين حائرين الى باب القاعة ، بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الاسلحة على شكل أقواس ، ثم اقتربوا من الخليفة ، وقدموا له الهدية • ثم عد الرسل الى القسطنطينية بالهدايا الى الامبراطور البيزنطى ، ورد على رسائل الامبراطور •

نشأت دبلوماسية بين أوتو الكبير ملك الفرنجة ، وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، نتيجة لغارات المسلمين المجاهدين على سواحل بلاده الجنوبية ، وأرسل أوتو الكبير الى عبد الرحمن الناصر ، رسالة شديدة اللهجة ، يطلب منه وقف أعمال القرصنة ، والتخريب في

ببلاد الجنوبية ، وقد رد عليه الخليفة اناصر برسالة مماثلة سنة ٨٣٩هـ وبعد أعوام قليلة عاد أوتو الكبير ، وأرسل رسالة الى الخليفة الناصر فأحسن الناصر استقبال حامل الرسالة في قرطبة ، وهو راهب يدعى جان دى جورز ، وأنزله اناصر في قرطبة في قصر بجوار إحدى الكنائس حتى يستطيع تأديته شعائره الدينية ، وكان من عادة الناصر أن يحاط علما بالرسالة قبل تقديمها اليه ، فعلم أنها تسديدة اللهجة ، وفيه افتراء على الاسلام واستقبال الخليفة الراهب ورفض تسلم الرسالة وألح الراهب حتى لا يغضب الملك ، ولكن ازاء اصرار الناصر عاد الراهب ومعه رسول من الناصر من المستعربين ، يجيد العربية واللاتينية ، ويسمى ربيع بن زيد ، واستقبله الملك الجديد أوتو أحسن استقبال ، وتخلى عن الرسالة التي فيها نيل من الاسلام ، وأعاد رسوله الى الخليفة عبد الرحمن الناصر برسالة لا تتعرض للدين الاسلامي ، واستقبل الخليفة الناصر رسول الامبراطور في احتفال كبير .

وهذه السفارات تدل بوضوح على مدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط ، الى درجة جعلت كلا من امبراطور بيزنطة وامبراطور الدولة الغربية ، يتوسط لدى خليفة قرطبة ، كي يحد من نشاطهم .

الصقالبة في عهد الناصر :

أطلق الجغرافيون اسم الصقالبة على مجموعة الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة بين بحر قزوين شرقا الى البحر الادرياني غربا ، وهي بلغاريا العظمى في العصور الوسطى ، ولقد دأبت القبائل الجرمانية على سبى الشعوب السلافية ، وبيع رجالها ونسائها الى عرب أسبانيا ، وأطلق عليهم الصقالبة ولكن هذه التسمية بمرور الزمن لم تعد تقتصر على الشعوب السلافية فحسب ، بل اتسع نطاقها ، وشملت سبى نصارى

الشمال والفرنجة من جنوب فرنسا • ومن سواحل البحر الأسود ومن
لبارديا وكلا بريا في ايطاليا •

وهؤلاء الصقالبة ، كانوا يجلبون أطفالا ، ويتعلمون اللغة العربية ،
ويدينون بالاسلام ، ويختلطون بالشعب الأندلسي ويعيشون الحياء
الاسلامية ، وكان منهم الجند والحرس الخاص بالخليفة والخدم وتدرجوا
في سلك الوظائف ، حتى بلغ منهم الشعراء والادباء وامتلكوا المكتبات
الكبيرة وللضياع الشاسعة ، وقد ألف حبيب الصقلبي كتابا أسماه
(الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) وفقد هذا الكتاب
وأشار اليه ابن بسام في كتابه (الذخيرة) ظهر انصقالبة في الأندلس منذ
عهد الحكم الربيضي ، وكثر عددهم في عهد الناصر حتى شكّلوا طبقة
جديدة في المجتمع ، ومن أسباب استئثار الناصر من الصقالبة أنه لاحظ
أن جند العرب والبربر ، اذا انتظموا في الجيش انتظموا بعصبيتهم ،
وكان هذا يؤثر على بناء الجيش ، لذلك رأى الناصر ضرورة القضاء على
العصبيات في الجيش ، ويجعل جنده ملتحقين كأفراد لا كعصبيات ،
وأدى هذا الى ضغط جيش الدولة ، لان العربي أو البربري لم يكن
يحمسه في القتال سوى الحرب في العصبية ، اذلك استئثر الناصر من
الصقالبة في الجيش ، فقد رباهم في المعسكرات ، ونشأوا على الطاعة
والولاء لا عصبية لهم ولا وطن ولا أسرة •

المنشآت المعمارية في عهد الناصر

ازدهرت البلاد في عصر الناصر حضاريا ، وتجلّى هذا الازدهار في
المنشآت الفخمة التي خلعت اسمه ، وجعلته من أعظم ملوك أوربا في
العصور الوسطى •

ومن أبرز منشآته ، مدينة الزهراء التي أسسها شمال غرب قرطبه ،
وعلى بعد ثمانية كيلو مترات منها ، وقد شيد الناصر هذه المدينة ، لتكون

مدينة ملوكية ، يعيش فيه هو وأفراد البيت الأموى بعيدا عن قرطبة المزدحمة بالسكان ، وتروى بعض المصادر أسطورة تقول أن الناصر سجد هذه المدينة تخليدا لذكرى جارية له كانت تحمل اسم الزهراء ، هام بها حبسا .

كانت الزهراء مدينة مدرجة على مسطح الجبل ، القسم الأعلى فيه قصور الخليفة ، والقسم الأوسط بساتين ورياض ، والقسم الأعلى يحتوى على المسجد ومنازل الخاصة والحراس وكل قسم من هذه الأقسام له أسوار وأبواب . وقد أشرف على بناء الزهراء الحكم المستنصر ولى العهد سنة ٣٢٥ هـ ، وأنفق فى بناء المدينة أموالا طائلة ، زادت عن ثلث إيراد الدولة لمدة ١٧ سنة ، واستغرق بناء هذه المدينة أربعين سنة فى عهد الحكم المستنصر .

وتفيد المصادر أن الناصر قد انتقل الى الزهراء قبل اتمام بنائها ، ونقل اليها أبناءه وأقاربه ومواليه وخدمه ، وظلت قرطبة مع ذلك العاصمة الرسمية ، ولا تزال بقايا مدينة الزهراء قائمة حتى يومنا هذا .

على أن العمران لم يستمر طويلا فى مدينة الزهراء ، فبعد ستين سنة منه ، تعرضت لعبث العابثين وللاعمال التخريبية التى صحبت نهاية الحكم الأموى ، وظلت المدينة فى الزوال ، حتى أصبحت خرابا تبكى من شيدها وبنائها وأقام صرحاها .

ومن أعمال الناصر الانشائية اعادة بناء مدينة سالم التى تقع شمالى مدريد بنحو ١٥٣ كم ، وعرفت هذه المدينة باسم قائد من قواد الفتح الأول ، وقد تعرضت هذه البلدة للخراب فى عهد الأمير عبد الله ، فأعاد الناصر بناءها ، وجعلها ثغرا حربيا لمواجهة امارة قشتالة الناشئة . وأصبحت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط الى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى ، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى .

والمعروف أن الخليفة الناصر وسع مسجد قرطبة الجامع • ومع أن الناصر حكم حوالى خمسين عاما ، وعذبت له في آخر حكمه الأيام ، فقد وجد في مذكراته الشخصية أن أيام السرور التى صفت له دون تكدير ، كانت أربعة عشر يوما ، وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الجهد المتواصل الذى بذله الناصر طول مدة حكمه في النهوض بأعباء الدولة • ويدل على أن الملوك الذين يشعرون بالمسئولية لا يجدون وقتا للراحة أو اللذة بالحياة •

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة وتقدير ملوك العصر له أن الملك الأسباني أوردينو ملك ليون زار الأندلس ، في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن ، زار قبر الناصر ، وركع أمامه في خضوع مظهرا عظيم احترامه لذكراه •

ويعتبره المؤرخ دوزى من الملوك العصريين من حيث تحلية بالروح الديمقراطية ، والأخذ بأسباب الحضارة وأتباع سياسة داخلية وخارجية ناجحة حتى كانت الأندلس في عهده من الدول الكبرى •

الحاكم المستنصر بالله

(٣٥٠ — ٥٣٣٦ / ٩٦١ — ٩٧٦ م)

ولى المستنصر الحكم بعد أبيه ، وقد تجاوز الأربعين من العمر ودربه أبوه على إدارة بعض الولايات ، وقيادة الجيوش ، وولى المستنصر البلاد ، بعد أن وطد أبوه الحكم فيها ، وكفل للبلاد الاستقرار والهدوء ، وقضى على الفتن الداخلية ، وأضعف النصارى فى الشمال ، وتحولت الأندلس فى عهده الى دولة كبرى ، تخطب دول العالم ودها ، لذلك كانت مهمة المستنصر فى الحكم سهلة ميسورة وانشغل بقراءة الكتب ، وكان دودة كتب — كما يقول لين بول أنشأ مكتبة فى قصره الزهراء تتألف من أربعمئة مجلد ، وروى أنه قرأ معظم هذه الكتب ، بدليل أن تعاليقات بخط يده ، وجدت على هذه الكتب ، وأنفق الأموال الضخمة فى شراء نفائس الكتب والمصنفات ، ومن الكتب القيمة التى بعث فى شرائها ، كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ، واشتراه بألف دينار •

وكما يقول الرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادى أن من يقضى الوقت فى قراءة الكتب ، لا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم بكفاءة ، لأن منصب الملك لا يهيئ لمصاحبه أن يبلغ الذروة فى العلم ، فيجب على الملك ألا يدفن نفسه فى خزائن كتبه ، وان يعنى بمكتبته ومحفوظاته ، أكثر من عنايته بتسؤن الحكم ، والاتجاه الى صالح دولته •

وكان الحكم يجذب العلماء الى قرطبة ، ويبذل فى ذلك أموالا طائلة ومن أبرز العلماء الذين ظهروا فى قرطبة فى عهده ، العالم اللغوى أبا على القالى ، وتصدى للتدريس فى جامع قرطبة ، وجمع محاضراته فى كتاب فسماه الأمالى ، وقدم هذا العالم الجليل الأندلس فى عهد الناصر لدين الله وظل يواصل نشاطه فى عهد الحكم ويتضمن الكتاب فصولا متفرقة عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم وأخبارا تاريخية •

تتصل بعرض شعرائهم ، ومن أشهر علماء الاندلس في عهد المستنصر ابن القوطية ، نسبة الى أمه سارة حفيدة الملك غيطشة ، وله مصنفات منها كتاب في النحو ، يسمى الأفعال ، وكتاب في التاريخ ، يسمى العربى (تاريخ افتتاح الاندلس) ويبدأ تاريخه من فجر الاندلس ، ويتحدث عن الفتح العربى لهذه البلاد ، ثم يتابع الكتابة في تاريخ الاندلس حتى ينتهى بوفاة الأير عبد الله سنة ٩١٢ م ، وقد أملى هذا الكتاب على تلاميذه ، بحليل ما ورد فيه مرارا وتكرارا من عبارة قال شيخنا أبو بكر أو قاله ابن القوطية •

ومن أبرز العلماء الذين اجتذبهم الحكم المستنصر الى قرطبة ، محمد بن الحارث الخسنى ، وقد استدعاه الحكم من القيروان ، وأغدى عليه ، ومن أهم مؤلفاته ، « كتاب القضاء بقرطبة » ولهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة الحياة الاجتماعية في قرطبة •

كما كان المستنصر يعقد حلقات البحث والدرس في قصره مع العلماء ، ويتدارس معهم فروع العلم ، ويأظفهم ويناقشهم ، شأنه شأنهم • وحرص كذلك على نشر التعليم بين عامة الشعب ، فأنشأ الكتاتيب في قرطبة وفي شتى بلاد الأندلس ، ليتعلم فيها أبناء الفقراء القرآن والقراءة والكتابة والحساب وبعض المعلومات الدينية ، فمن انشاءاته القيمة سبعة وعشرون مكتبا حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة •

ولم تزل كتب الحكم في قصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وقد أمر ببيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر ، ثم نهب ما بقى عند دخول البربر قرطبة ، واقتصامهم الحاضرة الأندلسية عنوة • ومن المؤسف حقا أن الحاجب المنصور ابن أبى عامر ، أمر بأحراق كتب الفلسفة ارضاء للمفقهة •

ذاعت شهرة قرطبة بالكتب في عهد الحكم المستنصر ، فلم يقتصر اقتناء الكتب على الخليفة وحده ، وانما تعداه الى أفراد الشعب وكانت

الكتب من أروع متاجرها ففيل : اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه ،
حمله الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته
حملت الى اشبيلية •

ومن أعماله الانشائية توسيع المسجد الجامع ، و امداد المسجد
بالماء العذب ، وتيسير وسائل الصرف الصحي •

السياسة الخارجية

١ - الخطر الفاطمي في المغرب :

خفت حدة الخطر الفاطمي على بلاد الأندلس في عهد الحكم
المستتصر ، ذلك لأن الفاطميين أدركوا أن بقاءهم في المغرب محفوف
بالمخاطر ، بعد تعدد ثورات البربر ، وشعورهم بعدم الأمن والاطمئنان
على بقاء دولتهم واستمرارها وأسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة ،
وانتقل الفاطميون الى مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركا حكم المغرب في يد خلفائه
بنى زبرى زعماء صنهاجة •

وظلت بلاد المغرب موضع تنافس بين الأمويين والفاطميين واقتد
كل من العدوين المتنافسين حلفاء وأعوان وأنصار له في المغربين ، فبينما
كانت زنانه تتبع الأمويين وتناصرهم كانت صنهاجة حلفاء الفاطميين ،
وأخيرا وبعد تنافس مرير بن زناتة وصنهاجة ، سيطر الزبريون من
صنهاجة على القسم الشرقي للمغرب ، تحت السيادة الفاطمية ،
وسيطرت زناته على القسم الغربي للمغرب تحت السيادة الأموية في
الأندلس •

وأدى ابتعاد المسافة بين الخلافتين الى تخفيف حدة التوتر بينهما ،
ومع ذلك حرص الأمويون على تأكيد سيادتهم على المغرب الأقصى تأمينا
لحدود بلادهم من خطر فاطمي متوقع فأكد المستتصر سيطرته على
مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق
مثل سبتة وطنجة وهد النفوذ عن طريقها الى العدو المغربية ، ولكن

الادارسة في المغرب الأقصى ، طمعوا في الاستقلال بملكهم ، واستعادة دولتهم ، ولكن الحكم تصدى لهم ، وأرسل اليهم قائده الشجاع غالب ، فاستعاد السيطرة الأندلسية على المغرب الأقصى ، وأخضعهم وقضى على دولتهم ، ونفل بقايا أسرة الادارسة الى قرطبة . وكان هذا آخر عهد لهذه الأسرة التي قامت في هذه البقعة في أواخر القرن الثاني الهجرى .

٢ - الخطر النورماندى :

سبق القول أن النورمان بدأوا يشنون الغارات على سواحل الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأدى ذلك الى يقظة الأندلس ، وأنتساء أسطول قوى يتصدى لخطر أى هجوم بحرى وقد عاد هذا الخطر الجديد على الأندلس سنة ٣٦٠ هـ ، ويرى المؤرخون أن ريكارد الأول دوق نورمانديا - مؤسس هذه الولاية - شن هجوما على السواحل الاسبانية بعيد من السفن ، فصد المستنصر هذا الهجوم ، واتخذ كافة الاحتياطات منها للتحالف مع بعض امارات نصارى الشمال ، واتخاذ العيون والجواسيس ، للاخبار عن الهجوم قبل وقوعه وأمر بصنع بعض مراكب على هيئة مراكب (المجوس) ووضعها في الوادى الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وشن غارات على سواحل نورمانديا بغية اضعاف النورمان ولعب قائده المشهور غالب دورا كبيرا في هذا المضمار . وكان أشد غارات النورمان (المجوس) ضراوة على شواطئ الأندلس ، ما حدث منها على غرب الأندلس وفي مياه المحيط الاطلسى .

وقد هاجم النورمان في عهد الحكم سواحل جنوب البرتغال وسهول لشبونه ، حيث حدثت اشتباكات عنيفة قتل فيها من الطرفين كثيرون . ولكن الأسطول الأندلسى لم يستسلم لعنف القتال ، وانما طارد المراكب النورماندية حتى أباد معظمها ، واسترد أسرى المسلمين .

٢ - موقف المستنصر من نصارى الشمال :

قلنا أن عبد الرحمن الناصر ، اتفق قبل وفاته على اعادة سانشو

الى العرش بدلا من أوردينيو الرابع ، مقابل أن يسلم سانشو الى الفاهر بعض الحصون ، واعاد الفاهر فعلا سانشو الى العرش ، ومات الفاهر ، وولى الحكم المستنصر ، فانتفض سانشو الفرصة ، وهاطل في تسليم الحصون ، ظنا منه أن الحكم ليس بقوة أبيه وأنه فيلسوف لا يهمه الا الكتب . وفي غضون ذلك وفد أوردينيو على المستنصر يطلب منه اعادته الى الملك ، بدلا من سانشو ، ولما علم سانشو بذلك ، وعد بتسليم الحصون خوفا على ملكه وخوفا من تخالف الملكين ضده ، ولكن توفي أوردينيو ، فخلا الجو لسانشو ، ولم يعد أمامه سوى خصم واحد وهو الحكم ، فعاد الى رفض تسليم الحصون ، وتحالف مع ملك قشتاله وملك ناغار ، ولكن الحكم أرسل الجيوش الى الشمال ، وهزمت الحلفاء . وتكبد سانشو خسائر جسيمة . وأدرك أنه لا قبل له بالحكم ، فسلم اليه الحصون .

واعتمد الحكم في ادارة شؤون دولته على وزرائه ومن أبرزهم وزيره المصحفي ، وكان يتصرف في ادارة الدولة تصرفا مطلقا ، ولا يرجع اليه الخليفة الا في بعض الامور ، ومن هنا ظهرت طبقة كبار الموظفين ، التي سيكون لها أثرها في الحياة السياسية في الأندلس بعد وفاة الحكم ، والتي ستفرض سلطانها على الدولة ، على حساب خلفاء البيت الأموي .

وكان ولي عهد الحكم في العاشرة من عمره ، وأوصى رجال الدولة به ، وعهد اليهم بتربيته وتدريبه على شؤون الحكم والسياسة وولى هشام الحكم بعد أبيه ، ولكن حرص كبار الموظفين على منعه من ممارسة سلطانه ، لذلك يمكن القول بأن فترة الازدهار في الخلافة الأموية كانت في عهد عبد الرحمن الفاهر ، والحكم المستنصر قويت البلاد سياسيا وعسكريا ، وازدهرت فيها الحضارة ، ونهضت فيها الحركة العلمية .

هشام الثاني

(٣٣٦ - ٣٣٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م)

تولى هشام الحكم وهو طفل صغير قد تجاوز عشر سنوات الا قليلا ، وظهر في الدولة حزبان يتنافسان حول السلطة والنفوذ ، الحزب المدني ، ويتزعمه الحاجب المصحفي ووزراؤه ويرى هذا الحزب الموافقة على تولية هشام الحكم عملا بوصية أبيه ، وهذا الحزب يريد الابقاء على هشام الطفل حتى يتسنى له السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة ، والابقاء على هشام العوبة في أيديهم ، يحكمون بأسمه . أما الحزب العسكري ، وقوامه الصقالية فيرى أنهم خاضوا غمار الحروب في الشمال وفي البحر وفي داخل البلاد ، وأن لهم الحق في السيطرة على سياسة الدولة ، وعلى الحكم ، ويرى هذا الفريق أن هشام طفل لا يصلح للحكم ، ويرشحون للخلافة رجلا يستطيع ادارة أمور البلاد ، ودرء الأخطار الخارجية عنها ، وقمع الفتن الداخلية ، وهذا الرجل هو المغيرة بن عبد الرحمن الناصر . وتتازع الحزبان حول تقرير مصير البلاد ، وانتصر الحزب المدني بقيادة المصحفي على الحزب العسكري ، وتصدى لهذه المؤامرة الخطيرة محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، قتل المغيرة ، وثبت هشام الثاني على العرش ، وتاريخ الأندلس منذ تولية هشام حتى نهاية القرن الرابع الهجري هو في الحقيقة تاريخ هذا الشاب الذي وصل الى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في الدولة بأساليب ميكافيلية أي الغاية تبرر الوسيلة ، لذلك يسميه دوزي بسمارك القرن العاشر الميلادي .

٢١٤ مد

محمد بن عبد الله بن أبي عامر

الملقب بالنصور

(٣٦٦ - ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م)

محمد بن عبد الله بن أبي عامر من أسرة عربية يمنية من قرية المعافر ، اشتترك جده عبد الملك في جيش طارق بن زياد في عمليات عسكرية في الجزيرة الخضراء ، وبرزت هذه الأسرة في الأندلس ، وشغلوا مناصب هامة وكان منهم القضاة والولاة والعلماء ، وكان عبد الله والد صاحبنا من رجال العلم والأدب .

عرف عن محمد بن عبد الله بن أبي عامر الطموح منذ نعومة أظفاره ، وتثقف بثقافة أسرته ، فدرس اللغة والأدب على ، أبي علي القالى البغدادي وابن القوطية ، وقرأ الحديث على ، أبي بكر بن معاوية بن القرشى ، ثم فتح دكانا بجوار قصر قرطبة لكتابة الشكاوى للخليفة الحكم ، وظهرت براعته في كتابة الشكاوى ، فكان يحسن عرض الموضوع ، ويكتب بعبارة أدبية جذابة ، وأسلوب ممتع ، فأعجب به الحكم ، وتقرب الى السيد صبح زوج الحكم ، وكان يرسل اليها الهدايا في المناسبات ، حتى قيل انه دخل معها في علاقة حب ، ومن هداياه المشهورة ، للسيدة صبح ، قصر من الفضة الخالصة نموذج من قصر قرطبة ، وقد حمله الرجال الى القصر وسط نظرات الاعجاب والدهشة ، ومازالت صبح تبادله الاعجاب ، حتى رفعت من شأنه ، فولاه الحكم أمانة دار السكة ، ثم ولاه قضاء بعض النواحي ، ثم عهد اليه بالاشراف على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية وعلى ادارة الشرطة فيها ، ثم جعله وكيلا لولده هشام ولي العهد ، ومازال ابن أبي عامر يرقى في سلك المناصب ، حتى أصبح من كبار رجال الدولة ، وفي مرتبة الوزراء ، ومن الساسة الذين يديرون دفة الأمور في الدولة .

تولى هشام الثانى الحكم — كما قلنا — بتأييد المصحفى وابن أبي عامر ، وبالطبع الام صبح ، ورأى هؤلاء الثلاثة ضرورة التخلص من أعدائهم ومنافسيهم ، الصقالبة ، وزعيمهم المغيرة بن عبد الرحمن .

عهد هشام الى المصحف بالحجابة — كما كان حاله في أيام أبيه — ورقى ابن أبي عامر الى مرتبة الوزارة ، بدلا من خطة الشرطة ، ولكن المصحف كان يخشى على نفوذه من ابن أبي عامر ولا يستريح لبلوغه مرتبة الوزارة ، وكان ابن أبي عامر قويا بفضل مهارته ومقدرته ، وتأيد صبح التام له ، وكانت صبح تطمئن اليه ، وتطمئن الى مقدرته على تعزيز وضع ابنها الفتى ، وحماية ملكه ، وأدار شؤون البلاد بمهارة حتى صار الحاكم المطلق في الأندلس .

كان لابد لابن أبي عامر من التخلص من كل الشخصيات التي تعترض تحقيق طموحه ، فبعد أن تنلص من المغيرة بن عبد الرحمن ، رأى سريرة التخلص من الصقالبة ، ثم المصحف الذي لا يزال من الناحية الرسمية الرجل الأول ، والمهيمن على السلطة العليا فيها وكان يضرب أعداءه ببعضهم حتى تخلص منهم نهائيا ، ولم يبق له في الحكم منازع ، وكان الصقالبة وعددهم ألف لا يزالون قوة يحسب حسابها فانتهز فرصة كراهيه الحاجب المصحف للصقالبة — الذين نافسوه بترشيح المغيرة بدلا من هشام — فحمل ابن أبي عامر الحاجب المصحف على نكبة الصقالبة ، فجد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وأعمل فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وابن أبي عامر شرهم وتقلد الحاجب أمر القصر بدلا منهم ، ويذكر ابن حيان أن الصقالبة اشتد طغيانهم في القصر والدولة ، وثقلت وطأتهم على الناس وعلى الشعب قاطبه .

اعتزم ابن أبي عامر بعد التخلص من الصقالبة ، على توطيد مركزه بين الجيش والشعب ، فقرر استئناف الجهاد ، وكان المصحف قد أبدى تقاعسا في ذلك ، حتى اتسع نفوذ : نصارى الشمال ، وكثرت غاراتهم على أراضي المسلمين حتى اقتربوا من قرطبة ، فقاد ابن أبي عامر جيشا الى الشمال ، وعاقب ممالك النصارى ، ولقنهم درسا قاسيا ، وحذرهم من منبة الاغارة على أراضي المسلمين ، وعاد محملا

بالغنائم ، فأعقد على جنده ، ونال رضى الشعب والجيش ، والسيدة صبح ، وتطلع الناس اليه للقبض على زمام الأمور فى الدولة .

لا يستطيع ابن أبى عامر تحقيق طموحه الا بالتخلص من المصحفى ورأى فى الشقاق الذى نشأ بين القائد الشجاع غالب وبين غريمه - أقصد المصحفى فرصة لضعافه والتخلص منه ، وضم ابن أبى عامر القائد غالب الى جانبه ، وسعى للرفع من شأنه أمام الخليفة والسيدة صبح ، حتى خرج المرسوم برفعه الى خطة « ذى الوزارتين » وانتدابه لقيادة جيش الثغر وجاهد ابن أبى عامر الى جانب القائد غالب فى ممالك النصارى بالشمال ، وانتصر الرجلان ، وزادت مكانتهما فى قرطبة ، وتوثق بينهما التحالف للتخلص من العدو المشترك المصحفى .

استطاع ابن أبى عامر استصدار مرسوم من الخليفة بعزل محمد بن جعفر المصحفى من ولاية قرطبة ، وبذلك أضعف من نفوذ المصحفى ، وصدر مرسوم من الخليفة بتولية ابن أبى عامر حكم قرطبة ، وبذلك سيطر على الجيش والحكومة معا ، وضبط العاصمة ، وتخلص من المفسدين ، وأعاد الامن والطمانينة الى أهل قرطبة . وبذلك ازداد نفوذ ابن أبى عامر ، فى الوقت الذى ضعف فيه نفوذ المصحفى .

وقوى التحالف بين ابن أبى عامر ، والقائد غالب ، وواصل سوية الجهاد فى الشمال ، وفى كل غزوة يحرزان الانتصارات ، ويعودان الى قرطبة محملين بالغنائم ، فتزداد مكانتهما فى القصر على حساب الحاجب المصحفى ، ولم يلبث أن قلد الخليفة ، القائد غالب خطة الحجابة الى جانب جعفر المصحفى ، وبذلك ازداد المصحفى ضعفا ، وتوطدت العلاقة بين غالب وابن أبى عامر بصفة خاصة بعد المصاهرة التى تمت بينهما ، فقد تزوج ابن أبى عامر من ابنة القائد غالب ، وأخيرا آن الاوان للتخلص من المصحفى ، فأمر ابن أبى عامر بالقبض عليه بمرسوم استصدره من الخليفة ، اتهمه بتبديد أموال الدولة ، ومصاد

أمواله ، وثكب أهله ، واستصفى أموالهم وأمر ابن أبي عامر بقتل بعض أفراد أسرة المصحفى ، بل طالبه بالمال الكثير ، حتى اضطره الى بيع قصره المنيف ، ومازال يضطهده بضع سنين حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ .
وبذلك تخلص ابن أبي عامر من خصم عنيد ، يقف عقبه فى سبيل تحقيق طموحاته .

ولم يبق أمام ابن أبي عامر الا القائد الأندلسى القوي غالب ، وعلى الرغم من المصاهرة بينهما الا أنه كان يتوجس خيفة منه ، ويراه خطرا على سلطانه ، وعقبه فى سبيله ، وكان غالب يقيم بعيدا عن قرطبة ، وكان المعارضون ، يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع التصدى لابن أبي عامر ، والتخلص منه ، لذلك رأى ابن أبي عامر إبعاد القائد غالب عن طريقه ، فاستدعى ابن أبي عامر جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى من عدوة المغرب ، وكان من قواد البربر الأقوياء من زناته ، واستصدر له مرسوما بالوزارة ، واستعان ابن حمدون بالبربر ، وأيده ابن أبي عامر ، ورحب بمقدمهم الى الأندلس ، وأدخلهم فى الجيش ، واستكثروا ابن أبي عامر من البربر حتى اتخذ منهم الحرس والحاشية ، وتقوى بهم ، فارتاب القائد غالب فى تصرفات صهره ، وتطور الشك الى عدا شديدة بين الرجلين ، انتهى بالحرب بينهما أمام حصن شنت بجنت ، ولكن القائد غالب أثناء المعركة ، سقط ميتا من فوق جواده ، فديب الذعر فى نفوس جنوده ، وشنت ابن أبي عامر شملهم ، وأمعن فى جيش غالب قتلا وأسرا سنة ٣٧١ هـ . وبذلك تخلص ابن أبي عامر من هذا الفارس الشجاع .

ومع أنه استعان بابن حمدون فى التخلص من غالب ، الا أنه رأى ضرورة التخلص من ابن حمدون حتى لا ينافسه فى السلطان ، فاستعان عليه بابن جهور وابن ذى النون وأولياء الدولة من العرب حتى تخلص منه .

حتى السيدة صبح أم الخليفة التي أوصلت ابن أبي عامر الى ما وصل اليه حتى شك الناس في العلاقة بينهما ، تخلص منها أيضا ، فقد أغضبها استبداده بالامر ، ومنع ابنها الخليفة من ممارسة سلطانه ، وأرادت أن تقضى على نفوذه ، فاستعانت عليه ببعض زعماء البربر في المغرب الأقصى المعادين لابن أبي عامر ، وأرسلت اليهم الاموال والهدايا ، ولكن المؤامرة اكتشفها ابن أبي عامر في مهدها ، وأستولى على الأموال ، ثم استعانت بالفقهاء ، فأعلن الفقهاء في قرطبة أن ابن أبي عامر يستبد بالنفوذ دون الخليفة ، ولكن ابن أبي عامر دحض هذه التهمة بالتقرب الى الخليفة ، واطهار الولاء والطاعة له ، والخروج معه في شوارع قرطبة في موكب ، وانخليفة يحادثه وهو يحادث الخليفة مظهرا الخضوع والخشوع له ، وحدد من اقامة السيدة صبح ، وأحاط قصرها بالجواسيس ، وشدد الرقابة عليها ، حتى قضت بقية حياتها في زوايا النسيان . وهكذا كان مصير هذه السيدة التي أوصلت ابن أبي عامر الى ما وصل اليه ، وفبلت الاشتراك معه في منع ابنها الخليفة من ممارسة نفوذه وسلطانه .

وهكذا تخلص محمد بن أيوب عامر من منافسيه ، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وولى منصب الحاجب ، وهو أرفع منصب في الدولة ، ولقب بالمنصور سنة ٣٧١ هـ ودعى له على المنابر ، شأنه شأن الملوك ، وكانت الكتب تتفد عنه ، وكان الناس يقبلون يده ، كما لو كان الخليفة ، وأضحى ابن أبي عامر بعد أن قضى على كل منافسيه سيد الأندلس بلا منازع ، وصاحب السيطرة على الجيش ، والمسيطر على سيادة الدولة . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد سوى أداة لينة في يد هذا الرجل القوي ، يوجهها كيف شاء .

جهاد المنصور ضد الممالك المسيحية في شمال أسبانيا :

أراد المنصور أن يضيف على حكمه هيبة وقوة ، فاستأنف عهد الجهاد ، وغزا الممالك المسيحية ، وكان يقود جيوشه بنفسه في الربيع

والغريف أى فى الضبوائف والشبوائى ، وبلغت هذه الغزوات سبعا وخمسين غزوة على مدى حكمه الذى استمر حوالى خمسا وعشرين سنة ، وانتصر فى كل هذه الغزوات ويروى ابن عذارى : أن المنصور اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بفرش قبره بهذا الغبار عند دفنه ، وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته فى أى لحظة •

حارب المنصور فى جبهات المسيحيين المتعددة فى قشتالة وليون ونافار وقطالونيا ، وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة ، وما رأى أسبان التسمال هزائم ولا مذلة كهزائمهم على يديه فمدنهم الكبيرة دمرها ووصل الى أقصى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا ودانت له جميع أسبانيا شمالاً وجنوباً •

ومن أهم حملاته الغزوة التى شنّها على برشلونه وقطالونيا فى شمال شرق أسبانيا سنة ٣٧٤ هـ ، والحملة التى شنّها على جليقية شمال غرب أسبانيا سنة ٣٨٧ هـ • أما الحملة الأولى ، حملة برشلونه وقطالونيا ، فقد خرجت من العاصمة قرطبة ، وبلغت برشلونه بعد شهرين من زحفها ، فدمرها المنصور ولم يستطع أهل المدينة مقاومة هذا الجيش القوى •

أما حملة جليقية ، وهى الغزوة الثامنة والأربعون ، فكان غرض المنصور منها ، هو غزو مدينه شنت ياقبب أبى القديس يعقوب ، ويعتقد المسيحيون أنه من حوارى السيد المسيح ، وترك القدس ، وسأح فى البلاد ، حتى انتهى به المطاف الى هذه البلدة ، ومات فيها ، وأقام له السكان مقبرة ، فوقها كنيسة ، يزورها المسيحيون من شتى البلاد • المهم أن ابن أبى عامر هدم البلدة كلها الا قبر هذا القديس • وهذه الانتصارات التى لم ينسها الأندلسيون ملها فى أى عهد سابق ، جعلت للمنصور شعبية كبيرة ، والتفت الناس حول هذا البطل الذى أعاد لهم كرامتهم •

العلاقات الأندلسية المغربية في عهد المنصور

حرص المنصور على الاحتفاظ بالعدوة المغربية تأميناً لحدود دولته ، ودراء لخطر شيعى محتمل ، واصل بسط نفوذ دولته فى تلك الأصقاع حتى دانت له البلاد المغربية الممتدة من سبلماسة جنوباً سنة ٣٧٠ هـ والى ولايتى تلمسان وتاهرت شرقاً .

ولتدعيم هذه السيطرة على العدو المغربية ، ولتلافى ثورات البربر فى المستقبل ، أقام المنصور قاعدة عسكرية فى الجزيرة الخضراء ، لرائبة الأوضاع فى العدو المغربية ، وسرعة تجريد حملة عسكرية على هذه البلاد ، اذا ما أعلنت الثورة ، كما شيد المنصور منازل له واستراحات فى الطريق من قرطبة الى الجزيرة الخضراء لسرعة حركته من قرطبة الى بلاد المغرب فى حالة تمردى ، وهو نفس ما فى الطرق المؤدية الى الثغور الأندلسية شمالاً .

وواجه المنصور عدة حركات استقلالية فى المغرب ، تهدف الى التخلص من الحكم الاموى فى الأندلس ، واول هذه الحركات سنة ٣٦٩ هـ ، وقد ترعها يلكين بن زيرى الصنهاجى وهاجم ظاهر سببته ، ولكن جيش المنصور مزق جيشه كل ممزق ، والمحاولة الثانية انتى قادها الحسن بن جنون — وهو من الأدارسة — وقد لجأ الى يلاط الفاطميين فى عهد الخليفة العزيز وحرصه الخليفة الفاطمى ، على المسير الى المغرب الأقصى ، واسترد ملك آباءه وأجداده ، وسبار ابن جنون الى بلاد المغرب الأقصى ، والتف حوله ، الزنانيون والعلويون ، وكثر جمعه ، ولكن جيش المنصور ، هزم العلويين شر هزيمة ، وطلب ابن جنون الامان ، ولكن المنصور رفض لكثرة نكته وقتله ، الأمر الذى آثار استياء العلويين .

ومن أشد الثورات ضراوة فى العدو المغربية ضد حكم المنصورى قادها زبرى بن عطية المغراوى الزناتى سنة ٣٨٦ هـ ، وهذا الزعيم ورجال قبيلته مغراوة لعبوا دوراً كبيراً فى اخماد الثورة العلوية ، وهزيمة

أبن جنون ، لذلك كافأ المنصور زيرى بن عطية ، بأن عهد اليه بحكم بلاد المغرب ، وأقام مدينة وجده سنة ٣٨٤ هـ على الحدود الجزائرية ، وجعلها عاصمة لدولته المخراوية ، وكانت العلاقات بين هذا القائد وبين المنصور قوية ، وكان يظهر له الولاء والطاعة ، ويتقرب اليه بالهدايا النفيسة والأموال الكثيرة ، لكن حدثته نفسه بالاستقلال ببلاده عن الدولة الأموية في الأندلس ، وطرد عمال وولاه — المنصور من بلاده • ويختلف المؤرخون حول تفسير أسباب ثورة زيرى ، فيرى البعض أنه استغل لقب وزير ، الذى منحه له المنصور ، وكان يريد لقب أمير ، ويرى آخرون أنه كان ينتظر من المنصور مكافآت مالية كبيرة • وهناك من يقول أن السيدة صبح حرضت زيرى على الثورة ، وأرسلت اليه الهدايا ، وحرضته على التخلص من المنصور الذى حجر على ولدها الخليفة هشام بدليل أن شعار جيش زيرى كان : هشام يا منصور •

ولكننا نستطيع أن نقول بأن كل هذه الأسباب — ان صحت — اتخذها زيرى ذريعة للثورة ، أما السبب الحقيقى للثورة فهو رغبة زيرى القوية في الاستقلال ببلاده عن الدولة في الأندلس •

رأى المنصور ضرورة القضاء على هذه الثورة التى تشكل خطرا على النفوذ الأموى في المغرب ، فأرسل جيشا الى المغرب بقيادة مملوكة واضح الصقلبي — صاحب ثغر سالم — وسار الى طنجة ، وانضم اليه جموع البربر هناك ، على حين استصرخ زيرى بن عطية قومه زناته ، فعظم أمره وقوى بأسه ، لذلك استطاع صد هجوم جيش الأندلس ، وأرتد واضح عن فاس • هنا تآد المنصور كل جيوش الأندلس الى الجزيرة الخضراء ، وأرسلها الى المغرب بقيادة ابنه المظفر عبد الملك ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة بالقرب من طنجة دون نتيجة حاسمة • فجأة اغتيل زيرى بن عطية ، ويبدو أن المنصور كان من وراء هذه المؤامرة التى أدت الى تشتيت شمل جيشه ، ومزق عبد الملك جند زيرى هزمهم ، واستولى على فاس وسجلماسة ، ودانت ببلاد المغرب لأقصى بالولاء والطاعة للدولة الأموية سنة ٣٨٩ هـ ، وعهد المنصور الى واضح بحكم بلاد المغرب •

أعمال المنصور الادارية والمعمارية

كان ابن أبى عامر اداريا من الطراز الأول ، واستغل سلطاته المطلقة لمصلحة الدولة والشعب ، وكان يواصل الليل بالنهار فى العمل ، ويقال ان ساعات عمله تجاوزت عشرين ساعة فى اليوم فى خدمة الدولة وتنفذ أمورها بنفسه ، ووكّل مهام الدولة الى رجال يثق بهم ، وكان يراقب أعمالهم بنفسه ، ويث عبونه فى كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وكان اداريا قديرا حازما ، وعلمتم أنه رغم أعماله المدنية وأعبائه الادارية الكبيرة كان يقود الجيوش بنفسه .

اهتم المنصور بتنظيم الجيش ، وأنشأ صفوفًا جديدة من المرتقة من زناته وصنواجه وغيرهما من قبل البربر ومن الجند النصارى من ليون وقشتاله ونافار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعده ورفقه وجوده ، وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وآخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد ، وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم فى أيام الناصر ، ما تزال قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، واضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر ، فألقى الميدان ممهدا لخطه ، فلم تلبس سياسته الجديدة معارضة ، وبذلك جعل المنصور الجيش ، جيشا نظاميا دائما ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المخلفة كالعرب والبربر والصقالبة ، وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتبا سوريا من الدولة حسب رتبته ، وزالت بذلك العصبية القبلية من فرق الجيش .

واهتم المنصور بالمحافظة على الأمن والطمأنينة فى البلاد كما اهتم بالقضاء ، وراقب أعمال القضاء ، حتى يحكموا بالعدل ويمنعوا الظلم .

ومن أهم الانجازات المعمارية للمنصور تأسيسه مدينة ملكية جديدة ، يتخذها مركزا مستقلا للإدارة والحكم ، ويتخذها مظهرا

للمسـلطان ، وسمى مدينته الزاهرة ، سنة ٣٦٨ هـ ، وتقع بالقرب من قرطبة ، وأنشأ المنصور بنا قصرًا بلوكيا فخما ومسجدا ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سورا ضخما ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ، وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، واقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة ، فشيّدوا الدور العظيمة وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرياضها بأرياض قرطبة .

وفي سنة ٣٩٢ هـ توفي المنصور وهو منصرف من غزوة شمالية بالقرب من مدينة سالم ، وقد تنفس نصارى الشمال الصعداء ، فقد كتب أحد الرهبان في تقويمه عن هذه الجملة ، في سنة ١٠٠٢ م مات المنصور ودفن في الجصيم . وهذا يدل كما يقول دوزي على مقدار المـرارة والحصرة التي يشعر بها النصارى من هزائم المنصور لهم .

عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور

ويموت المنصور تنفس ملوك أسبانيا المسيحية الصعداء ، وغمرتهم موجة من الفرح والاعتباط فلقد دمر المنصور بلادهم ، واكتسح سهولهم ، وهدم حصونهم ومعقلهم ونشر الذعر والهلع في قلوبهم ، وشرد جيوشهم ، وأزال سيادتهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة ، وغزواته المتكررة . فلما مات كتب مؤرخ لاطنى في حواريته : « مات المنصور سنة ١٠٢ هـ ، ودفن في النار » .

ولما علم هشام بموت ابن أبي عامر استقدم أبا مروان عبد الملك ابن المنصور ، وأمره بقمع حركة الفتيان الصقالية الذين استغلوا هذه الفرصة لاسترجاع نفوذهم القديم وحذره الخليفة الواقعة الدماء ، وخلع عليه ، وأخرج معه كتابا بولاية الحجابة مكان أبيه . وهكذا قام عبد الملك بالحجابة ، وتلقب بالمظفر سيف الدولة في ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقضى على حركة الفتيان الصقالية ، ونفى بعضهم إلى سبته . وكان عبد الملك قد ورث كثيرا من صفات أبيه ، فاستوسق له الأمر

واجتمع الناس على حبه لعدله وإنسانيته وحمايته للشرع ، وسهره على رعيته ، وتصرته للمظلومين ، وجهاده في سبيل الله « حتى آيس الاعداء من دولة بنى عامر ، وعلّموا انها وراثه » . وذكروا أنه كان يزور الصالحين والاولياء في المقابر ، ويستهدى أدعيّتهم . ويذكر ابن الخطيب زيارته لأبى أيوب . كذلك كان يزور المسجونين ويتفقد حال المسجونين ، ويكشف عن ظلال سجنهم فيطلقه . ويذكر ابن بسام نقلاً عن أبى مروان بن حيان فقرات ذبها وصف لحالة البلاد في عهده منها : « راقى أيامه ، وأحببه الناس سرا وعلانية ، وأنصب الأقبال والتأييد عليه انصباباً لم يسد مع مثله ، وسكن الناس منه الى عفاة ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمت أثمان هذه الاشياء في مدته ، وبلغت الاندلس في أيامه الى نواية الجمال والكمال وسعة الحال ، في كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الايام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن » .

ويضيف ابن حيان في ذكر حسناته ومآثره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حياء . نال حظوة الخليفة ورضاه ، فظفر بلقب المظفر ، وظفر ابنه بلقب ذى الوزارتين . ولكن لم يتح لعبد الملك أن يتمتع طويلاً بهذا اللقب ، اذ اعتل أثناء عودته من صائفته الى قلوونية . من بلاد شبانجة بن غوسية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الذبحة الصدرية ، وتوفى بالقرب من قرطبة في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) .

وفي عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثرا كبيرا في الاحداث السياسية أهمها :

الفتى الكبير طرفه ، والوزير عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف أنظر كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم .

وحاول المظفر بعد عودته من غزوته المذكورة أن يجمع صفوفه ،
ويفاجئ العدو بشاتية ، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضا ، وازداد
مرضه في الطريق • ودكر ابن عذارى أنه كان مصابا بذبحة أنهكه وتوفي
وهو عائد الى قرطبة بعد سبع غزوات •

لما توفي عبد الملك خلفه أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن مثل أبيه وأخيه
في قوة الارادة وقضى حياته في لهو وعيب ، وساعت أحوال انبلاء في
أيامه ، وأصبحت البلاد على تدهي الانهيار ، وحدثته نفسه بالاستيلاء على
السلطة الشرعية ، وهذا أمر لم يجزأ عليه أبوه وأخوه ، وكان هشام
ضعيفا يوافقه على كل ما يطلب منه ، وطالب منه عبد الرحمن أن يعهد اليه
بولاية العهد فوافقه هشام ، وكتب عهدا بذلك جاء فيه : أن الخليفة لم
يجد من هو ائح لولاية العهد من هذا القحطاني عبد الرحمن • وقد عجل
هذا العمل بالقضاء على الدولة العامرية ، فكبر على الناس ضياع الخلافة
من قريش ، ورفض المصريون توليه اليمينيي الخلافة ، كما رفض البيت
الأموي ضياع الخلافة منه ، وثار البلاد ، وانتهر المعارضون فرصة
غياب عبد الرحمن ببيع بعض الغزوات في الشمال ، وخلعوا هشاما من العرش ،
وولوا رجلا من احفاد الناصر هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير
المؤمنين الناصر ، ولقبوه المهدي بالله ، فعاد عبد الرحمن مسرعا من اشمال ،
ولكن جنوده انفضوا من حوله ، وهاجمه الثوار وقتلوه سنة ٣٩٩ هـ •

وبموته انتهت الدولة العامرية • وهذا يدل على أن الناس مرتبطون
بالخلافة كل الارتباط •

بقى من عمر الخلافة الأموية ٢٣ سنة ، وهذه الفترة اصطاح على
تسميتها بعصر الفوضى ، فقد اضطربت البلاد ، ولم يستطع الخلفاء
الاستمرار في الحكم الا لفترات محدودة حتى أن من ولي الخلافة في فترة
الفوضى ، يزيد على من وليها في القرون الثلاثة الماضية وظهرت العصيات ،
واشتد النزاع بين الصقالبة وأهل قرطبة والبربر ، وأعطت هذه الحروب

الاهلية الفرصة لنصارى الشمال لاسترداد كل ما أخذه الحاجب المنصور ابن أبى عامر ، بل توسعوا أكثر من ذلك على حساب ملك المسلمين ، وكان زعماء العصبية يستعينون بالنصارى ضد خصومهم من المسلمين وانتقل بنو حمود من سبته الى الاندلس ، واستقروا فى قرطبة ، وحاولوا السيطرة على الاندلس ، ونازعوا الامويين السلطة والنفوذ فى الاندلس .

وفشل بنو أمية فشلا ذريعا فى استعادة وحدة البلاد وقوتها ، وانتهت بموت آخر خلفائها المعتمد بالله . وبموته أعلن الوزير أبو محمد بن جهور ، انتهاء الخلافة لعدم وجود من هو جدير بها ، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهورى عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة وتبع سقوط الدولة الأموية ، انقسام الاندلس الى دويلات متنازعة ، فسيطر البربر على الجنوب ، وخضع الشرق للصقانية أما البقية الباقية فقد آلت الى المتغلبين . وقد حكم فى هذه الفترة التى تقع بين عامى (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) نحو عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينة . ومن أشهرهم بنو عباد فى أشبيلية وبنو حمود والادارسة فى مالقة والجزيرة ، وبنو زيرى فى غرناطة ، وبنو هود فى سرقسطة وبنو ذى النون حكام طليطلة وبلنسية ومرسية والمريه .

وعلى الرغم من هذا التمزق ، فقد ازدهرت الحياة الادبية فى الاندلس وتنافس الامراء بتزيين بلاطهم بالعلماء ، وكان الفلاح أو الصانع يروى الشعر ، ويقرأ فى فروع العلم ويجاس فى المسجد للدراسة .

وتجدر بنا الاشارة الى شيخ جليل عاصر هذه الدولة وهو ابن حزم وينسب الى أصل فارسى ، دخل جدة فى خدمة يزيد بن أبى سفيان ، وفقدت أسرته الى الاندلس ، وأقامت فى غربها حيث ولد صاحبنا سنة ٣٨٤ هـ ، بدأ حياته بالثقافة الابتدائية فى عصره ، وهى حفظ القرآن . وبعض الأشعار ، والكتابة والقراءة والحساب ، وكان أبوه وزيرا فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ولكنه عزل ، وحلت به النكبات ، وعانت

الأسرة في بؤس وشقاء ، وتوفي أبوه سنة ٤٠٢ هـ . واضطرت الأسرة الى مغادرة قرطبة سنة ٤٠٤ هـ بعد اشتداد عنف البربر ، واستقرت في المريه .

عكف ابن حزم في سبببه على دراسة العلوم الاسلامية خصوصا الحديث والأخبار ، ولما ذهب الى نانسيه ، عكف على دراسة الفقه وتأن ابن حزم يدرس كل ما يصل اليه من كتب ، وعلى كل من يلقاه من شيوخه .

ولقد تعرضت أسرته للاضطهاد ، بعد أن حكم قرطبة آل حمود ، واتهموا أسرة ابن حزم بمحاولة إعادة انكم الى الأمويين واستوزر الخليفة الأموي المستظهر الذي استرد قرطبة من آل حمود — ابن حزم ، ولكن هذا الوزير لم يلبث أن قتل في هذا العصر المضطرب ، وزج ابن حزم في السجن ، ثم أفرج عنه .

وعاد ابن حزم الى الاشتغال بالعلم والدرس ، وانصرف على دراسة الفقه والحديث والجدل والدعوة الى الاسلام ، والرد والتصدي لأعداء الاسلام ، ثم عاد الى السياسة ، وشغل منصب وزير الخليفة المعتمد — آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس — وهذا آخر عهد ابن حزم بالسياسة وظل ابن حزم على ولاء تام للأمويين ، وكان يقف الى جانبهم ، ويؤيدهم ، ويتولى المناصب الهامة في دولتهم ، ويتعرض للأذى في سبيلهم .

لما اضطربت الدولة الأموية سنة ٣٩٩ هـ ، اضطربت معها أسرة ابن حزم ، فأخذت تنتقل من بلد لآخر ، ولم يستقر لها مقام ، فانتقلت من سرق قرطبة الى غربها ، ثم انتقلت الى المريه ، ثم كان النفي ، ورغم ذلك كان يعيش في رغد من العيش ، وكان لانتقال ابن حزم من بلد لآخر ، أثر كبير في تفكير الناس ، الكثير من الناس يستمعون اليه ، ولكن بعض الفقهاء عارضه وكان ينشر آراءه أينما حل ، وكان الفقهاء يأخذون عليه مخالفته

للمذهب المالكي ، ونقده الشديد لهذا المذهب الذي لا يعتمد تماما على النصوص •

تنقل ابن حزم بين بلدان الأندلس التي انقسمت الى دويلات يسر علمه وآراءه على الناس ، حتى نزل بإسبيليه ، ويحكمها المعتمد بن عباد ، وقد استنكر آراءه ، وأمر باحراق كتبه ، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين استنكروا مهاجمة ابن حزم للإمام مالك والأئمة الأربعة ، وخروجه على الناس بفقه لا صلة له بفقه الأئمة الأربعة •

يضاف الى ذلك أن المعتضد كان ساخطا على ابن حزم لأنه أموى النزعة ، وفي تنقلاته بدون الأحداث ، وخشى المعتضد أن يكون ابن حزم قد استهدفه ، فرأى احراق كتبه ، ولذا يقول ابن حزم أن علمه الذي في صدره لم يحرق ، وأنه معه حيث تنقل ، وان أوراقه التي أحرقت ، سيسجل غيرها ، أو يحدث به الناس ، أو يموت في صدره •

انتهت رحلات ابن حزم الى الإقامة في قرية يملكها أسلافه ، وآلت اليه ، وهو يشغل كل وقته في البحث والتأليف والتدريس لطلاب العلم ، ولم يعر اهتماما بالمجادلين والمعارضين نه وبلغت شهرته الآفاق ، وكان الطلبة يفدون عليه من كل مكان ، وهذه القلة القليلة من طلاب العلم الذين كانوا يتعلمون منه في ضيعته في أيامه الأخيرة ، هي التي نشرت علمه من بعده • ولم يعد التاريخ يذكر ابن حزم وزيرا أو سياسيا بارزا ، إنما يذكر له شهرته كامام مجدد وظل يدرس ويعلم حتى وفاته سنة ٥٠٦ هـ •

تفقه ابن حزم في علوم متنوعة ، كان كاتبا أدبيا ، عالما في الفلسفة والمنطق ، له آراء فريدة في الفلسفة حتى أنه يعارض آراء أرسطو في المنطق ويكتب التاريخ بكل دقة ، ويخاصه من المبالغات والشوائب ويحقق في الانساب بدقة وعمق ، وكان حافظا للحديث ومحيطا به وفوق ذلك فقيها أحيا وجدد علم الظاهر ، لأنه المنهاج الذي يتمكن به من بيان أحكام القرآن والسنة • يضاف الى ذلك أنه عالم بالملل والنحل غير الاسلامية وانفرد

الإسلامية ، ولا يقصد في عام العقائد إلا ما كان واضحا ظاهرا ولا يقصد الى المناهج المعقدة المتأثرة بمناهج اليونان •

ويناقش الفلاسفة ، ويستنكر معتقداتهم بالدليل القاطع • وبذلك لم يدع ابن حزم فرعا من فروع العلم إلا تناول به بالدرس وهو من أكثر العلماء تأليفا وتصنيفا ، بحث في العلوم الإسلامية كلها •

كان ابن حزم عالما في العلوم النقاية كال تفسير والفقه والحديث وعلوم اللغة ، كما كان عالما في العلوم العقلية خصوصا المنطق والفلسفة والتاريخ ، وصنف كتباً قيمة في هذه المجالات ومن العلماء الذين اعترفوا لابن حزم بالتبصر والاجتهاد المطلق والنقافة الواسعة والعلم الغزير تلميذه الحافظ الحميدى • قال كان أبو محمد حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستتبطا للأحكام من الكتاب والسنة ، متقنا لعلوم جمّة ، عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له لأبيه قبله ، في الوزارة وتدبير الملك ، متواضعا ذا فضائل جمّة ، وتواليف كثيرة ، في كل ماتحقق به من العلوم ، وجمع من الكتب والمصنفات والمستندات كثيرا ، وسمع سماعا جمّا ، وما رأينا مثله وكان له في الآداب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم •

وقال ابن خلكان : كان ابن حزم حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستتبطا للأحكام من الكتاب والسنة ، بعد أن كان شافعى المذهب ، فانتقل الى مذهب الظاهر ، وكان أديبا شاعرا ، طبيا ، له في الطب رسائل ، وكتب في الأدب •

أما عن أسلوب ابن حزم — في كل هذه المؤلفات والمصنفات فهو

أسلوب المفكر الدقيق العميق ، الذى يجعل من اللغة أداة طيعة للتعبير عن أفكاره ومعانيه ، دون لغو أو حشو ، ودون استطراد أو خـروج عن الموضوع •

أما أشهر مؤلفات ابن حزم فى التاريخ :

- جوامع السيرة
- أسماء الصحابة الرواة
- القراءات المشهورة فى الأمصار
- أسماء الخلفاء والرواة
- جمهرة أنساب العرب
- نقاط العروس فى تواريخ الخلفاء
- رسالة فى فضل علماء الأندلس
- رسالة فى أمهات الخلفاء
- الامامة والسياسة فى سير الخلفاء
- ذكر أوقات الأمراء وأيامهم فى الأندلس
- غزوات المنصور ابن أبى عامر

وأحصى الزميل الأستاذ الدكتور صلاح الدين بسيونى رسلان، مؤلفات ابن حزم فى الفلسفة وعلم الكلام ، فبلغت ٢٢ كتابا ، وفى الفقه والشريعة ٤٤ كتابا ، وفى التاريخ ٤٣ كتابا ، وفى اللغة والأدب سبعة كتب ، وفى الطب سبعة كتب ، وبلغت بذلك مجموعة كتبه ١٠٤ كتابا ، وهى الكتب المعروفة التى لم تفقد ولم يتسرب اليها العبث •

نشأ المذهب الظاهرى للحفاظ على النصوص ، والوقوف عندها وعدم تجاوزها • والمقصود بالظاهر ، هو ظاهر اللفظ من ناحية اللغة أى ضرورة الأخذ بالمعنى اللفظى الظاهر للكلام ، وتجاوز النص يعتبر تبجيلا لكلام الله ، ولقد سبق ابن حزم بذلك المنهاج داود بن على ابن خلف البغدادي ، واختار ابن حزم هذا المذهب ، لأنه مذهب الكتاب

والسنة ، واجماع الصحابة ، وليس لأحد فيه أن يقلد أحدا ، وفي نفس الوقت يقول ابن حزم : ان التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ يقول أحد من غير برهان •

ويقرر ابن حزم : أن أهل النظر والادراك ، ومن توافرت عندهم أدوات الاجتهاد ، لا يسوغ لهم أن يقلدوا اماما في كل ما يقوله أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح • ويقول ابن حزم : ان الناس فريقان : أحدهما تخصص للدراسات الاسلامية ، فتوافرت له الأسباب لتعرف الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله من غير توسط أحد ، وهم الأئمة المرشدون ، والثاني العامة لم يدرسوا الاسلام ، ولكنهم يريدون معرفة ما عاينهم من واجبات ، لذلك هم في حاجة انى التعرف على أحكام الدين من العلماء المقربين منهم ، والمنهج الظاهري الذي اختاره ابن حزم يفتح باب الاجتهاد ، لأنه المذهب الذي يستند الى الكتاب والسنة مباشرة ، ويأخذ الالفاظ بظواهرها اللغوية ، ولا يحاول تحليل الأحكام واستخراج العلل وتعميمها بل يأخذ المعنى التكيفي من اللفظ •

ويذكر ابن حزم ان المصادر الرئيسية للفقه الاسلامي ، هي القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، ونص كلام الرسول (ﷺ) والاجماع ، وهو ما أجمع عليه شيوخ وعلماء الجماعة الاسلامية ، والقرآن الكريم هو الأصل لهذه الشريعة • ويأخذ ابن حزم بظاهر القرآن الكريم ، لذلك كان كل لفظ من القرآن يؤخذ على مقتضى ظاهره أو يقول ابن حزم : ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله اليينا الذي التزمنا بالعمل بما فيه وجب الانقياد لما فيه ، فكان هو الأصل المرجوع اليه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فما في القرآن من أمر ونهى فواجب الرقوف عنده ، والسنة عند ابن حزم تفصل ما في القرآن من عموميات ، وأهل الظاهر يأخذون بظواهر النصوص ، ولا يقبلون التحليل والقياس • ويرى ابن حزم أن النصوص لا تتعارض ، ولا يوجد

تضارب بين نصوص القرآن والسنة ، بل النصوص كل متكامل تبين وتوضح أحكام الشريعة الإسلامية ، وما دام المصدر الإسلامي للشريعة هو الله فلا يمكن أبدا وجود تعارض بين النصوص •

ويقرر ابن حزم أن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد ، والنسخ في نظر ابن حزم بيان للأحكام ولا ينتكر للنصوص ، لأن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد •

والاجماع في نظر ابن حزم ، هو ما نقلته الأمة كلها عصرا بعد عصر كالإيمان وأصول الصلوات المفروضة وأوقاتها وعدد ركعاتها والصيام وشهره ووقته والحج ووقته وركته •

ويوضح ابن حزم أن الاجماع من غير نص غير ممكن لاستحالة الاجتماع ، ولاختلاف أساليب تفكيرهم •

ويرى ابن حزم أنه لا رأى في الدين ، فليس لأحد أن يجتهد برأيه ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى ، لأنه لا يحق لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول الله ، وما يتوصل إليه الشيوخ من آراء واجتهادات هي أحكامهم ، وإيست حكم الله تعالى ، ولا يحل لأحد الحكم بالرأى ، وينفى ابن حزم القياس •

ولا يجوز في رأى ابن حزم تقليد أحد لا من الصحابة ولا من غيرهم ويعتبر أن الأخذ برأى الصحابي من غير دليل من السنة ، غير صحيح لأنه لا يؤخذ الا من الكتاب والسنة أو الاجماع القائم على نص منها أو الدليل المقتبس من هذه الأمور الثلاثة •

انتشر المذهب الظاهري في الدولة الإسلامية بعد وفاة ابن حزم نشره تلاميذه في أقاليم الدولة الإسلامية ، سرقها وغربها ، وظهر في

الأندلس فقهاء ظاهريون ، ومنهم الحافظ أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن ، وقد طاف بأقنيم الأندلس كلها ، وتوفي سنة ٦٣٣ هـ ، وكان محبى الدين بن عربى ظاهريا ، وكان ابن عربى فى عصر الموحدين الذين نشروا المذهب الظاهرى فى المغرب والأندلس • ويوضح شيخنا الجليل الامام محمد أبو زهرة : أن آخر القرن السادس الهجرى وأول القرن السابع عصر ازدهار المذهب الظاهرى ، فقد ساد بلاد المغرب والأندلس فى عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) واستمر من بعده • وفى أيامه « انقطع عُم الفروع وخاصة الفقهاء ، وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن جرد ما فيها من أحاديث رسول الله والقرآن ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد •

تأثر ابن حزم فى شعره باشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ ، وخضع فى مذهبه الشعرى الى تفضيل مواضيع ذات طابع دينى • ولقد تأثر ابن حزم فى شعره بالاضطرابات التى سادت الأندلس والفتن التى مزقت هذه البلاد ، وشهد فى شبابه دمار قرطبة ، وتغير مجرى حياته ، فبعد أن كان مترفا فى معيشته ، ذاق مرارات الحرمان والبؤس ، ولكن ابن حزم صمد للشدائد والصعاب وأحيت المحن التى تعرض لها ابن حزم ملكات أفادت مجتمعه تشعبت وتنوعت ثقافة ابن حزم حتى اشتملت جميع أنواع المعرفة فى عصره - ما عدا الحساب والهندسة - فلقد تمخص فى عاوم الحديث والفقه والأديان واللغة والنحو والأدب والتاريخ واطلع على المؤلفات الأندلسية ، ودرس المنطق والفلسفة والفلك • وتدل رسالته فى فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بلاده فى تاريخها ورجالها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها (١) •

ويقول صاعد : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى عاوم اللسان والبلاغة

(١) أحسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي ص ٣١٥ •

والشعر والسير والأخبار ، وكان جماعا للكتب ، جمع منها في عاوم الحديث والمصنفات والمستندات شيئا كثيرا ، كما كان كثير التقييد لايدع شيئا يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة لذلك كثرت مؤلفاته وبلغت أربعمئة مجلد .

كان ابن حزم يقول الشعر بسرعة على البديهة ، ولذلك كثر شعره ، وأكثر ما ذكره دون العشرين كان في الغزل ثم رثاء لجاريته ، وكان يرسل بعض أقاربه وأصدقائه بالشعر ، وتمتلىء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه الى تمجيد الزهد ، وبعضها في تسبيح الله وتمجيده واثبات حدود العالم ، وبعض قصائده يحث فيها على دراسة الحديث ، ومن قصائده الرائعة القصائد الذاتية التي يدافع فيها عن اتجاهاته ، ويندد بكراهية بعض الناس له وانكاره لفضله . وتظهر في بعض أشعاره الروحانية الغيبية كلما وجد قلقا من التشدد بالأخذ بالظاهر (١) .

يعتبر كتاب طوق الحمامة لابن حزم كتاب في الحرب لفقيه من فقهاء الأندلس ، قضى حياته في المجادلات الدينية ، حيث عرض في هذا الكتاب أشعاره الغزلية المتنوعة ، ويقصد من ذلك تصوير بعض مواقف حياته مخفيا أسماء بعض الأشخاص حينما مصرحا بها حينما آخر ، لذلك فان الكتاب ترجمة ذاتية ، تصور حياة صاحبه ومجتمعه والعلاقات الاجتماعية ، وفي هذا الكتاب يوضح نوعا من الحب ، وهو الحب العذري ، لم يكن معروفا في الأندلس من قبل .

ويبدو أن ابن حزم ألف كتابه بعد خروجه من قرطبة ، اذ تقتضح في هذا الكتاب حسرته الشديدة على خروجه من قرطبة ومفارقته أهله ودياره التي خربها البربر ، ويتحدث عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، ويبدو أنه صنف كتابه بعد اعتزاله للحياة السياسية أي بعد

(١) المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٤ تاريخ للأدب الاندلسي

حوالى سنة ٤١٩ هـ ، وقد ذكر في سبب تأليفه لهذا الكتاب بأن صديقا كلفه بتصنيف رسالة في الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، فصف هذا الكتاب (١) .

وقسم ابن حزم رسالته هذه الى ثلاثين بابا ، عشرة منها في أصول الحب ، ثم كيف يتدرج من التعرض الى الاشارة الى المراسلة الى السفارة — اثنا عشر في أغراض الحب وصفاته محمودها ومدمومها وهو يقرن كل صفة بما ينقضها — وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحب — وخاتمة في بابين تحدث فيهما عن قبح المعصية ، وعن فضل التعفف ، لكى يقرن الحب بروح اتدين ، ويكون كلامه فيه داخلا في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويوسع ابن حزم في هذه الرسالة من مدلول الحب ، ويفص قصصا عن الصداقة ، وحكايات عن الأدب المكسوف .

والنفس بطبعها جميلة تولع بالجمال .

وأفضل ضروب المحبة عند ابن حزم محبة المتحابين في الله عز وجل أما الاجتهاد في العمل ، وأما الاتفاق في أصل النحلة والمذهب . وأما الفضل علم يمنحه الانسان ، ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والائتراك في المطالب ومحبة التصاحب والمعرفة . . . وتكلم ابن حزم عن أنواع المحبة ودرجاتها ، والحب العاطفى ، والحب التجسدى ، والحب المنقائم على الزهو والغرور :

فكما العقل واحد ليس يدري
خلقا غير واحد رحمان
فكذا القاب واحد ليس يهوى
غير فرد مباعد أو مدان

وكذا الدين واحد مستقيم
ركفور من عنده دينان

ويتكلم عن أنواع الحب ويقول : أعلم أن للحب حكما على النفوس
ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرًا لا يخالف ، وحدا لا يعصى ، وملا
لا يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد ، كما تحدث عن آفات
الحب .

بدأ ابن حزم رسالته بالدفاع عن الحب وجلاله ، ويقول : أوله
عز وآخره جد ، دنت معانيه لجلالها من أن توصف ، فلا تدرك
حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة ،
إذ القلوب بيد الله عز وجل ، ويعرف ابن حزم الحب تعريفاً فلسفياً
بقوله : وقد اختلف الناس في ماهيته ، وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب
إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المتسومة في هذه الخليقة في أصل
عنصرها الرفيع (١) .

والحبة عند ابن حزم لا تقوم بين متنافرين أو متضادين ، لأن
المخلوقات إنما تتصل أو تنفصل بسبب تمازجها أو تباينها ... والمجانسة
عمل محسوس وتأثير مشاهد ... وكلما كثرت عناصر المشاكاة بين
المتحابين زادت المجانسة ، وتأكدت المودة .

إن الحب ثمرة المشاكاة بين الحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازدواج
النفسين وامتزاج الشكاين ، وهو دليل على تمازج الروحين .. وينبعث
من تجانس الأرواح نور ساطع ، تبرز لأشراقه طبائع الحياة .

ومن أبرز كتب ابن حزم كتاب « الفصل في المال والأهواء والنحل »
تكلم فيه عن الفرق المخالفة لدين الإسلام ، وناقش آراء الفلاسفة

(١) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٥ — ٦ .

صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم .

لهيما وراء الطبيعة ، وتكلم عن فرق النصارى شارحا آراءهم ، وتحدث عن الأنبياء والمرسل ، ورد على المعترضين على الشرائع ، وكذب عن اليهود وعلى من أنكر التثنية من النصارى ومذهب الصابئين ، ومن أقر بنبوذة زرادشت من المجوس وأنكر ما سواه ، كما تكلم عن المتناقضات الظاهرة في التوراة والانجيل ، وأبرز أن السامرة بأيديهم توراه غير التوراة الذى مع اليهود ، وناقض بعض ادعاءات اليهود الباطلة بوصف قيام بنى اسرائيل على موسى ، وتكلم عن فصول التوراة وما فيها من تحريفات ، وذكر بعض ما ورد في كتبهم ، فأوضح ما نقره من كتب التوراة والأنبياء ، وناقض خطأ من أنكر أن التوراة والانجيل غير محرفين ، وذكر شيئا من كلام أحبارهم .

ثم تكلم عن الانجيل وكتب النصارى وما فيها من التناقض ، وذكر ما تثبته النصارى بخلاف نص التوراة ، وذكر متناقضات الاناجيل الأربعة ، وذكر بعض الأكاذيب في كتبهم ، وتكلم عن بعض اعترافات النصارى على المسلمين وبيان فسادها ، وتكلم عن بطلان ما تمسكت به النصارى من بعض أقوال المرافضة وبيان بطلانها . وذكر فصولا يعترض بها الملحدون على ضعاف المسلمين ، وتكلم عن كروية الأرض ، وكذب من ادعى أن مدة الدنيا عددا معلوما وذكر مرق الاسلام ، وأوضح النحل ، وتكلم عن آراء المرجئة في الايمان والكفر ، وأوضح خروج بعض الفرق على الدين الاسلامى ، وتكلم عن التوحيد ونفى التشبيه ، وتكلم في صفات الله وفي الحياة وناقض مسائل في السفط والرضا والعدل والصدق والملك والخلق والجود والارادة والسقاء والكرم .

الممالك النصرانية خلال القرن العاشر الميلادي

لما ضعف أمر المسلمين في الأندلس ، وانسدت الصراع بين القوى الإسلامية في هذه البلاد ، قريت الممالك النصرانية في مطلع القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، التي خافت مملكة جليقية ، وسيطرت على ولاية قشتالة في اواسط أسبانيا الشمالية ، اشدت بأسها وقوى أمرها ، وأصبح في امكانها التصدي للمسلمين بل وتوجيه الضربات العنيفة لهم .

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر كان مسيطرا على الأندلس مهابا في هذه الديار ، الا أن النصارى بقيادة أوردينو الثاني انتصروا على المسلمين انتصارا حاسما في موقعة ثسانت اشتين سنة ٩١٧ م ولكن النصارى شغلوا عن مواصلة الانتصارات على المسلمين وذلك بسبب الانقسامات الداخلية بينهم ، فقد اشدت النزاع على العرش بين سانشو والفونسو — ولدي أوردينو — وانتهى هذا الصراع بتولية الفونسو العرش بمعاونة حليفه سانشو — ملك نافار — ولكن سانشو لم يستسلم للهزيمة بل جمع أنصاره ، وأعلن نفسه ملكا في ثسانت ياقب في أقاصى جليقية ، ثم سار بجيشه الى ليون ، واستردها وأعلن نفسه ملكا ، وخاع أخاه ، ولم ينته ذلك الصراع بين الأخوين ، بل استمر أعواما حتى توفي سانشو ابن أوردينو سنة ٩٢٩ م ، وولى الفونسو الرابع العرش ، وظل في الحكم حتى توفيت زوجته ، وبلغ به الحزن مبلغا لم يمكنه من الاستمرار في الملك ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو الثاني ، واجأ الى الدير ، ولكنه عاد فقتطاع الى استرداد ملكه ، فانتهاز فرصة غياب راميرو عن ليون لمساندة توار طليطلة ، واستولى على ليون . ولكن راميرو عاد بسرعة الى عاصمة ملكه ، وسمل عيني الفونسو حتى لا يعود الى طلب الملك ، وعاقب بكل شدة كل من سارك في هذه المؤامرة ، وبذلك استقر راميرو في الملك وكان من ألد

أعداء المسلمين ، اذ قضى سننى حكمه فى الهجوم على الأراضى
الاسلامية أو تحريض النوار ومساعدتهم ضد حكومة قرطبة •

قلنا أن القسم الغربى من مملكة ليون يسمى جليقية ، أما القسم
الشرقى فيسمى قشتاله أى القلاع والحصون ، وهذه المنطقة تحولت
فيما بعد الى مملكة قشتاله ، تمتد شرقا حتى هضاب نافار ، وسكانها
من البشكنس وجبال الألب ، وكان رعماء قشتاله يرفضون منذ القدم
سيطرة أهل جليقية عليهم ، وباروا على حكاهم عدة مرات ، ولكن
ثوراتهم فشلت بسبب تكيل منوك ليون للنوار على أن انزعاه
المقستالين تحينوا الفرص للاستقلال عن نفوذ جليقية • وقاد الثورة
الكونت فرنان ، ولكنه فشل أيضا ، واستمر أهل قشتاله فى الثورة ،
وعارضوا حكم راميرو بكل شدة ، واستطاع المسلمون خلال تلك الفترة،
الاغارة على أراضى ليون والعبث بها ، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد
مدينة ساليم التى تقع على الحدود بين أراضى قشتاله والأراضى
الاسلامية ، وتحصينها سنة ٩٤٦ م ، وتحول موقف راميرو — ملك ليون —
من الهجوم الى الدفاع بانسبة للمسلمين •

ترك موت راميرو الثانى — ملك ليون — سنة ٩٥٠ م فراغا سياسيا
كبيرا فى مملكة ليون ، وتنازع ولداه اردونيو وسانشو على العرش ،
بعد أن هزم خصومه ، وهذه الحرب الأهلية مكنت المسلمين من تشديد
حملاتهم على ليون ، واضطر أوردنيو الى طلب العون من قرطبة على
خصومه فى ليون ، وعقد معاهدة صلح مع عبد الرحمن الناصر ، تعهد
فيها أوردنيو بأن يصاح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم
البعض الآخر ، وخلف سانشو أخاه فى الملك ، ولما حاول نقض الصلح
حاربه الناصر وانتصر عليه فعاد الى طلب الصلح ، ونفذ كل الشروط
التي تضمنها كتاب الصلح ، وبذلك عاد السلام الى البلدين •

على أن أشرف ليون أصروا على خلع الملك لهزيمة أمام المسلمين
واحتجوا عليه بأن بدانته تمنعه من ركوب الخيل ، ومن خفة الحركة

في المعركة ، وولوا أردونيو الرابع ابن الفونسو الرابع الملك ملجأ
سانشو الى عبد الرحمن الناصر ، طالبا منه العون والتأييد ، فوعده
الناصر باعادته الى العرش مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين بعض
الحصون الواقعة على الحدود ، وان يهدم البعض الآخر وامده الناصر
بجند مكنته من العودة الى العرش ، وفر أردونيو من ليون .

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، ولم يسلم للمسلمين الحصون
التي وعد بتسليمها ، وثجعه على ذلك وفاة الناصر وانتزع الرعيم
القشتالي قرنان فرصة الاضطرابات في مملكة ليون ، وأعلن استقلال
قشتالة تحت قيادته ، وتقرب الى النصارى باغارة على الأراضي
الاسلامية ، وتوسيع ملكه ، وضم ما يقع تحت يده من أملاك المسلمين
الى ملكه .

ولما رأى انحكم المستنصر خيانة سانشو للمعاهدة ، ساند أردونيو
الرابع على العودة الى العرش ، فتراجع سانشو ، وأرسل الى الحكم
يعده بتنفيذ المعاهدة ، ولكنه نكث العهد ثانية بعد وفاة خصمه أردونيو ،
فشن عليه الحكم حملات حربية واسعة النطاق ، ومزق المسلمون جيش
قرنان — ازعيم القشتالي — كل ممزق في موقعة سنت استين ،
وأرغمته هو وحليفه سانشو — ملك ليون — على طلب الصلح ، وتوغلت
الجيويس الاسلامية في قشتالة ونافار ، وتوالى غزوات المسلمين لأراضي
قشتالة (٩٦٣ — ٩٦٧ م) . وبذلك أخذت قشتالة تظهر على مسرح
التاريخ كإمارة مستقلة تدريجيا وقوى أمرها بمرور الزمن ، حتى
تبوأ مكانتها بعد ذلك كأقوى دولة نصرانية أسبانية تقاوم
المسلمين في الأندلس ، وتوفي سانشو على أثر مؤامرة دبرها ضده أحد
زعماء قشتالة .

خلف راميرو الثالث أباه سانشو في ملك ليون سنة ٩٦٦ م وكان
طفلا في الخامسة من عمره ، فاستنكر الإشراف هذا الحكم وكثرت
الصراعات الاستقلالية ، وانقسمت مملكة ليون ، الى مملكتين ،
قشتالة ونافار .

واضطرب الملوك والأمراء النصارى بعد الضعف الذى حاق بهم ، إلى تحسين علاقتهم مع قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يخطبون وده ، ويرجون صداقته ولما توفى الحكم ، وشغل المسلمون بأمورهم الداخلية ، شن القشتاليون غزواتهم على المسلمين ، وتوغلوا فى الأراضى الإسلامية ولكن الحاجب المنصور تصدى لعدوانهم ، وغزا أراضى قشتالة غزوات متعددة متكررة ، وانتصر على الممالك النصرانية وأضعفها وأخضعها . وأحبط المنصور حرباً شنها عليه ملوك نافار وقشتالة وليون سنة ٩٨١ •

ويأخذ من ضعف مملكة ليون فى عهد المنصور أن استتجد ملكها برمودو بالحاجب المنصور ضد خصومه ، فأعاده المنصور إلى عرشه فى ليون ، وأمدّه بجند لحمايته • وبذلك جلس على العرش فى حماية المنصور •

ونخلص من كل ذلك إلى أن النصارى فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن كانت قواهم تتعزل فى جايقية ، قوى أمرهم ، واتسع ملكهم على حساب المسلمين ، وشيئاً فشيئاً أصبح لهم ثلاث ممالك : قشتالة وليون ونافار ، وكل هذه الممالك تتربص بالمسلمين ، وتسعى كل ما سمحت لها الظروف بالتوسع فى الأراضى الإسلامية ، وضم ما يمكن ضمه إلى بلادهم •

اللغة العربية وآدابها في الأندلس

أدى اندماج عناصر السكان في الأندلس من عرب وبربر وأسبان الى ظهور لغة مشتركة يتحدثون بها جميعا على مختلف فئاتهم ، وهذه اللغة مزيج من اللغة العربية والأسبانية وكان اقضاسة في الأندلس يناقشون الناس بهذه اللغة التي كانت معروفة لديهم ، وسميت هذه اللغة بالرومانسية •

وظهرت الموشحات نتيجة انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الإنجليسين ، وقد أخذ المشرق هذا الفن من الأندلس وتلقزم الموشحة بنظام القوافي الموحدة في القصيدة العربية وتشتمل على قواف متعددة ، ولم تكن وحدتها البيت الشعري وانما المقطوعة الشعرية التي تتكون من عشرين وقفاً ، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجه — كما سنرى — والمخرجة لابد أن تكون باللغة الأسبانية ، أو باللغة العامية الأندلسية الدارجة ، ولا بد أن تكون حادة محرقة ، حارة منضجة ، والمخرجة عادة على لسان امرأة تتغزل أحبائاً في الرجل على عكس الشعر العربي ، فالرجل هو الذي يتوهم الى المرأة أن تبساده الحب ، بينما المرأة متكبرة معرضة •

وانتشرت الموشحات في المغرب والمشرق ، وصارت الموشحة كالقصيدة الشعرية ، واستخدمها الصوفية في مدائحهم وأذكارهم وقد تأثر الشعر الأوربي الشعبي بالموشحات والأزجال الأندلسية ويعرف بالشعر البروفنسي ، الذي كان ينسده المغنون المتجولون في غرب أوروبا •

وقد انتشرت لغة العربية بين المستعربين ، وتأثروا بالثقافة الاسلامية ، والحضارة الأندلسية ، ولعبوا دوراً هاماً في نقل التراث

الإسلامى إلى إسبانيا الشمالية ، بحكم هجراتهم المستمرة إلى مملكتى
مشتالة وأراجون • ولا تزال اللغة الأسبانية تحتوى على الكثير من
الألفاظ والكلمات العربية ، وقد برهن اللغويون على صحة هذا القول
بالدراسات المستفيضة •

ولم تكن الأرجال التى سنتحدث عنها فنا شعبيا صحيحا ، وإنما
كانت مزيجاً من فنين ، فن خاص قديم متداول بين الوساحين ، وفن
شعبى لا سند له من التراث المكتوب • ولم يكن جمهور الزجل أهل
للأزقة والحارات ، كما لم تكن الفئات المميزة التى نظم الشعراء من
أجلهم القصائد •

وللأرجال الصوفية بيئتها الخاصة ، بيئة الفقراء الذين زهدوا فى
الدنيا وهاموا فى حب الله سائحين مغتربين ، ينشدون ويرقصون على
ألحان التصوف ، والبيئة النائية بيئة الشباب الماكن العابث أصحاب
الثروات •

يقول ابن خلدون عن نشأة الزجل ، أنه ظهر تقليد الموشحة
فقد استحسن العامة التوشيح ، فنسجوا على منواله ، جاعلين لغتهم
الحضرية موضع اللغة العربية • ومما لا شك فيه أن الشبه كبير بين
التوشيح والزجل فى أكثر من ناحية ، وخاصة فى الشكل الخارجى وفى
الأوزان ونظام القوافى ، وكذلك فى بعض موضوعات القول والمعانى ،
وقد أدى تطور الأغنية الشعبية إلى ظهور الموشحات ، وتبع ذلك ظهور
الأرجال ، وكل ذلك بلغة بسيطة يفهمها العوام من أهل الأندلس ، وتعبّر
عن عواطفهم وأحزانهم وأفراحهم ، وأحاسيسهم ، وختام الموشحة
قفل يسمى الخرجة •

والمعروف أن الموشحة تتألف من مقطوعات وكذلك الأرجال وكل
مقطوعة تشتمل على وحدتين ، والوحدة الأولى تسمى غصن والثانية
تسمى قفل •

ظهر الزجل في أواخر القرن الرابع الهجرى ، ولم يصلنا من أزجال القرن الخامس الهجرى الا الفزr اليسير ، وكان الزجالون في القرن الخامس يقتربون في فنهم من الوشاحين ، ويتأثرون بهم ، لذلك كانت أزجالهم في لغة عربية سليمة ، تخاطب الخاصة المثقفين ، ذلك أن ملوك الطوائف في هذا القرن حرصوا على النهوض بالأدب العربى وشعره ونثره ، ورفضوا كل نظم ملحون . ولكننا نلاحظ العكس من ذلك في القرن السادس الهجرى ، فقد سيطر المرابطون على الأندلس ، وكانوا لا يتقنون العربية ، ولا يتخوقون الشعر ، لذلك ازدهرت الأزجال في أيامهم . ولا نعرف الا القليل من الزجالين في القرن الخامس ، بينما نعرف الكثير في القرن السادس وعلى رأسهم ابن قزمان . وابن قزمان من أهل قرطبة ، وتوفى سنة ٥٥٤ هـ وقد اشتهل ابن قزمان بالنظم العربى ، فرأى نفسه لا ينسجم مع الاتجاه السائد لعصره ، فعمد الى الزجل المنظوم بكلام عامه الأندلس ، ويعتبر بحق امام الزجالين بالأندلس وديوان ابن قزمان يقدم لنا صورة عن حياة صلحبه ، وجانباً من شخصيته (١) .

وكان ابن قزمان يعيش في بيت جميل وفي حى مزدحم بالسكان

وكان مولعا بالثياب الأنيقة ، ويرتدى دائما فاخر الثياب وهو صاحب ذوق في اختيار الألوان ، ويراعى في تنسيق الألوان في الثياب التى يرتديها . لذلك يكثر من الحديث عن الثياب في أزجاله وكان ابن قزمان مولعا بالشرب واللهو والعبث ، ولا يحب حياة الأسرة ، لذلك ضاق ذرعا بالمرأة التى تزوجها وبمسئولية البيت فديوان أبى بكر ابن قزمان يصور أناقته ولهوه وشرايه وسهراته الخارجية ، واذا تحدث عن البيت ، يتحدث عن الخادمة السوداء ، ولم يذكر زوجة ولا أولادا (٢) .

وقد استنتج الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى من الأزجال

(١) عبد العزيز الأهوانى : الزجل في الانطلس ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ابن قزمان ، أنه بدأ حياته يعمل بالتوثيق ، وهو عمل يستلزم معرفته بالفقه والشروط الصحيحة والفاصلة ، والدقة في ضبط الصيغ واستخدام الكلمات ، ثم هو أديب ينظم الشعر والموشحات والأزجال ، ويحفظ أخبارا ونوادير ، كما أنه جليس ومسامر ، يستطيع أن يدخل السرور والبهجة على جالسيه ، ويضحكهم ويجذبهم اليه . وكان يحصل على المال من مواهبه هذه . وتدل أزجال ابن قزمان على أن مرتبة الشاعر كانت أكثر وأجل من مرتبة الزجال ، وكان تقدير كبار رجال الدولة للشاعر تزيد عن الزجال .

وازجال ابن قزمان توضح مياله الى اللهو والشراب والعشق كقوله :

دنيا هي كما تراها فاجتهد واربح زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تخلى مهرجائك
واشغى عليه من قبل أن يجيء الموت في شأنك

وظل في كبره يقول الزجل في هذا اللون من العبث كقوله :
وليا لي بيت فيها القمر ، في ذراعي من العشا للسحر فانجبر لي
صباي بعد الكبر ، وارتنى غناي بعد العدم .

والأحداث السياسية الجسيمة التي مرت بالأندلس لا تشغل بال ابن قزمان ، ففي عصره كانت الحروب بين المرابطين والنصارى ، ولا يتحدث عن ذلك الا بأزجال قليلة لا تتم عن انشغاله بهذه الأحداث الجسام .

والخلاصة فان ديوان ابن قزمان يصوره تماما في مجالس شرابه وفي جولاته في المدينة ، وخروجه الى القرية في أوقات معينة ويتحدث في ديوانه عن خادمه وكبش العيد وهو يرقص حوله ، ويصور مغامراته ، وأغانيه ورقصه وانشاده لمدوحه بغية الحصول على المال

للبحث عن امرأة أو صبي أو شراء ثوب أنيق • لذلك يجمع القدماء على أن ابن قزمان امام الزجالين ، وكان شاعرا حيا الأسلوب فطنا بخفايا النفوس (١) •

وفي عصر الموحدين عاد الاهتمام بالثقافة العربية الرفيعة ومن ثم عاد الشعر الى مكانته الأولى ، ووجد رواجاً في بلاط الموحدين ، لأنهم يعرفون العربية ، وظهر في عصرهم علماء وفلاسفة كبار كابن رشد •• لذلك فإن الزجل في القرن السابع وبعد عصر ابن قزمان بعد عن القوافي، ومزاحمة الفقرات وتعددتها ، وظلت موضوعاته كما هي ، بحيث يستأثر الحب بالمكان الأول والحديث عن جمال الطبيعة والبساتين والأزهار وظهر لون جديد في الزجل ، وهو الهجاء ولم يظهر زجال كبير في هذا انفرن ، وإنما ظهر وشاح كبير وهو أبو بكر بن زهر ، وقد شهد القرن السابع سقوط قرطبة واشبيلية ، وهزيمة الموحدين في العقاب ، وسقوط المدين الأندلسية في أيدي النصارى ، ولم يبق لهم سوى غرناطة التي صمدت • لذلك انتشر في ذلك العصر الزجل والموشحات الصوفية •

وتحول الزجل في عصر ملوك بنى الأحمر في غرناطة الى فن شعبي، لا يشارك فيه المثقفون • ولقد عاشت غرناطة أيامها في تأهب ودفاع ضد العدو المتربص بها ، وكان كل سكانها يتكلمون العربية ومسلمين ، لذلك كان للشعر مجاله ورواده والزجل جمهوره من غير المثقفين •

وقبل أن نختم كلامنا على الزجل يجب أن نشير الى أغنية حزينة قالها مولاي أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، يبكي ضياع قصره الملكي ، حينما استولى فرديناند وايزابيلا على مملكته :

الحمرا حنينه والقصور تبكى

على ما جرى لمولاي بو عبدالملى

هات لى فرسى ودرقتى البيضا
وشى نمشى نقاتل ونأخذ الحمرا
هات لى فرسى ودرقتى الديدى
وشى نمسى نقاتل ونأخذ أولادى
أولادى فى وادى ياش ومراتى فى (جبل طارق)
ياستى يام الفتى
أولادى فى وادى ياش وأنا فى (جبل طارق)
ياستى يام الفتى

الفصل السادس

المرابطون والموحدون

١ - المربطون •

٢ - الموحدون •

١ — المرابطون (٤٤٨ — ٥٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧ م) :

يكتنف الغموض نشأة المرابطين ، ويبدأ تاريخهم في جناح المغرب الأيمن في الصحراء الغربية أو مايسمى موريتانيا في هذه الصحراء الشاسعة كانت تعيش قبائل صنهاجة وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتدادا لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال ، والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط ، وهذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتأثم ولهذا سميت بصنهاجة اللثام ، وعرف عنهم الشجاعة في القتال وانشر الاسلام بين هذه القبائل عن طريق رحلات التجار أو من السرايا العسكرية، وظلوا حتى القرن الخامس الهجري متفرقي الكُمة بعيدين عن روح الاسلام ، حتى حدثت فيها ثورة دينية اصلاحية ، ألقت بين قلوبهم ، ووحدت صفوفهم ، ويرجع الفضل في نشر هذا الاصلاح السياسي والاصلاح الديني الى يحيى بن ابراهيم الجدالي زعيم المثلثين ، والفقيه عبد الله بن ياسين — وهما من أصل صنهاجي .

وضع عبد الله بن ياسين أسسه الاصلاحية على أساس التمسك بالدين على مذهب مالك ، ونشر دعوته بين قومه ، وبنى رباطه ابتغاء العزلة والعبادة ، ولم تمر اياه أيام حتى اجتمع له حوالى ألف رجل، سماهم المرابطين للزومهم رباطه .

بهذه الرسالة الدينية كان خروج المرابطين من الصحراء بقيادة زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين ، وكانت بلاد المغرب في ضعف شديد مزقتها الانقسامات ، لذلك خرج المرابطون من الصحراء للقضاء على أهل الضلال ، واصلاح البلاد من الفساد .

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني عبد الله

ابن ياسين ، واتجهوا الى بلاد السوس ، وقضوا على الشيعة والوثنيين ، وقاتلوا اليهود المنتسرين في تلك النواحي وأعادوا تلك المناطق الى أهل السنة والجماعة .

نجح المرابطون في اخضاع الزناتيين في المغرب الأقصى ، وسيطروا على المغرب الأقصى ، ثم زحفوا الى المغرب الأوسط وفتحوا مدينتي تلمسان ووهران ، واقتربت قواتهم من الجزائر وبعد كفاح دام عشرين عاما أصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع (٥٤٤٧ — ٥٤٦٧) وتمخض ذلك عن نتائج هامة في تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجه ، فتسيطر صنهاجة للشمال على افريقية ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى ، فارتفع شأن البرانس ، وضعف نفوذ البتر ، واتبع المرابطون سياسة ناجحة في جذب المغاربة اليهم ، فخففوا الضرائب على الناس ، ولم يبقوا من الضرائب الا ما أقره الشرع كإزكاة والعشر ، وكان دستورهم في الحكم كتاب الله وسنة رسوله ، ولم ينعود المغاربة على حكم يتمشى مع تعاليم الاسلام من قبل ، لذلك التقوا حول المرابطين ، وكانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء ، وكانوا في ذلك العصر زعماء الشعب الروحيين ، يمثلون الشعب في تأييد نظام الحكم أو رفضه ، فلما أيد رجال الدين ، المرابطين ، أيدهم الشعب كذلك ، وبدأ واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاعوا لا للفتح ، ولكن لاهياء الدين ، لذلك فكانت المدن والقرى تستقبلهم بالحفاوة والترحاب . والواقع أن المغاربة كانوا في حاجة الى حكم يخلصهم من نير وظلم زناته ، وبالفعل وجدوا في المرابطين خير عون لهم على أعدائهم زناته الظالمين المستبدين .

عظم شأن المرابطين بعد أن قادهم يوسف بنى تاشفين وقادهم في معارك ناجحة لاستئصال المعارضة في المغرب ، واستولى على طنجة وسبته وغيرها ، ولعب دورا كبيرا في بناء صرح الدولة الجديدة . وقد مكن لنفسه في المغرب كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح معاقل حصونه ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها الى الطاعة ، وجمع لبيت المال

ثروة هائلة لذلك يمكن اقول بأن يوسف بن تاشفين يعنبر المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين ، فقد أتم فتح المغرب ، والأندلس — كما سنرى — .

جمع يوسف ثروة طائلة من انغنائم والأسلاب ، ومن حصياه الزكاة والعشور ، واستغل هذه الأموال في جذب قلوب زعماء الملثمين ، وأغدى عليهم ، ووزع الأراضي الخصبة على قبائل المنتمين القادمه من الجنوب ، وولى رجالها الأعمال ، واستطاع بهذه السياسة أن يستميل الزعماء وأن يكسب ودهم ، فانقفوا حوله ، وخضعوا له خضوعاً تاماً ، وعهد الى أقاربه بالمناصب الرئيسية في الدولة حتى يضمن ولاء البلاد له ، وهادن يوسف القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعى زعماءها ويغدى عليهم ، وينظر في مطالبهم . وبذلك عم السلام في المغرب ، وهذأت القبائل واستكانت ، وعم السلام في المغرب بشكل لم تشهده البلاد من قبل ، وأدى ذلك الى طمأنينة الناس ، فانصرفوا الى الانتاج ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ووجدوا في يوسف خير منقذ لهم ، فكان يتفقد أحوال الرعية بنفسه ، وينظر في المظالم ، ويحكم بين الناس بالعدل لذلك نجحت هذه السياسة في التفاف الناس حول الحاكم ، ولما دعاهم للجهاد في بلاد الأندلس ، أقبلوا يلبون نداء الجهاد .
ونشير الآن الى دور المرابطين في الأندلس .

قوى أمر النصارى في عهد الفونسو الثانى سنة ٧٨٨ م ، وتكون خلق من الدول النصرانية ضد القوى الاسلامية في الأندلس ينكون من أرغون وبرشلونة ونافار وقشتالة ، في وقت ضعف الخلافة الأموية ، واستمدت هذه الامارات العون والتأييد من مملكة الفرنجة ، ولكن أضعف من شأن هذا الحلف يقظة الدولة الأموية في عهد الحاجب المنصور ، ولما سقطت الدولة الأموية ، وتمزق شمل الأندلس ، ازدادت قوة النصارى ، ولنهارت مقلومة المسلمين ، وأعاد الملك شانجو وحدة الامارات النصرانية في القرن العاشر الميلادى وأعاد جمع شمل نافار وقشتالة وليون وأرغونه وبرشلونة وبعتبر شانجو باعث حركة

الاسترداد في أسبانيا التي استمرت حتى انتهى أمر المسلمين في الأندلس .

وقوى تسآن وبأس فردناند الأول ، فسعى الى توحيد القوى النصرانية ، وكون جبهة وتحدة من المسيحيين بأسبانيا ضد القوى الاسلاميه في هذه البلاد ، ووطد صلاته بالدول الأوربية حتى يسند منها العون والتأييد ، ونجح في سياسته حتى أن البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣م نظم حملته ضمن قوات فرنسية وإيطالية ، وسير الغزاة في غزو الأراضي الاسلامية .

كشف فردناند القناع عن سياسته المعادية للمسلمين ، فأوضح أنه يريد طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد الأراضي الأسبانية التي اغتصبوها ، فبدأ بمهاجمة أراضي المسلمين منتهزا حالة الضعف التي عاش فيها المسلمون ، والانقسام فيما بينهم وتجنب المسلمون هجماته بدفع الجزية ، وقد دفع الجزية حكام طليطلة وأسيبيلية وسرقسطة وبطليوس ، وجبى من ذلك أموالا طائلة ، ولما زادت قوته كثيرا عن قوه المسلمين اتجه الى سياسة ضم الأراضي الاسلامية الى دولته ، وبذلك اتسعت حدود قشتالة شرفا وغربا .

وضعف تسآن المسلمين ، وقوى فردناند والنصارى ، ويات واضحابان أيام المسلمين في الأندلس ، أصبحت معدودة ولكن موت فردناند سنة ١٠٦٥ م وانقسام الأمراء النصارى على أنفسهم ، أخر هذا المصير المؤلم .

ومضت فترة كان النصارى ممزقين على أنفسهم ، وفي استطاعة المسلمين اغتنام الفرصة لاسترداد أراضيهم وقواهم ، ولكن الانقسامات ظلت قائمة بينهم ، بل كانوا يستعينون بأمراء النصارى في خلافاتهم ، وظل الأمر كذلك حتى استرد انصارى قوتهم ووحدتهم باعتلاء الفونسو السادس العرش ، فوحد امارات النصارى ، ووطد علاقته بالبابا

وبفرنسا وعموماً بالقوى المسيحية في أوروبا ، واتخذت حركة الاسفرداد بعد ذلك شكل الحركة الصليبية بوجهها البابا ويساندها .

اشتدت هجمات الفونسو السادس على المدن الأندلسية ، وكان يفرض عليها المغارم الباهظة ، فإذا عجزت مدينة عن الدفع هاجمها ، وحاصرها حتى يشتد الجوع ويعم البلاء ، ويزداد في طلب المال حتى أرمق المدن الأندلسية وأذلها ، ولما أيقن من ضعف المسلمين الشديد ، اتجه الى سياسة الاستيلاء على المدن رافضا الجزية ، فاستولى على طليطلة ، وكان لهذا الاستيلاء أثر مروع في نفوس المسلمين : وفي نفس الوقت رفع من شأنه عند أهم النصرانية ، فطليطلة عاصمة القوط — كما تعلمون — ثم هاجم قرطبة وسرقسطة ، وبدأت الحصون في سبه الجزيرة تتساقط في يده تساقط أوراق الخريف فاستولى على بلنسية ، وسيطر على بعض حصون مرسية وعلى المرية ، وأصبح مصير الأندلس في خطر ، واتخذ الفونسو في قلب الأندلس حصونا يثن منها الغارات على البلاد الاسلامية وشعر المسلمون في الأندلس بالضعف والمذلة ، وانهارت معنوياتهم ، وساعت أحوالهم المعيشية لأن أمراءهم طابوهم بالضرائب الباهظة ، ادفع ما عليهم من اتاوات « للامبراطور » الفونسو السادس وقد صور مؤرخ أندلسي وضع المسلمين بقوله : « وبالجماة كان الناس قد فسدت أديانهم وانما الدنيا الفانية والزمان على آخره ، وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم » .

لقد يئس ملوك الطوائف من توحيد كلمتهم ، كما يئسوا من قوتهم ، وكان لابد لهم من عون خارجي اذا أرادوا أن يكبحوا جماح الفونسو ، الذي أذلهم ، وأثقل كاهلهم ، ورأوا في المرابطين ضالتهم المنشودة لما عرف عنهم من محبتهم للجهاد والغزو في سبيل الله ، كما أن المرابطين غير بعيدين عنهم ، وترغم محاولات أهل الأندلس هذه ابن عباد — ملك اشبيلية وقرطبة — كان المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية من بنى عباد من قبيلة لخم اليمنية ، وقد اتسعت مملكته حتى شملت قرطبة ، لكنه كان يقاسى من ويلات الفونسو الذي فرض عليه الاتاوات والمغارم حتى

يكف عن الهجوم على ممتلكاته ، ولما ازدادت قوة الفونسو ، ركب العرور وطلب من ابن عباد بعض الحصون ، وأمن في التحرش بمك اشبيلية وأرسل رسولا الى ابن عباد يطالبه ببعض الحصون في أسلوب وقح وفيه استفزاز ومهانة لذلك ثارت ثائرة ابن عباد ، وأمر بقتل رسوله الفونسو ، وطلب في قرطبة ، وأمر ابن عباد بقتل لرسالة هنا تحرك الفونسو الى اشبيلية للاستيلاء عليها ، واسقاط ابن عباد الذي قتل رسوله .

لذلك استنجد ابن عباد بالرابطين على عدوه ، وسافر بنفسه الى ابن تاشفين في المغرب ، واستنجد به ، فوافق ابن تاشفين يدافع الحماس الديني والأطماع السياسية أيضا ، وحشد الجيوش للجهاد ، وأجازها الى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر اليها بنفسه ليقود الجيش ، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة لجيوشه ، وابتهج الأندلسيون لمقدمه ، وروا فيه خير منقذ مما وصلوا اليه من ذل ومهانة . وكان ابن تاشفين متحمسا للجهاد بدليل قوله « انما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذهم من أيدي الروم ، لما رأينا استبدالهم على أكثرها وغداة ملوكهم واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة ... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برحاء للعيش » .

احتلت طلائع الرابطين الجزيرة الخضراء — كما قلت — وعلت صيحة الجهاد في المغرب والأندلس ، فاقبل عليه الناس من البلدين مجاهدين ، وانضمت اليه قوات المعتمد بن عباد وقوات أمراء الأندلس الآخرين ، وبذلك اجتمع شمل الأندلس بعد تفرق ، وتوحدت جهودهم بعد طول نزاع ، وبدا ، وكان يوسف قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ أيام المنصور ابن أبي عامر الذي كانت البلاد في أيامه موحدة الكلمة ، وعاهد يوسف ملوك الطوائف أن يكونوا يدا واحدة وأنه تتصل جهودهم لغزو الروم بمعونته ، وتكونت جيئة اسلامية متحدة

تتصدى للنصارى • وأدرك الفونسو الخطر الداهم على دولته وقوته ، فاستجبد بأمراء النصارى ، ملوك أوربا والبابوية ، ورفع الحصار من سرقسطه ، وأعد العدة لمقاومة الخطر الاسلامى الزاحف • .

زحفت جيوش المسلمين نحو أشبيلية ثم الى بطليوس في غرب الأندلس ، بغية لقاء العدو ، وحينما علم الملك الفونسو السادس بأخبار هذا الغزو ، رفع الحصار عن سرقسطه — كما قلنا — وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين ، فالتقى بهم في الشمال من بطليوس عند الزلاقة ، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين بين الاسلام والنصرانية سنة ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م • وفي بداية المعركة هاجم النصارى معسكرات المسلمين ، فأحدث فيها هرجا ومرجا ، ففر كثيرون من الأندلسيين ، وتقهقروا أمام العدو ، ولكن يوسف لم يأبه بهؤلاء الفارين بل هاجم جيش الفونسو ، وحمل عليه حملة شديدة ، ودرق جيش العدو كل ممزق ، وولوا مدبرين لا يلوون على شيء ، ولا شك أن جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة قد ألقت الرعب في نفوس العدو •

ومما لا شك فيه أن انتصار المرابطين في الزلاقة قد أنقذ الحكم الاسلامى بالأندلس من سقوط محقق ، وثبت احترام المرابطين في الأندلس ، واستطاع المرابطون تكوين دولة في المغرب والأندلس عاصمتها مراكش ، واستقر المسلمون بطنسيه ، وفكوا حصار سرقسطه ، وأوغل جنود ابن تاشفين في بلاد العدو ، وذاعت شهرته ، وفسرح الأندلسيون بمقدمه • وحكم البلاد بالعدل ، ولم يفرض على الناس من ضرائب الا في حدود ما أقره الشرع • وأسقط كل ملوك الطوائف لأنهم بلغوا درجة من الضعف والتخاذل لا تغتفر حتى ابن عباد نفسه ، وأمن الأندلسيون في ظل حكم المرابطين على أموالهم وأنفسهم ، واستتب الأمن وبساده الهدوء وخضع الناس لحكومة واحدة ، وضعف النصارى ، وانكشوا في حصونهم وأوقفوا هجماتهم على بلاد المسلمين ، وخشوا بأس المرابطين ، وتجنبوا الاشتباك معهم •

المرابطون وبنو عباد :

بعد أن سيطر المرابطون على كل بلدان الوادي الكبير وقواعد ممّكه اشبيلية ، واتجهوا لى اشبيلية ، وكانوا يعتقدون أن المعتمد بن عباد ، سيخرج من المدينة لاستقبالهم والترحيب بهم ، ولكنه امتنع بمدينةته ، وأعد العدة لمقاومة المرابطين ، ومنعهم من دخول اشبيلية .

شدد المرابطون حصارهم لاشبيلية ، فاستعان المعتمد بن عباد بطيفه الفونسو السادس — ملك قشتالة — وكانت تجمع بين الفريفيين مصلحة واحدة ، وهى الدفاع عن الوطن الواحد — اسبانيا — . ومهما يكن من أمر فقد اشتبك الفونسو مع المرابطين فى موقعة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين وزعيمهم الفونسو السادس . وانفرد ابن عباد بمقاومة المرابطين ، وانهارت قواته واقتحم المرابطون اشبيلية فى رجب ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وعاثوا فسادا وتخرينا فى المدينة ، وهاجم المرابطون القصر الملكى ، وخرج ابن عباد لمقاومتهم ، وظل يقاتل أمام قصره ويدافع عن بلاده ، حتى تمكن منه المرابطون وأسروه هو وآله ، وقتلوا ابنه مالكا الملقب « فخر الدولة — أمام عينية ، ونهبوا قصور الأمير ، كما نهبوا البلدة نهبا قبيحا . وعلى أثر ذلك سقطت كل بلدان المملكة فى أيدي المرابطين » (١) .

وفى ذلك يقول أحد أبناء الأمير :

يحل زمان المرء ما هو عاقد ويسهر فى اهلاكه وهو راقد
ويغرى بأهل الفضل حتى كأنهم جناة ذنوب وهو الكل حاقد
ويفترق الآلاف من بعد صحبة وكما شهدت مما ذكرت الفراقد

وقتل المرابطون أربعة من أبناء المعتمد ، وقبضوا على المعتمد وبعض أفراد أسرته ، وسيقوا الى أغمات فى موكب حزين وودعه شعبه بالبكاء

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٨٠ — ٨٥ .

والنحبيب ، وتحديث الأدباء والشعراء بإفاضة عن نكبة ابن عباد وعن
المجد المفقود والعز الزائل ، وتقلبات الدهر ، وتغيرات العصر .
على كل حال عاش ابن عباد في معتقله في أغمات بالقرب من مراكنس
وقد عاش المعتمد وزوجته وأولاده في ذل وبؤس حيث ضيق عليهم أمير
المرابطين في الماكل والملبس ، وكانت هذه الأسرة الغنية سابقا لا تجسد
ما يكفيها من المال لأبسط متطلبات الحياة كالملبس ، وكانت بنات الأمير
يغزلن الثياب لأفراد الأسرة ، ويبيعها في الأسواق والتكسب من ذلك .

وفي أول عيد في الأسر يقول الأمير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساعك العيد في أغمات مسرورا
تري بناتك في الأطحار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطلن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطلأ مسكا وكافورا

ولقد اهتز الشعراء لنكبة آل عباد حتى أن الشاعر يقول :

غريب بأرض المغربين أسير سبيكي عليه منبر وأسير .

وتفرق أولاد ابن عباد في مختلف البلاد ياتمسون الرزق والعيش بكل
سبيل ، وتوفي الأمير في أسره ، وظلت ذكراه عالقة في نفوس أهل المغرب
والأندلس ، وكانوا يزورونه في قبره ، وأنشد أحد الشعراء أمام الجماهير
المحتشدة حول قبره :

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتكم عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعي نيران حزن أحتترقت بفؤادي
فاذا يدمعي كلما أجريته زادت على حرارة الاكباد

وظل قبره مزارا يزوره أهل المغرب والأندلس ، وظلت ذكرى نكبته
حديث الناس ونسج الادباء والشعراء القطع الأدبية الكثيرة حول هذه
المحنة .

ولكن المرابطين لجأوا إلى استشارة الفقهاء في كل أمور السياسة والحكم ، الأمر الذي أضعف أداة الحكم ، لأن رجال الدين ليسوا أهل سياسة ، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى سحق الأهلين على حكومة المرابطين ، ثم انغمس المرابطون في الترف والنعيم ، وفقدوا خصائصهم البدوية وما اتصفوا به من خشونة وغازظة ، وخضعوا للنساء وانغمسوا في الشهوات والملذات ، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم ، وجسدت النصراني هجماتهم في الأندلس وامتدت من ليون إلى جبل طارق . ولما رأى الأندلسيون حكامهم المرابطين لا يتحركون لانتقادهم من هجمات النصراني ، طردوهم من بلادهم .

وعاد الأندلس سيرتها الأولى في عهد ملوك الطوائف ونشأت في الأندلس مدن مستقلة عن بعضها ، تخضع للنصراني ، ويحارب بعضها بعضاً .

من أهم أسباب تدهور حكم المرابطين في الأندلس ، اضطراب الأمور في هذه البلاد ، بعد استدعاء الأمير تاشفين إلى المغرب وسحب عدد كبير من المرابطين معه للتصدي لمحاولة الموحدين السيطرة وانتزاع المغرب من المرابطين ، فانتهز النصراني في الأندلس الفرصة كعادتهم ، وأغاروا على الأراضي الإسلامية في إسبانيا وتعدد هزائم المرابطين في الأندلس ، بعد أن توقفت الإمدادات التي كانت ترد إليهم من المغرب ، بسبب انشغال المرابطين في المغرب بقمع حركة المهدي ، وأدى ذلك إلى ضعف المرابطين في الأندلس ، واستهانة أهلها بهم .

ومن أسباب ضعف المرابطين في الأندلس اضطراب الإدارة بعد وفاة الأمير علي بن يوسف ، وتولية تاشفين ، فكانت الأوامر تصدر إلى الجند والرعية متناقضة ومتضاربة ، فساءت العلاقة بين الحاكم والرعية ، ونظر الجند والرعية إلى أميرهم تاشفين نظرة احتقار وازدراء .

ومن أسباب ضعف حكم المرابطين في الأندلس : أن الفقهاء — كانوا

أصحاب نفوذ كبير في دولة المرابطين — لم يوجهوا الرعاية التوجه السليم ،
ولم يظهروا أمام الناس بالمظهر اللائق للقادة الروحيين ، بل انصرفوا إلى
كتب الغزالي والحديث عنها ، وتركوا الأمور الجوهرية تنتشر في البلاد
كالشعوذة والمهذية •

وتضيف إلى ذلك أن الحكومة المرابطية في الأندلس عرفت عنها
التسامح الشديد مع مثيري الشغب في بلد لا يستقيم أمره إلا بالعنف •

ومن الأسباب المباشرة لتدهور حكم المرابطين في الأندلس ، إخراج
لفقهاء لكتب الغزالي — أحياء علوم الدين — واستغل هذه الواقعة محمد
ابن تومرت — زعيم الموحدين — للنيل من المرابطين والدعاية لحكمهم •
وانطلق المهدي بن تومرت للقضاء على حكم المرابطين وأطلق شعار الأهر
بالمعروف والنهي عن المنكر •

كان ابن تومرت سياسياً بارعاً قبل أن يكون رجل دين وكان يمتلك
موهبة رجل السياسة الذي يستطيع فهم الرجال وتقييم الأعمال ،
والتخلص ممن يستطيع التخلص منه ، وممن لا حاجة له به ، والاستعانة
بما يفيد في نشر دعوته ، وأخذ من المذاهب ما يفيد في أغراضه • •

ونلاحظ أن الموحدين قد تمكنوا من المرابطين بسبب فساد أدارتهم ،
ويعتدل ذلك في عمالهم الذين أقبلوا على الرشوة والفساد كما أن الرشوة
امتدت إلى القضاء ففسد ، وأقبل الفقهاء على جمع المال واستغلال الدين
ومناصبهم لمصالحهم الشخصية •

ومن أسباب تدهور حكم المرابطين ازدياد قوة النصارى في عهد
الفونسو الأول — ملك أراغون وقشتالة وليون — الملقب بالمحارب ، وقد
شدد هجماته على المرابطين حتى أضعفهم وفي مدى سنة وبضعة أشهر
اجتاح بلاد الأندلس شرقه وغربه وشماله وجنوبه • وقد أضعفت هذه

الغارة من هبة ومكانة المرابطين في الأندلس ، واستهان الأندلسيون بحكامهم ، وانضموا الى الموحدين في التخلص من المرابطين •

انتشر التصوف والزهد في الأندلس ، بعد أن كثر الفساد في المجتمع ، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى ، وتسلب الفقهاء على الناس وقرصوا عليهم مذهبهم وآراءهم ، وضعف الحكم المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضااتها ، لذلك لجأت جماعات كثيرة الى العزلة عن هذه الحياة ، والزهد فيها ، وظهرت في شرق الأندلس عدة فرق ، كان من أشهرها وأهمها مدرسة المريه والتي ترعّمها الصوفي الكبير أبو العباس ابن العريف ، وامتدت مراكز الصوفية فشملت ، مرسية وبانسية وجزيرة شقّر ومالقه وجيان وغرناطة ، وانتشرت الصوفية كذلك في قرطبة وراسل ابن العريف المريدين برسائل حفظها التاريخ • وانتشر المريدون كذلك في غرب الأندلس ، وارتبطوا مع بعضهم بروابط وثيقة ، وكان ابن العريف يرسل الرسائل — كما قلنا — الى مريديه تباعا ويانتظام •

كان للمريدين أفكارا وآراء مختلفة ومتنوعة ، وأغلب الصوفية كانوا يرون الالتزام بالكتاب والسنة ، وكان على رأس هؤلاء ، ابن العريف ، وهناك فريق آخر من المريدين كان يميل الى المذهب الظاهري ، وهناك جناح متطرف يميل الى المذهب الباطني •

وارتأبت الحكومة المرابطية في المريدين ، وخشيت على سلطانها ، اذلك أمنت في مراقبتهم وملاحقتهم ، حتى لجأ بعضهم الى أماكن منعزلة عن عيون السلطة القائمة •

وتورط المريدون في بعض حوادث الاغتيالات مثل مقتل بعض القضاة الأمر الذي شدد من ملاحقة السلطة الحاكمة لهم ، واشتد الصراع بين أجنحة المريدين بسبب تورط المتطرفين منهم في الاغتيالات ، وقد حاول ابن العريف أن يدعو المريدين الى دهادنة الحكومة ونبذ التطرف ، وكان

يغارض تغيير الحكومة القائمة ، لأن الوقت غير مناسب وحذر بعض كبار رجال الدولة ، الحكومة من التساهل والتغاضي عن حركة المريدين ، فاشتدت الحكومة في مطاردتهم ، وتصدت لهم وانقطعت الرسائل بينهم ، وتصدى الفقهاء لابن العريف ، وسفها آرائه وأنكروا مذهبه ، وسعوا به الى الأمير الرابطي وحذروه منه ومن رجاله ، وأمر الأمير علي بن يرسف بنفي ابن العريف الى دراكش حتى يكون بعيدا عن مريديه ، ولكنه عاد فعفا عنه ، وتوفي ابن العريف سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ، وقد شجع تسامح الأمير علي بن يوسف الأجنحة المتصوفة من المريدين على الثورة ضد الحكم القسائم .

ترعم أبو القاسم أحمد بن قسي ، المريدين بعد وفاة ابن العريف ووجه المريدين توجيهها يختلف تماما عن سلفه ، حتى أصبح المريدون في الظاهر طائفة دينية أو فرقة صوفية وفي الحقيقة أداة سياسية ، استخدمها ابن قسي أداة في الوصول الى الحكم ، وشجعه على ذلك ضعف المرابطين في المغرب أمام محاولات الموحدين انتزاع الحكم منهم .

كان ابن قسي يعقد المجالس العلمية لشرح كتب الغزالي وآرائه ويجتمع بالمريدين سرا لنشر دعواه السياسية ، بالثورة ضد المرابطين ، واقتصاتهم عن الحكم ، وادعى أنه المهدي ، فكثر أنصاره وأتباعه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان .

وفي سنة (٥٣٨ هـ ، ٥٣٩ هـ / ١١٤٣ - ١١٤٤ م) كان المرابطون في نهاية أمرهم بالمغرب ، إذ كان الموحدون على وشك انتزاع بلاد المغرب منهم ، فانتهاز ابن قسي الفرصة ، وحرّض المريدين على الثورة ، وكان المرابطون في الأندلس في مركز حرج إذ توقفت الامدادات التي كانت تصلهم من المرابطين في المغرب وانتهاز النصارى في الأندلس الفرصة ، فشدوا هجماتهم على المسلمين في الأندلس ، لذلك تعتبر سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م بداية حركة المريدين الدينية والسياسية .

وأقبل الناس على ابن قسى مؤيدين له ولامامته كل التأييد ولما كثر أتباعه أعلن الثورة ، ودعا إلى تحرير البلاد من المغتصبين ، وأرسل رجاله إلى بعض الحصون لمهاجمتها واستولى المريدون على بعض الحصون ، وطردوا منها حمايتها المرابطين ، ولكن جند المرابطين بقيادة أبى زكريا ابن غانية ، — أمير قرطبة — تصدت للمريدين ، وألحقت بهم الهزائم . وحينما ابتعد ابن غانية عن قرطبة لمحاربة المريدين ، ثار العامة في قرطبة بقيادة القاضي أبى جعفر بن محمد بن حمدين ، وخلصوا ابن غانية ، وولوا ابن حمدين وطاردوا المرابطين خارج قرطبة . ولم يلبث أن ثار الناس بابن حمدين ، وولوا سيف الدولة بن هود ، وكان عميلا للفونسو — ملك قشتالة ، يحرضه ضد المسلمين ، ويستخدمه أداة ضدهم ، وفي اشاعة الفرقة بينهم ، وانقراع ما يستطيع من أراضيهم ، وكان ملك قشتالة يعاونه بالمال والجند لأن الاضطراب في الأندلس يحقق لملك النصراري أهدافه وقتل ابن هود ، وتولى ابن مردتش أمور شرق الأندلس وواجه الموحدون مقاومة عنيفة من ابن مردتش واستمر مسيطرا على شرق الأندلس حتى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م أما زعماء غرب ووسط الأندلس ، فقد استسلموا للموحدين ، ودخلوا في طاعتهم .

دولة الموحدين (٥٢٦ هـ — ٦٦٨ / ١١٢٠ — ١٢٦٩ م)

ينسب محمد بن عبد الله مؤسس هذه الدولة إلى علي بن أبى طالب وكان يقال لوأده تومرت ، وبإيعه الناس ولقبوه بالمهدى ، وهو من أهل المغرب الأقصى ، رحل إلى الأندلس في طلب العلم سنة ٥٠٠ هـ ورحل في طلب العلم إلى مصر والشام والعراق ، حيث التقى في بغداد بالامام الغزالي ، وكان فقهاء الأندلس يكفرون من يقرأ كتابه أحياء علوم الدين وأفتوا بحرقه في الأندلس والمغرب ، وعاد أبو عبد الله بن تومرت إلى المغرب يطعم الناس ، ومن أشهر تلاميذه عبد المؤمن بن علي — من أهل تلمسان — وظل يقرأ عليه برباط ملاله إلى أن انتقلا إلى مدينة فاس ، ومنها إلى مراكش ثم هرغ في السوس الأقصى ، وتبع المهدي الكثير من البربر سنة ٥١٥ هـ وبإيعوه على أنه المهدي ، وتعاقدوا على أن يكونوا يدا

ولحده على القتال والدفاع ، وعلى أن يقاتلوا عنه ، ويبدلوا أنفسهم دونه
بها كانت التضحيات ، وترجم هذه البيعة أصحابه العشرة ومن أبرزهم
بد المؤمن بن علي ، وسموه بالمهدي ، وكان يعقد الأمور العظام مع أصحابه
لشرة ، وتتابع البربر على بيعته ، والتزموا بنصرته ، وكانت صنهاجه من
أهم أنصاره ، وأعان الحرب على لمتونه ، وترجم أصحابه العشرة الحرب
والطلاب والحفاظ وأهل الدار وأنصاره من القبائل والجند والرماء ،
ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيره لا في سفر ولا في
حضر ، ولا ينزل كل صنف الا في موضعه فانتظم جنده ، وصنف
لأنصاره كتابا ، سماه التوحيد باللغة البربرية ، وهو سبعة أجزاء عدد
أيام الجمعة ، وأمرهم بقراءة جزء واحد كل يوم بعد صلاة الصبح
بعد الفراغ من قراءة جزء من القرآن ، وهو يحتوى على معرقة الله
تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايان وما يجب
على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخى بين أنصاره ،
وألّف لهم كتابا سماه « القواعد » وآخر سماه « الامانة » وكتب أخرى
بالعربية والبربرية تداولها الناس وتتضمن هذه الكتب المواعظ والحكم
والأمثال ، فأقبل الناس بشغف شديد على هذه الكتب ، ويسر لهم
طلب المسلم .

خشى على بن يوسف — أمير المرابطين — على ملكه من المهدي
وحركته ، وعول على قمع هذه الحركة في مهدها ، وأعد جيشا
بقيادة — والي السوس أبا بكر اللمتوني — ومنيت جيوش المرابطين
بالهزيمة أمام جيوش المهدي ، ولم يزل ، أمير المرابطين يوالى الحروب
على أصحاب المهدي من كل جانب ، ويبعث لمصابتهم الجيوش
والكتائب ، حتى سئمت جنوده الحرب ، وداخلهم الذعر والرعب ،
وواصل الموحدون — أتباع المهدي — انتصاراتهم حتى اقتربوا من
أنعام ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وتوجه المهدي الى تينمال ، واتخذها
مقرا له لحصانيتها وحسن موضعها ، وقسم أرضها وديارها على
أصحابه وأدار على المدينة سورا خفيا ، وشيد على رأس الجبل

حصنا يكشف على ما وراء الجبل ، والمدينة حصينة الدخول اليه -
صعبا عسيرا •

ولما شعر المهدي بقوته وازداد أنصاره ، جشد الجيوش للاستيلاء
على مراكنس — عاصمة المرابطين — واسقاط هذه الدولة المتداعية
وحاصر جنده مراكنس أربعين يوما ، ولكن جيوش المرابطين ثانت أكثر
عددا وقوة من جيوش الموحدين ، لذلك هزم المرابطون الموحدين
ولم يسلم من الموحدين الا القليل وفر من استطاع الفرار من
المعركة ، وأتبعهم المرابطون من مراكنس الى أغمات ، فأمعنوا القتل
فيهم ، ولم ينج منهم الا القليل ، وكان المهدي مريضا بتيئمال ، وأوصى
أن يخلفه عبد المؤمن ، وتوفي المهدي سنة ٥٢٤ هـ ، وخلفه
عبد المؤمن بن علي •

توفي أيضا أمير المرابطين علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وازدادت
قوة الموحدين ، وعظم شأنهم ، وتتابع ثوراتهم ضد المرابطين فساعت
أحوال بلاد المغرب ، وتدهور الوضع الاقتصادي ، وكسدت التجارة ،
وانحطت الزراعة ، فانتشرت المجاعات وارتفعت الأسعار ، وتدهور الوضع
السياسي والحالة الاقتصادية في الأندلس ، وتوسع التصاري في
الأندلس على حساب ملك المسلمين وغادر الكثير من الأندلسيين بلادهم
الى المغرب •

ولى أمر المرابطين تاشفين بن علي بن يوسف ، وكان قد اشتبك
مع الموحدين في عدة وقائع وحروب ، ولم يستطع الذهاب الى الأندلس
بسبب اشتغاله بحروب الموحدين واشتدت غارات الموحدين من فاس
الى تلمسان وكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعه حيث الأرزاق
الواسعة وتاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فلا يجد من ينصره من البربر
وانتقل عبد المؤمن الى جبل غماره ، فتبعه تاشفين ، ثم انتقل من جبل
غماره الى جهة تلمسان ، وبايعه أكثر زناته المستوطنين بنواحي
تلمسان ، ونزل برأس الجبل الذي غيها ، واستعان تاشفين بصنهاجه

وبرجاله في كل بلد في المغرب ، وتمت المعركة الفاصلة بين المرابطين والموحدين فيما يعرف بيوم منداس فقد فيه من جيش المرابطين جموع غفيرة ، وظهرت حتى هذا اليوم قوة عبد المؤمن وتجلت بوضوح ، وكان أمر المرابطين قد ضعف في الأندلس لانشغالهم بأمر الموحدين في المغرب ولم يزل الموحدون في علو وظهور كل يوم ، وحال اللمتونيين في ادبار ، حتى اضطر تاشفين الى الاحتماء في حصن في وهران ، خوفا من بطش الموحدين ، ولكن الموحدين حاصروه في الحصن ، ومات تاشفين ، واستولى الموحدون على الحصن سنة ٥٣٩ هـ .

خلف ابراهيم بن تاشفين أباه في وقت تمزقت فيه دولة المرابطين ، وأصبحت قباب قوسين أو أدنى من الزوايا ، وكان عليه أن يحافظ على ماتبقى للمرابطين في المغرب ، ولكن كانت قوة الموحدين في ازدياد ، وشأن المرابطين في ضعف وانقسام .

استولى عبد المؤمن على وهران وتلمسان ، ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من الأموال ، وخربوا الديار ، وقتلوا الأنفس ، واستولى على فاس بعد حصار دام ستة أشهر قاوم أهلها الموحدين بكل بسالة وشجاعة ، واستولى الموحدون على فاس ، ورحل عبد المؤمن الى سلا ، وأرسل عبد المؤمن فرقا من جيشه حاصرت مكناسه حتى استسلمت .

بعد أن ضم الموحدون الكثير من بلدان المغرب الى حوزتهم ولمسوا ضعف المرابطين ، رأوا أن الوقت قد حان للاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين ، حتى يزيلوا نهائيا هذه الدولة من الوجود . وفي سنة ٥٤١ هـ توجه عبد المؤمن الى مراكش ، وحاصر جنود الموحدين العاصمة المرابطية حتى طال الحصار ، واشتد الكرب وعظم البلاء ، وقتل في الحصار الكثير من أهل مراكش ، ومات الناس جوعا وعطشا ، حتى فتحت مراكش أبوابها للغزاة سنة ٥٤١ هـ فدخل الموحدون البلدة عنوة ، وامتنع الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين بداخل أحد الحصون ، ولكن الموحدين اقتحموا الحصن وقتلوه ، كما قتلوا

الكثير من أهل مراکش ، واستمر القتل ثلاثة أيام • وبموت الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن قاشفين زالت دولة المرابطين ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين •

وكان انتصار الموحدين في وهران ، ومصرع حاكمها تاشفين ابن علي مشجعا الثوار في الأندلس بالاتصال بالموحدين يطالبونهم بالذهاب إلى بلدهم •

واتصل النوار في الأندلس فعلا بالخليفة عبد المؤمن وبايعوه ، ودعوه للحضور إلى الأندلس ، وتولى أمورها بعد أن تدهور المرابطون ، وطمح العدو في البلاد ، وانهار الوضع الاقتصادي وكانت أول خطبة أقيمت للموحدين بالأندلس في مسجد قادش ، وانضم ابن ميمون قائد أسطول المرابطين إلى الموحدين •

وكان لمقدم الزعماء الثائرين في الأندلس على عبد المؤمن ، ومبايعتهم له أثر فعال في توجيه أنظار الموحدين إلى الأندلس وسعيهم إلى مد سلطانهم على هذه البلاد •

زحف الجيش الموحدى إلى الأندلس سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، وطرد المرابطين منها ، واستولى الموحدون على شريش ، وواصل الموحدون زحفهم في أراضي الأندلس حتى ضموا إلى حوزتهم معظم بلدان غرب الأندلس ، وتوجسوا انتصاراتهم بتصفية قواعد المريدين بالاستيلاء على أشبيلية ، ودخل أهلها في طاعة الموحدين ، ولكن سرعان ما لمس الأهالى تعنت حكام الموحدين وظلمهم ، فثاروا عليهم ، وطردوا عمالهم وخرج على طاعة الموحدين ابن قنسى وثار في شلب وابن ميمون بقادش ومحمد بن الحجام بيطليوس ، وطرد أهل أشبيلية الموحدين من بلدهم ، وثار أهل المرية على واليهم وقتلوه وفي نفس الوقت ثار المغاربة على الموحدين ، ولم يبق في طاعتهم سوى مراکش وفاس • وانتزع ابن غانية الفرصة ، وقاد جيشا من المرابطين استرد الجزيرة الخضراء من الموحدين •

وزاد من ثورة أهل المغرب على الموحدين ما أشيع بين الناس من أن الموحدين يعترمون قتل زعيم سبته الروحي أبو الفضل عياض

لما تم لعبد المؤمن فتح مراكش قسم فيأها وأموالها على الموحدين. وقسم عليهم ديارها ، وبيع أولاد أهل مراكش واستولى عبد المؤمن على خزائن على بن يوسف وخائز لقونه وبقيت مراكش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ، ولا يخرج منها خارج ، وأسس بمراكش مسجدا جامعاً عبر مسجد المرابطين وغرس البساتين حول مراكش ، وجلب لها الماء من أغمات وحفر الآبار والعيون . وعظم انتاج هذه البساتين من الفواكه .

على أن دولة الموحدين الناشئة تعرضت لكثير من الفتن فوجد بعض الزعماء أن ادعاء المهدي يكسبهم سلطاناً ونفوذاً وجاهاً ، فأعلن محمد بن عبد الله بن هود الماسي الثورة في بلاد السوس ، وادعى الهداية ، ولقب نفسه بالهادي ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، وطبقت شهرته الآفاق ، ودان بدعوته جموع غفيرة ، وبايعه الناس في كل بلدان المغرب ، واستنكروا دعوة الموحدين ، ورأوا في دعوته خلاصاً من الموحدين الذين لم تتحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية بانتقال الحكم اليهم ، على أن عبد المؤمن سير عدة جيوش الى بلاد السوس هزمت محمد بن هود الماسي وأنصاره ، ولم تكن هذه الحركة المعارضة الوحيدة لعبد المؤمن ، بل اشتعلت ضد حكمه ثورات متعددة قضى عليها وأحبطها في مهدها .

قيام دولة الموحدين بالأندلس

لم يتعجل الحليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بإرسال جيش الى الأندلس لانتزاعها من المرابطين مستغلا ثورة الأندلسيين عليهم ، بل تريض بعض الوقت حتى يتمكن من السيطرة على كل بلاد المغرب ، وانتزاع البلاد التي كانت لاتزال في أيدي المرابطين ، وضمتها الى حوزته . وسقطت بلاد المغرب في يده الواحدة تلو الأخرى ، وفي سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٧ م سقطت مراكش — عاصمه المرابطين في يده .

وكان الأندلسيون يترقبون ما يجري في المغرب ، ويتعجلون نهاية اليحصبي . وولى أهل سبته عايهم واليا من المرابطين بعد أن خلعوا طاعة الموحدين .

لما شعر عبد المؤمن بقرب زوال حكمه ، اضطر الى استخدام العنف لاختضاع أنوار عليه في المغرب ، ومزق معارضيه كل ممزق ، واسترد الموحدون في الأندلس الجزيرة الخضراء وإشبيلية ، وتلى ذلك سقوط مدن الغرب الأندلس في أيدي الموحدين المدينة تلو الأخرى ، وقوى أمر الموحدين في الأندلس حتى أصبح في امكانهم ضمها الى حوزتهم ، وقد أزعج ذلك ، الفونسو السابع — ملك قشتالة — فأرسل الى ابن غانية في قرطبة يطالبه بالمال الكثير نظير حمايته من الموحدين ، ودرء خطرهم عن بلاده ، فرأى ابن غانية أن الموحدين اخوانه في الدين أفضل ألف مرة ومرة من الفونسو السابع ، لذلك أرسل في الصلح الى الخليفة عبد المؤمن ، وتنسأل للخليفة عن قرطبة وفرمونة مقابل حكم جيان عوضا عنها ، ولم يأبه ابن غانية بتهديدات الفونسو السابع ، وقد هاجم الفونسو السابع قرطبة ، واستولى عليها بعد وفاة ابن غانية ، وعدم استطاعة الموحدين ملأ الفراغ الذي تركه هذا القائد ولكن الموحدين مالبثوا أن استردو قرطبة ، وعززوا فيها حاميه كبيرة ، وعاد ملك قشتالة فاستولى على المريه في سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م ، وكان

لسقوط المريه أمر سيء في نفس الأنداسيين ، الذين تتابعبت المحن عليهم ، وقد سُجّع ذلك النصارى على الاستيلاء على ما بقى بأيدي المسلمين في الثغر الأعلى ودعا البابا أوجين الثالث إلى حماه صليبية لفتح هذه البلاد وهاجموا طرطوشه التي سقطت بعد حصار دام ستة أشهر ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م . وتتابعبت حملات النصارى على البلاد الإسلامية فهاجموا لارده وأفراغه ومكناسه ، واستولوا على هذه البلاد . وبذلك زال سلطان المسلمين من الثغر الأعلى ، ودانت بلاد الثغر الأعلى للنفارى ، وسقطت أشبونه في أيدي ملك البرتغال في الوقت الذي سقطت فيه المريه .

ساعت أحوال الأندلس ، وتدهور الوضع السياسى بها وتطّعت الأندلسيون إلى الخليفة عبد المؤمن لانقاذ بلادهم من النصارى ، وذهب شيوخ الأندلس إلى الخليفة وبايعوه ولم يتخاف إلا ابن قسى الذى ظهر عدم اخلاصه للموحدين بل وطد علاقته بملك البرتغال ، لذلك خشى أهل شلب سوء العاقبة ، وتاروا على ابن قسى وقتلوه وأرسلوا إلى الخليفة عبد المؤمن ببإيعونه ، وبذلك انتهت ثورة المريدين التي كانت تستهدف الخلاص من حكم المرابطين ، وأصبح غرب ووسط الأندلس في أيدي الموحدين ، وتخرج موقف المرابطين في غرناطة ، فأرسل إليها المرابطى ميمون بن بدر إلى الخليفة عبدالمؤمن يعرض عليه تسليم غرناطة فوافق على طلبه وأمنه على حياته وماله سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م وعلى أثر استعادة الموحدين غرناطة ، استولوا على المريه وكان لابد للموحدين من تأمين سواحل المغرب والأندلس من أخطار النصارى ، واسترد الموحدون كل بلدان الثغر الأعلى .

وبعد أن فتح الموحدون معظم الأندلس ، اتجهوا إلى تحرير بقيه شبه الجزيرة من النصارى ، وحصنوا قاعدة جبل طارق وأنشأوا مدينة كبرى بها تكون معسكرات تتطلق منها الجيوش الموحديه لتحرير البلاد من الأعداء والجهاد في سبيل الله . وكانت سياسة عبد المؤمن تستهدف

تخليص بلاد الأندلس من العملاء المسلمين المتواطئين مع الأعداء
وتخليص البلاد بعد ذلك من العدو النصراني المتربص •

كان عبد المؤمن باراً بمن انضوى إليه ، عارفاً بأقدار النساء
مكرماً لأعيانهم وأهل البيوتات منهم ، عالماً بقدر العلماء ، ينزل النساء
على قدر منازلهم ورتبهم ، وربى الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ ، وكـ
ورسائل المهدي ، وكان يدخلهم كل يوم الجمعة بعد الصلاة داخل القصر
فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف قصد بهم سرعة الحفـ
والتربية على ما يريد ، فيأخذهم يوماً بتعلم ركوب الخيل ، ويو
بالرمي بالقوس ، ويوماً بالسباحة فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بإعطاء
وتارة بالأدب ، وكان ينفق عليهم عن سعة • وبذلك استطاع تكوين فرء
ذات كفاءة قتالية كبيرة ، وثقافة دينية رفيعة ، كما عهد بحكم الولايات
الى رجال يثق في مقدرتهم الادارية •

اعتزم عبد المؤمن توسيع دائرة مآكه في المغرب ، فتوجه الى تونس
وسأله أهلها الأمان فأمنهم في أنفسهم وأولادهم ولكن ليس في أموالهم
لذلك دخل جيش الموحيدين تونس ، وصادر الجند أموال الأهلين
وبعد أن ثبت الموحدون أقدامهم في تونس ، توجه عبد المؤمن الى المهدية
وكان صاحب جزيرة صقلية قد استولى عليها ، وعاض بعض بلدات
الساحل التونسي فاسترد الخليفة عبد المؤمن هذه البلاد ، وعادت الو
أيدي المسلمين سنة ٥٤٥ هـ ، واعطى جند صقلية أماناً فغادرو
المهدية ، وبذلك عادت هذه البلاد الى حظيرة الاسلام ، وأمن أهلها على
أنفسهم وأموالهم ، وانضمت الأراضي التونسية الى دولة الموحيدين •
وضمت دولة الموحيدين معظم بلاد المغرب من طرابلس الى أقصى
السوس •

خلفاء عبد المؤمن :

لما توفي عبد المؤمن خلفه ابنه يوسف ، وقد اجتاز الى الأندلس
سنة ٥٨٠ هـ ، وقد سيطر على بلاد غرب الأندلس ، وصعد عنها غارات

النصارى سنة ٥٨٠ هـ ، وولى أبناءه القواعد الرئيسية في الأندلس ، واتسع ماكه في المغرب والأندلس ، وخلفه يعقوب المصور ، ومن أهم انجازاته فتح مدينة شلب وفي سنة ٥٩١ هـ ، هزم النصارى ، وانتصر عليهم انتصارا رائعا في موقعه تسمى الأرك سنة ٥٩١ هـ بلغت دولة الموحدين ذروتها في عهد هذا الخليفة ، فقد اتسع ملكهم ، فكان للدولة جيش قوى قادر على توجيه الضربات القوية للعدو ، وكانت جيوسهم تضم جندا من المصامدة أولا ثم من الصنهاجيين ثانيا وبعض الزناتيين ، وبعض العرب الهلالية ، وأحاط الخليفة نفسه بحرس خاص من العبيد السودانيين •

ومن أشد الفتن الداخلية التي واجهها أبو يوسف يعقوب المنصور فتنة بنى غانية في أفريقية ، وقد انضم اليهم بعض العرب والترك وكانوا يتخذون من الصحراء ملاذا لهم ، كلما ضيق عليهم الموحدون الخناق ، وما زال أبو يوسف يعقوب يشدد عليهم هجماته حتى نكل بهم وهزمهم ، واستكانوا ، وكفوا عن الثورة سنة ٥٨٣ هـ •

لما هدأت بلاد المغرب بعد انتهاء ثورة بنى غانية تطلع أبو يوسف يعقوب لانتفاذ بلاد الأندلس من الهاوية التي تردت فيها ، فقد استند ضغوط النصارى على مسلمى الأندلس وتدهورت أحوال المسلمين في هذه البلاد ، وأصبح الأندلس على وشك السقوط في أيدي النصارى ، وجدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب كان معاصرا لصلاح الدين الأيوبي ، وكما حرر صلاح الدين القدس وبعض أراضى الشام من الصليبيين مثل أبو يوسف يعقوب نفس الشيء • وفي هذه السنة — أقصد سنة ٥٨١ هـ — تولى سانشو الثانى ملك البرتغال ، وقرر الاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس منتهزا فرصة انشغال الموحدين ببنى غانية •

وفي سنة ٥٨٥ هـ حشد جيتسا كبيرا ضم فرقا صليبية كانت مسافره الى بلاد الشام ، واستولى على شاب أهم ما تبقى للموحدين في غرب الأندلس من الموانى •

وكان لسقوط سلب في أيدي ملك البرتغال امر كبير في تصميم
أبى يوسف يعقوب لتحرير عرب الأندلس من أيدي النصارى ، ودعا
الى الجهاد ، واستتفر الناس للقتال ، وأقبل عليه أهل المغرب من كل
مكان ، وكانت مساعى المسلمين قويه بعد انتصار صلاح الدين في
حطين سنة ٥٧٩ هـ •

خرج المنصور من رباط الفتح ، وأمر جنده بموافاته في انسيبلية
سنة ٥٨٦ هـ ، واستعاد المنصور سلب سنة ٥٨٧ هـ وكذلك بعض
التحصون • وتوقف عن الحرب أربع سنوات ، عاد بعدها الى منازلة
العدو سنة ٥٩١ هـ ، وعندما علم الفونسو الثامن — ملك قشتاله —
دعا كل ملوك النصارى في أسبانيا الى تشكيل جبهة متحدة للتصدي
للمسلمين واستنجد بالبابوية ، فكثر جموع النصارى وفرسانهم ،
واحتشدوا في سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفة الوادى
أنه والى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ودارت المعركة
الفاصلة في شعبان ٥٩١ هـ ، وهزم المسلمون النصارى ، ومزقوا جموعهم
كل ممزق ، وفر الفونسو ومن استطاع الفرار الى طليطاه ، ولم ينج
من هذه المعركة الا الشريد •

كان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى في تاريخ الأندلس لا تقل عن الأثر
الذى تركته واقعة الزلاقة ، فقد عادت الى المسلمين هيبتهم في هذه البلاد
وضعف أمر النصارى • فبعد هذه الواقعة أرسل المنصور فرقا من جيئسه ،
استعادت الكثير من بلاد غرب الأندلس ، لكن المنصور لم يجن ثمرة نصره ،
فقد كان في استطاعته تحرير طليطله وغيرها من البلاد • وكف عن محاربة
النصارى ، لذلك أعطى الفرصة للفونسو الثامن لاعادة تنظيم قواته
واكتفى المنصور بتنظيم ادارة الأندلس ، وجنح الى السلم •

خلف محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أباه (٥٩٥ هـ — ٦١٠ هـ
١١٩٦ — ١٢١٣ م) كان شابا سريع الاندفاع مستبدا بالأمر ، وفي عهده
انتهت ثورة ابن غانية ، واستولى محمد بن عبد الله على الجزائر الشرقية

سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، وبعد ذلك بعامين ، انتصر الموحدون انتصارا رائعا على بنى غانية ، وقضوا عليهم نهائيا قرب قابس . وعلى أثر ذلك دخل الموحدون تونس والمهدية . وتم بذلك القضاء على فتنه بنى غانية التي أجهدت الموحدين كثيرا ، وعهد خليفة الموحدين لعبد الواحد بن أبي حفص بحكم تونس لكفاءته . وقد قضى على آثار بنى غانية ، ونبت أقدامه في تونس ، ووطد نفوذه بها . وتوارث بنو حفص حكم افريقية حتى احتفظوا بها نهائيا .

ضعف أمر المسلمين في الأندلس بسبب انشغال الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بقمع الفتن في تونس ، وكف الموحدون عن ارسال الجيوش الى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك ، وقد شجع ذلك الفونسو الثامن — ملك قشتالة — على شن الغارات على بلاد المسلمين في الأندلس ، لذلك رأى الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر اخضاع الفونسو ، ومحاربته وأعد لهذا الغرض حملة قوية أحسن اعدادها ، وأمدّها بالأسلحة والعتاد ، وعبرت الحملة الى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م ، وعسكر الجيش الموحدى في انبيليه ، وتوافد على جينسه المجاهدون الأندلسيون من كل صوب وحذب .

وأعد الفونسو الثامن حملة صليبية للانتقام من هزيمة الأرك وطرده المسلمين من الأندلس ، فأنهى خلافاته مع ماكى نافار وأرجون واستجد بالبابوية ، وكون قوة مسيحية ضاربه تستطيع محاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم .

تحرك الناصر بجيشه الكبير سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ ، ودخل جيلن وحصنها ، ثم سار الى خانق ، وعسكر بجيشه على مقربة منها في سهل ملء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب ، والتقى الناصر بجيوش النصرانية ، وتتألف من قوات من ليرن ونافار وقشتالة وأرجون وخراسان اسبانية وقوات من المانيا والبرتغال واستولت هذه الجحافل على قلعة رباح ، فذعر الناصر ، وأمر بقتل قائدها يوسف بن قادس ، هنا

ارتفاع الأندلسيون ، وتفرقوا ، فضعف شأن الناصر ، ووقعت الواقعة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ، وقد هاجم النصارى المسلمين بعنف وضراوة ، واخترقوا صفوف المسلمين ، وقتلوا من فرسانهم الوف ، ومن جندهم عشرات الألوف . وتعتبر هذه الواقعة بداية لضعف شامل أصاب المسلمين في الأندلس ، كما تعتبر نهاية قوة الموحدين ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، وتوفي الناصر بعدها بعدة أشهر ٦١٠ هـ - ١٢١٣ م ، وقد نسجت هزيمة المسلمين ، النصارى على الاستيلاء على حصون المسلمين ، الواحد بعد الآخر وضعف الموحدون ، وتنافسوا حول الوصول إلى الحكم ، وتنافسوا أحوال الأندلس ، فسقطت البلاد الأندلسية في أيدي النصارى وهي قرطبة وانسبيلية وجيان ومرسية والجزائر الشرقية وقد هال المسلمون سقوط عاصمتهم قرطبة ٦٣٢ هـ - ١٢٣٦ م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، الملقب بالقديس دون مقاومة تذكر .

خلف الناصر ابنه المنصور ، أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر وتنافس أمراء البيت الموحدى حول الحكم ، وثاروا ضده وظهرت العناصر القوية تطالب بالحكم والقضاء على الدولة المتداعية ، وانتهى النزاع بالقضاء على الموحدين ، وقيام دولة بنى مرين ٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م .

ويجب أن نقول هنا قبل أن نختم كلامنا على دولة الموحدين ، بأن هذه الدولة لعبت دورا كبيرا في تقوية بلاد المغرب ، وأجلت كارثة سقوط الأندلس ، وعززت مركز المسلمين في هذه البلاد ، ويعتبر عصرهم ، العصر الذهبي للفلسفة الإسلامية ، فقد ظهر علماء الفلسفة الكبار ، ابن رشد وابن طفيل وابن عربى ، وحفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكرين والمهندسين الذين أقاموا منشآت معمارية بديعة في جميع أنحاء المغرب . واعتمد الموحدون في بناء صرح دولتهم على المصامدة ، وهو فرع بربرى تميز بالصلابة والمقدرة القتالية ، ويشكلون معظم سكان المغرب الأقصى .

ويجب أن نشير هنا إلى كبار فلاسفة هذا العصر من الفلاسفة الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل القيسى من دراكش

ت ٥٨١ هـ ، ويرى البعض أنه تلميذ لابن باجه ، وكان طبيباً في عرطه ، وعمل كاتباً لبعض الأمراء ، وارتفع شأنه حتى أصبح طبيباً لحليفة الموحدين يعقوب يوسف المنصور وله مصنفات في الطب ، وله آراء ميمه في الفلك ، ولم يبق من مؤلفاته الا رساله حى بن يقظان ، أو سرار الفلاسفة الاشرافه ، وبدأ ابن طفيل رسالته بموجز مفيد هام عن تاريخ الفلسفة في الاسلام ، يمتدح ابن طفيل فيه ممن تقدمه من الفلاسفة ، ابن سينا وابن باجه والغزالي ، والأساس ا فلسفى لرساله ابن يقظان ، هو الطريق الذى كان عليه فلاسفه المسلمين ، الدين نهجوا على مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وقد صور ابن طفيل الانسان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ورمى ابن طفيل من ورائها الى بيان الاتفاق بين ادين والفلسفه ، وهو موضوع سغل أدهان المسلمين جميعا .

ولد ابن طفيل فى احدى القرى الأندلسيه ، وتقاد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولاية غرناطة ، وحاكم ولاية طنجه ، وكان طبيباً لأحد خلفاء الموحدين ، وهو أبو يعقوب يوسف ، وعظمت مكانته عند الخليفة الموحدى ، وجمع بين الرجلين الميل الى دراسه علوم الدين والفلسفه ، وأرسل فى شراء الكتب من المغرب والأندلس ، وجذب العلماء الى بلاطه ، وأغدق عليهم ، ووصلهم ، حتى ضم بلاطه نخبة من العلماء الأجلاء .

وتطورت الدراسات الفلسفيه فى عهد الموحدين ، فبينما كان يرفض المرابطون علوم الفلسفه ، نجد أن الموحدين جددوا علم الكلام عن طريق

ادخال مذهب الأشعرى ومذهب اعرالى الصوفى الأشعرى ، بعد أن كانا موصوفين بالزندقة من قبل .

ومن أهم مؤلفات ابن طفيل « حى بن يقظان » ووفق فى هذا الكتاب بين الدين والفلسفة حتى يزيل اشك والريبه من نفوس المغاربه فى علم الفلسفة ، واستفاد ابن طفيل من كتب الفلاسفة الذين سبقوه فى المشرق والمغرب ، وتوفى فى مراكس سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ - ١١٨٦ م .

كان الانتاج العلمى لابن طفيل قليلا ، ادا قيس بابن رسد أو ابن سينا ، وقد يكون السبب فى ذلك اشغاله بالمناصب الرئيسيه فى فترات من حياته ، ربما نسغته عن التأليف والتصنيف ونسمع عن كتب ألفه فى الفلسفة والطب والأدب ، وفقدت مؤلفاته ، ولم يبق منها سوى كتابه المعروف « حى بن يقظان » .

وترجع شهرة ابن طفيل الى رسالته « حى بن يقظان » التى تعد من الرسائل الخالدة فى مجال الفكر الفلسفى العالمى عامة ، والفكر الفلسفى العربى على وجه الخصوص ، وتأثر بها الفلاسفة العرب والأوربيون وأقبلوا على دراستها ، وترجمت الى لغات متعددة^(١) .

وقد أوضح ابن طفيل اعتماده على العزالى وابن سينا ، واضافه الآراء الفلسفيه الجديدة التى ظهرت فى أيامه ، الى آرائهما ، وانتقد بشدة ورفض كله الرفض آراء منتحلى الفلسفه ، وأضاف الى كل هذه الآراء أفكاره الخاصة وآراءه . وبذلك يتضح لنا أنه درس آراء فلسفه الشرق والغرب الذين سبقوه وعاصروه ، ونقدها وأوضح وجه الكمال أو النقص فيها .

وفى رسالته عن حى بن يقظان يقول ابن طفيل « نظر حى الى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى أن حقيقه وجود كل واحد منهما مركبة من معنى "جسمية ومن شىء آخر زائد على الجسمية اما واحد واما

(١) العراقى : المتمايزيقيا فى فلسفه ابن طفيل ص ٣٩ .

أكثر من واحد ، فملاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تدرك بالحواس وانما تدرك بضرب ما من النظر « العقلي » (١) .

درس ابن طفيل عالم ما تحت فلك القمر ، وعالم ما فوق فلك القمر ، ومشكلة حدود العالم وقدمه ، وأدلة وجود الله ، ومشكلته الصفات الالهية ، ومشكلة خلود النفس ، والتوفيق بين الفلسفة والدين . ومما يجدر ذكره أن ابن طفيل كان حريصا على تقديم أكثر من دليل على وجود الله ، كل دليل منها يعتمد على فكرة غير الفكرة التي يعتمد عليها الدليل الآخر بصورة أو بأخرى ، دليل أول يعتمد على فكرة انحره ، ودليل ثان يبين لنا كيف أن حدود الصورة للمادة يحتاج الى محدب ، ودليل ثالث يكشف لنا عناية الله بالكون ، ولولا هذه العناية لهلك العالم في لحظة من اللحظات والاعتراف بين الأسباب ومسبباتها يهدينا الى التصرف بعناية الله بالكون (٢) .

وقد أوضح ابن طفيل بعض الصفات الالهية عن طريق نفيه عن الله تعالى ما تتصف به الموجودات ، تمسكا منه بقواعد التنزيه وموحدا بين الذات والصفات ، « فالله هو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحس ، وهو القدره وهو العلم وهو هو » (٣) .

وفي مجال التوفيق وبين الفلسفة والدين ، اهتمدى بهذه الآراء ضرورة التمسك بحدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض في المسائل الجدلية ، والايمان بالمتشابهات والتسليم بها والاعراض عن البدع والأهواء ، والاعتداء بالسلف الصالح وترك الأمور المحدثه ، وتجنب ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة ، والاقبال على الدنيا (٤) .

(١) ابن طفيل : حر بن بقطان ، ص ٨٧ .

(٢) عاطف العراقي : ابن طفيل ، ص ١٤٠ — ١٤٩ .

(٣) ابن طفيل : حر بن بقطان ، ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ١٧٦ .

ودرس ابن طفيل نظرية الاتصال بالله ، وبدراسته جوانب معبرة عن الفناء والخلول ، وغيرهما عن اسياء يتحدث عنها ا صوفيه وهو بيان لسمو العالم الالهى عن العالم الحسى ، ولم يعبر ابن طفيل عن اتجاه صوفى ، انما استند الى اراء فلسفيه وصلته اى المبادئ العامة للوجود .

ويقول الأستاذ الدكتور عاطف العراقى . ان آراء ابن طفيل حلقة من حلقات المدرسه الفلسفيه الأندلسية ، وهذه المدرسه بأقطبها الثلاثه : ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، لا يعبر واحد منهم من خلال آرائه عن اتجاه صوفى .

اما ابن رشد فقد ارتفع شأنه فى خلافة أبى يوسف يعقوب المنصور ، ولكن الخليفة قلب عليه ظهر المجن ، وتكرر للفلسفة والفلاسفه ، وجمع الفقهاء وشاورهم فى ذلك . ماتهموا ابن رشد بالكفر ، ونفى الخليفة ابن رشد على مقربه من قرطبه ، ويبدو أن الحليفة بعد موقعه الأرك ، ازدادت حماسه الحينية ، ولا يغيب عن الأذهان سعى الحاسدين لابن رشد لدى الخليفة . ودمه الفقهاء والنسوح فى المساجد ، وهجاه اشعراء ، ولكن أهل الخير أصلحوا بينه وبين أبى يعقوب ، فاستدعاه الى مراكنس ، واكرم وفادته ، وطل بها حتى وفاته ٥٩٥ هـ ، ومن أبرز مؤلفاته فى الفلسفه ، شروح مؤلفات أرسطو ، وطبع شروح مطوله لكتاب « التحليلات الثانية » — « السماع الطبيعى » « ما وراء الطبيعى » و (السماء والعالم) و (النفس) ومؤلفات أخرى لأرسطو رسائل (السماع الطبيعى) و (السماء والعالم) و « الكون والفساد » و « الآثار العلوية » و « النفس » و « وما وراء الطبيعى » .

ومن كتبه التى وضعها بنفسه كتاب « تهافت التهافت » وله كتاب (المقدمات) عبارة عن اثنى عشرة مسألة فى المنطق ، وكتاب « اتصال العقل الفعال بالانسان » وله فى علوم العقائد « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » والثانى هو (الكشف) .

انستعل ابن رشد بالطب ، وصف كتباً في هذا المجال ، ومن أهمها كتاب الكليات ، وهو الذى يتضمن الاحكام الكلية في ميدان الطب ، وقد درس طلاب الجامعات في العصر الوسيط هذه الكتب ، لأنه يتضمن معلومات عامة في الطب ، وكان حذراً في وصف العلاج ، وشغل منصب الطبيب الخاص لأبى يوسف المنصور ، ولما عاد المنصور من إحدى حروبه سنة ٥٩٣ هـ ، كتب اليه البعض مقالات يشككون المنصور في صحة عقيدة ابن رشد ، فنفاه فبفترة محدودة ثم عفا عنه واستدعاه الى مراكش ، وتوفى ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ .

وتصوير مبادئ ابن رشد على أنها كفر وزندقه جاء من بعض علاة الفقهاء وأشياعهم ، اذ أرادوا السيطرة على حرية الفكر ورفضوا الحوض في الفلسفة على اعتبار أنها من العلوم التى لم يعد هناك مجال لدراسنها ، واستجاب المنصور لهم لا موافقه على آرائهم ومبالعتهم بل ارضاء لهم ، وفي ارضائهم ارضاء للشعب ، لأنهم زعماءه الروحيون .

والطب في نظر ابن رشد جزء من الفلسفة ، التى كانت في ذلك العصر دراسة شاملة للوجود ككل ، بما يشمله من مجالات عديدة . ولما كان ابن رشد — كما قلنا — قد درس الطب ككل فقد نصح صديقه الطبيب المشهور ابن زهر بأن يعنى بدراسة الأمور الجزئية في الطب في كتاب ، وأصبح الكتابان يكمل أحدهما الآخر .

وصنّاعه الطب في نظر ابن رشد لابد وأن تتصل بالعلم الطبيعى ، وقسمها الى سبعة أجزاء ، يعرض في الجزء الأول أعضاء الانسان التى شوهدت بالحس ، والجزء الثانى ، الصحة وأنواعها ولواحقها ، والثالث المرض بأنواعه وأغراضه ، والرابع العلامات الصحية والمرضية ، والخامس الآلات ، وهى الأغذية والأدوية ، والسادس الوجه في حفظ الصحة ، والسابع الحيلة في ازالة الأمراض .

عارض ابن رشد الطريق الصوفى في كثير من المجالات ، ويأخذ عليهم

أن طرقهم في النظر ، ليست طرقا نظريا أى مقدمات تؤدى الى نتائج ،
اذ أنهم يرون أن معرفه الله وعيره من الموجودات عبارة عن سىء يلقي في
النفس بعد تجردها من الماديات ، وهم يعرفون الله بالله لأن العقل عاجز
لا يدل الا على عاجز مثله . وبذلك لا يلتقى الطريق الصوفي بالطريق
العقلى ، لأن انتجربه الصوفيه ليست راجعه الى احس أو العقل ، وانما
هى نور يقذف به الله في قلب من احبه ، لذلك يعارض ابن رشد الطريق
الصوفي الذى لا يتفق مع العقل ، وتبطل النظر ، والقرآن الكريم دعا الى
النظر والاعتبار (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) سوره
الأنعام ٥٠ رقم ٦ — (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) ١٠١
يونس ١٠ — (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المجرمين)
٢٧/٦٩ النمل — (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) ٢٩/٢٠
العنكبوت .

وبذلك لا يمكن اقامة البرهان على أى قول من اقوال الصوفية :
لأها تعبر عن نزعات شخصية وجدانية لا تستقيم مع قضايا العقل (١) .

وهكذا يوضح لنا ابن رشد ان الطريق الصوفي يقتنافى مع الطريق
العقلى ، والطريق الصوفي فردى ذاتى ، ولذلك فان آراءهم تفتقد الدليل
المقنع والبرهان الأكيد ، لأن أفكارهم — كما أوضحنا — تتنافى مع العقل ،
فلا بد من قواعد وأسس للمعرفة العقلية ، ويرفض ابن رشد ما رده
اصوفيه بأن المعرفه تتصل الى الصوفي بطريق الالهام لا بطريق العقل ،
ولا يمكن تفسير المعرفة بالعجائب والخوارق .

من أهم الانجازات التى حققها ابن رشد تعمقه في دراسة أرسطو
فحصل على كل ما استطاع الحصول عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف
وانكب على شرحها وتلخيصها ، وفضل ابن رشد ، أرسطو على جميع
الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعده ، ولكنه على الرغم من ذلك

(١) عاطف العراقي : المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد ، ص ٢٦١ .

يناقش آراء أرسطو ويؤيد بعضها ، ويرفض بعضها الآخر وكان يريد أن يقدم للعالم الاسلامي فلسفه أرسطو خاليه مما تسببها من أخطاء السراح والمفسرين وتأويلاتهم ، وهذا عكس ما فعله لابن سينا اد كان يعرض آراءه لينقدها أو ينال منها .

وقد اختلف ابن رشد مع الغزالي ، لأن الغزالي اتهم الفلاسفه بالكفر ، وذلك بسبب تصوفه ونزعه الدينية المتطرفة ، وأرجع الغزالي كفر الفلاسفه الى تأثرهم بالفلسفه اليونانيه ، وقال الفلاسفه خطأ بقدوم العالم ، وبأن الله لا يحيط علما بالجزئيات .

ونقد ابن رشد علماء الكلام لأنهم أهل جدل لا برهان لهم فهم قد آمنوا بآراء معينه بناء على اعتقادات سابقه ، وهو يرفض كذلك التصوف ، لأنه خاص بجماعه دون أخرى وعلى حين أنه يريد الأسس الشامله والمبادئ العامة الواضحه التي يسير على هديها العقل في اصداره الأحكام على الأشياء ، والنظر في الموجودات .

وابن رشد اذا كان قد اطلع على كثير من آراء الفلاسفه كالفارابي وابن طفيل وغيرهما ، فانه كان أكثر منهم التزاما بالاتجاه العقلي وبخصائص الفكر الفلسفي ، واستفاد من الفلاسفه السابقين عليه وكشف عما وضعوا فيه من أخطاء ، اذ هو يأخذ بمذهب أرسطو ، وهذا هو سبب خلافه مع الفلاسفه السابقين عليه^(١) .

ودرس الفلاسفه بافاضة آراء ابن رشد ، وتوصلوا الى أن نظريته في المعرفة ، ترتفع من المحسوسات الى المعقولات ، ومذهبه في العقل والوجود ، يقوم على الارتباط الضروري بين السبب المسبب ، ورد كل شيء الى أسباب تدرك بالعقل وآرائه عن العقل والانسان تقوم على أساس التسليم بنواميس الكون ، والاعتراف بالخصائص الضرورية لكل شيء^(٢) .

(١) عاطف العراقي : النزعة العقلية في فلسفه ابن رشد ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

وهو يفضل في الدين الأدلة البرهانية على غيرها من الأدلة الخطبية
والجدلية ، والحلاصة أن مذهبه يتخذ من العقل هادياً ويرى على مبادئ
المنطق .

ولابن رشد مؤلفات كثيرة ، وشروح متعددة في موضوعات فلسفه
وعلم الكلام والنحو والطب والفقه ، وفقد الكثير من مؤلفاته ومن أهم
مؤلفاته « فصل المفضل فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وكتب
(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) وكتاب « صحيفة لمسائل العلم
القديم » وكتاب « تهافت التهافت » الذي رد فيه على الغزالي ، وكتاب
« الكليات في الطب » .

من شروحه وتلخيصاته « تلخيص كتاب النفس » و « تلخيص كتاب
الحس والمحسوس » — « تلخيص كتاب الخطابة » — « وتفسير ما بعد
الطبيعة » — « تلخيص ما بعد الطبيعة » — « تلخيص كتاب الشعر —
» شرح أرجوزه ابن سينا في الطب « — « تلخيص كتاب البرهان » —
« تلخيص كتاب القياس » .

ورساله عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وتعريف ما وقع فيها بحسب
التأويل من الشبه المزيفه والبدع المضلة وألف في الفقه « بداية المجتهد ونهاية
المقتصد » وهو على مذهب مالك الى غير ذلك من الكتب الفلكية والطبية .

وابن رشد كفيلسوف شارح لمؤلفات أرسطو ومعلق عليها . ويرجع
الفضل الى هذا الفيلسوف القرطبي المسلم في أنه أتم أول محاولة للتوفيق
بين الحكمة والشريعة .

ترك ابن رشد تلاميذه في الأندلس حملوا آراءه وأفكاره الى الناس ،
وصنفوا الكتب في فلسفه أستاذهم ، وكان تأثير مذهب ابن رشد قوياً في
الفكر الأوربي ، فقد ترجم اليهود شروحه الى العبرية ولخصوها ، وكانت
هذه الترجمات والمختصرات هي العماد الأكبر الذي بنى عليه العلم العبري

ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي ، وظلت كتابات ابن رشد مصدر الهامهم .

محيى الدين بن عربى :

تتمثل أعلى صورة وصل اليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة عند مسلمى الأندلس المتفرع من مدرسه ابن مسرة فى شخص أبى بكر محمد بن على بن عربى ت ٦٣٨ هـ ، وقد عرف بمحيى الدين وبالشىخ الأكبر ، وابن افلاطون قضى سنوات طفولته وصباه ، ودرس علوم الحديث والفقه والتفسير والأدب واللغة ، ثم زهد الحياة بعد تفكير فلسفى عميق ، وانصرف الى دراسة كتب التصوف ومارس حياة التصوف مع شيوخ كثيرين ، وعندما استكمل عدته ، خرج يجول فى الأرض ، وقضى بقية حياته متجولا فى بلاد المسلمين والنصارى ، بتعلم ويعلم ويجادل ، ولقى بعض الصوفية فى المغرب ، وهو الذى بدأ ثورة المريدين فى غرب الأندلس على المرابطين ، وبعد أن قام بسياحات متعددة فى بلاد المغرب والأندلس ، استقر فى فاس سنة ٥٩١ هـ ، حيث انصرف الى الرياضة الروحية ، وغادر المغرب الى المشرق لسوء علاقته بالموحدين ، ووضع قبل رحيله كتاب « مواقع النجوم » أوضح فيه الطريق الذى يجب أن يتبعه المريدون ، وتوجه الى مصر ومنها الى مكة المكرمة سنة ٥٩٨ هـ ، وحدث الناس حول ما سيحل بهم ، وتعلق بفتاه من أهل مكة ، وضع فيها مجموعة من شعر العشق ، وكتب كتابه « الدرة الفاخرة » ويتضمن سير الصوفية من شيوخه وزملائه من أهل المغرب .

ورحل الى الموصل سنة ٦٠١ هـ ، ثم القاهرة ٦٠٣ هـ ، وظهرت له كرامات ، ولكن الفقهاء هاجموا قواه بوحدة الوجود ، ثم رحل الى قونية بدواة سلاجقة الروم وتلمذ عليه كثيرون ، ووضع كتابين « مشاهد الاسرار » و « رسالة الأتوار » ثم ساح بنواحي الأناضول ، وعاد الى بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، واجتمع به المريدون ، وتلمذوا عليه ، وعاد الى مكة حيث كتب « ذخائر الأعلاق » ترحا على ديوانه « ترجمان الأنسواق » وقد أبرز فى هذه الكتب العشق الروحى الذى يقصده من

كتابه وهو بعيد كل البعد عن العنق الجسدى • وعاد الى دولة سلاجقة الروم ، ثم توجه الى حلب ، حيث لقيه السلطان الظاهر غازى صاحب حلب ، واشتد به المرض ، فكتب كتاب « الحكمة الالهامية » وهو رد على الفلاسفة على طريقة الغزالى واستقر فى دمشق حتى وفاته ٦٢٠ هـ •

كتب ابن عربى أربع مائة كتاب ورسالة ، وأعظم كتب ابن عربى « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المكية والملكية » وجمع فيه كل ما أورده فى كتبه الأخرى •

والفكرة الرئيسية التى يقوم عليها تفكير ابن عربى هى الزهد والقول بوحدة الوجود والشك الصوفى ومذهب الصوفية فى النفس ، وجمع بين هذه الآراء المتباينة ، ونسقتها ، ويرى ابن عربى أن لا دواء ينسقى من الحيرة التى وقع فيها الانسان من أفكار الفلاسفة ، لا الزهد والتصوف ، وذاعت آراء ابن عربى فى البلاد الاسلامية وغير الاسلامية •

ينسب ابن عربى الى قبيلة حاتم الطائى ، وهو أبو بكر محمد بن على ويلقب محبى الدين والشيخ الاكبر وابن أفلاطون ، ونشأ فى مرسية بالأندلس فى عصر الموحدين ، ونشأ من أسرة متدينة يغلب عليها الزهد والتصوف ، وانتقل فى طفولته الى اشبيلية مع أهله وهناك درس التاريخ والأدب والقراءات والشعر ، وتولى وظيفة فى بعض دواوين اشبيلية وهو فى شبابه الغض ، ولما توفى والده تأثر لذلك كثيرا حتى تحول الى الله بكليته نهائيا ، ويشير ابن عربى فى بعض كتبه الى الكرامات التى صحبت وفاة والده ، ودخل الحياة الصوفية ، وصار صوفيا ، بعد أن تجاوز العشرين فى حوالى سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م • وفى سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠م ارتحل صوفى شهير الى اشبيلية ، واتصل بابن عربى للاستفادة منه ، وعكف ابن عربى بعد أن تحول الى طريق التصوف على قراءة كتب الصوفية وعلى الاجتماع بشيوخ الطريقة ، وتلقى الكثير من الآراء والأفكار عن المتصوفين الذين اتصل بهم وتعلم منهم الاتصال بأرواح الموتى ، وكان ابن عربى يتصل بالشيوخ والعلماء ، وقد أشادوا بعلمه

وورعه وزهده ، وتلقى ابن عربى عن شيخين متخصصين فى عملية محاسبة الضمير يوميا ولكن طريقتهم كانت مقصورة على المحاسبة على الأفعال والأقوال ، فأضاف إليها ابن عربى المحاسبة على الخواطر أيضا ، وعمل على تكوين روحه منذ سنوات بشبابه بالزهد فى السهوات •

وبعد فترة من الزمن آثر ابن عربى العزلة ، وترك التسايح و خلا إلى المقابر ، يقضى عندها النهار بطوله على اتصال مباشر بأرواح الموتى ، كان يجلس على الأرض باكيا ، متأملا فى قدرة الله وفوته ، متؤملا فى قضية الحياة والموت ، وبذلك اشتد إيمانه بالظواهر الحارقة فى الحياة الصوفية ، وشاهد بنفسه كرامة قدمها صوفى ، وهى عدم الانزلاق بالنار • وكان ابن عربى يرى فى المنام ما يتحقق فى اليوم التالى ، الأمر الذى أثار دهشة أهل اشبيلية ، واعتقادهم فى ولايته •

وأتم ابن عربى تكوينه الصوفى تحت اشراف جميع الشيوخ الدين اتصل بهم ، وكان يقضى أياما كثيرة فى مسجد الزبيدى يصحبه أبى يحيى الصنهاجى الضرير — صاحب الكرامات الذى علمه أن يصبر على اضطهاد العامة ، مخفيا الولاية ، وتعلم الفائدة فى حياة التجوال بالنسبة إلى الصوفى ، واتصل بالصوفية رجالا ونساء وقد صحب الصوفية فاطمة سنتين متتاليتين ، مريدا وخادما ، وعاش معها عيشة طاهرة فى كوخ من القصب ، بناء هو نفسه فى اشبيلية ، ليتعود حياة العزلة ، ويشاهد عن قرب الظواهر العجيبة ، التى كانت تصدر عن فاطمة ، وحضور الجن حينما تدعوهم •

وبعد أن تعمق ابن عربى فى دراسة التصوف ، جال فى الأرض ، وكانت حياته سياحة مستمرة ، طاف بلاد المشرق والمغرب ، متعلما ومعلما ومناقشا ، وبدأ جولاته فى قرى الأندلس وهدبه ومن البلاد التى زارها ، مدينة الزهراء — قرب قرطبة — وهى التى شيدها عبدالرحمن الناصر ، أوحى إليه.أطلالها بتأملات حزينة تبكى من شيدها وبنائها وأقام صرحاها ، ذكر فى ذلك أبياتا :

ينفوح عليهما الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينما يرجع
فخاطبت منها طائرا متغردا
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت : على ماذا تنفوح وتشتكى
فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ورأى في منامه أسماء الصوفية في عالم الاسلام ، واشتهر أمره
بصفته صوفيا في بلاد الأندلس ، ولجأ اليه التسيوخ ، يسألوه الرأي
في المسائل الصوفية .

ويبدو أن روح ابن عربى القلقة لم تقنعه بحدود بلاده الضيقة
فارتحل منها الى افريقية قبل سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وكان هدفه
الرئيسى أن يلتقى بالشيخ الاشبيللى ابن مدين ، الذى أقام مدرسه
صوفية في مدينة بجاية منذ عدة سنوات ، ويتسیر اليه ابن عربى بوصفه
شيخه ، وأورد في كتبه كراماته ورؤاه ومناقبه ومذاهبه ، ولم يقم ابن
عربى كثيرا في بجاية ، ورحل الى تونس سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وهناك
اكرمه حاكمها ، وأنزله منزلا جليلا من الاكرام والتبجيل والاعزاز ،
ويقول ابن عربى بأنه في أثناء اقامته بتونس تجلى له الخضر من جديد
في ليلة قمرية كان ابن عربى يستريح فيها من دراساته ومجاهداته
الصوفية ، ومن بين أسباب زيارته لتونس حرصه على لقاء صوفى خبير
هو أبو محمد عبد العزيز ، ولم يلبث ابن عربى أن غادر تونس عازما على
السير بجذاء الشاطيء حتى يماغ اسبيلية لان الاضطرابات السياسية
في شمال افريقية جعلت من الصعوبة عليه البقاء فيها ، وعاد الى الأندلس
ونزل في ميناء طريف ، ثم عاد الى سبيلية ، حايث وقعت له كرامة جديدة
أعجبت من كان شاهده ، وثبت ذلك اعتقاد الناس فيه ، فقد قيل بأن ابن
عربى قد ألف قصيدة في ذهنه لم ينسخها ، ولم يقرأها لاحد من الناس ،
ورغم ذلك فقد أنشدها نسخ لا يعرفه .

وفي سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م ، عاد ابن عربي الى بلاد المغرب ونزل في فاس ، واتصل بالمشايخ والاخوة في طريق الله الذين سيتردد عليهم كثيراً في السنوات التالية ، منهم صوفي أفاد ابن عربي في علوم السحر ، وتتبع بعض الشيوخ هناك بانتصار الموحدين في موقعة العقاب سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م الأمر الذي شجع ابن عربي على العودة الى الأندلس ، ونزل في شبيلىة عند أحد أصدقائه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، حيث ازدادت شهرته ، وأقبل الناس على قراءة كتبه ، والاستفادة منها ، وعاد شيخنا الى فاس سنة ٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م ، وعكف على الدراسات والمجاهدات هناك ، وكان يحضر دروس المشايخ في فاس . وكان يجلس في أحد بساتين فاس ، ويلتف حوله تلاميذه ، فيستمعون الى محاضراته في الصوفية ، واتخذ لنفسه آراء مستقلة ، ودحض آراء بعض المشايخ .

وقد نال ابن عربي شهرة كبيرة بين تلاميذه — لكن حكام الموحدين كانوا ييغضونه ، ويخشون على حكمهم من الصوفية ومن ثوراتهم ، وقد جرى حديث بين ابن عربي والسلطان يعقوب المنصور ، يدل على ذلك . فقال السلطان لابن عربي : ذل من ليس له ظالم يعضده ، فقال له ابن عربي : وصل من ليس له عالم يرشده ، فقال : يا أخى : الرفق فقال ابن عربي : ما دام رأس المال محفوظا ، يعنى الدين ، فقال : صدقت ، وسكت عنه .

لذلك رأى ابن عربي مغادرة المغرب نهائيا حتى ينال في المشرق من الحظوة والتقدير ما لم ينلها في المغرب ، وفي أثناء مغادرته للمغرب تجأى له الخضر للمرة الثالثة ، وهو يسير في الهواء بحضور ناس آخرين .

وفي سنة ٥٩٧ هـ — ١٢٠٠ م ، توجه ابن عربي الى مراكش — عاصمة دولة الموحدين — بصحبة الصوفي أبو العباس السبتي ، وبينما ابن عربي في مراكش ، اذا برؤيا يراها ، تطلب من ابن عربي الرحيل الى فاس للقاء محمد الحصار ، ويرحل معه الى الشرق ، الذي أخبره هو أيضا أنه رأى هذه الرؤيا . وارتحل الرجلان الى تلمسان ، وأقبل ابن

عربي إلى بجاية سنة ٥٩٧ هـ ، وواصل ابن عربي رحلته ، فتوقف في تونس وفيها وصل إلى درجة من أعلى درجات السلوك ، وأقام ابن عربي في تونس تسعة أشهر إلا قليلا ، ثم استأنف الرحلة إلى الشرق ، وفقد صاحبه محمد الحصار أثناء الرحلة ، ومر بمصر ولم يقيم طويلا بها ، واستأنف السير إلى غايته ، إلى مكة المكرمة وبلغها سنة ٥٩٨ هـ ، وذاع صيته في هذه المدينة المقدسة والتف حوله الصالحون والعلماء والزهاد . واستقرت حياته نسبيا سنة ٥٩٨ هـ ، ونشط نشاطا كبيرا في مجال التأليف والتصنيف . وفي سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ، صنف كتاب « مشكلة الأنوار فيما روي عن النبي من الأخبار » وفيه جمع أربعين حديثا بأسانيدھا المتصلة حتى الله (أحاديث قدسية) وفي الطائفة ألف كتاب « حيلة الأبدال » وكان الطواف في البيت العتيق بحياته ينشئ في روحه رؤى وتجليات كثيرة فظهر له بعض الصوفية الذين ماتوا منذ قرون أثناء طوافه وتحدث معهم ، وتتبا بوقوع كارثة في اليمن ، وفعلا حدثت وهبت عليها ريح عاتية ، قاسى منها اليمنيون الكثير وحدثت كوارث وأوبئة في بلاد الحجاز أيضا ، إلا أن هذه المصائب لم ترزع أيمانہ ، وصنف في أثناء ذلك كتاب « للذرة الفاخرة » ووجهها إلى صديقه في تونس وفيها تراجم لثيويوخي في التصوف في المغرب ، والذين أفتاد منهم في حياته الروحية .

وفي سنة ٦٠٠ هـ / يشرع في الترحال والتجوال ، وفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م يمر ببغداد ، ويقيم بها عدة أيام ، وغادرها إلى الموصل ، لزيارة أحد شيوخ الصوفية ، وكان لهذا الضوق بـ كما يفعلون ابن عربي — بستان خارج الموصل ، وفي هذا البستان ظفر ابن عربي بشرف تلقى خرقه الخضر لثالث مرة من يدي ابن جامع الذي تلقاها مباشرة من الخضر ومن هذا التاريخ أصبح ابن عربي يعتقد في الأهمية الكبرى لهذا الرسم من مراسم الصوفية ، وأوصى بذلك المريدين ، كدواء ناجح لعلاج الأزمات الأخلاقية .

(١) انظر كتاب « ابن عربي » للاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي .

وفي سنة ٦٠٣ هـ — ١٢٠٦ م ، ارتحل ابن عربي الى مصر ، وكانت جماعه من الصوفية من أصحاب ابن عربي ومريديه قد أقاموا في بيت بزقاق التناديل بالقاهرة ، فانضم اليهم ابن عربي وقضى معهم الليالي في العبادات والمجاهدات واتيان الكرامات العجيبة ، وكانوا يقضون أوقاتا في الظلام ، فيعتقدون بانبعث أنوار منهم تبعد نور الظلام ، وفجأة تجلى لابن عربي شخص رائع الجمال ، ألقى اليه بكلمات في غاية الحسن يوحى فيها من الله بأمور تتعلق بالاتحاد الصوفي ، معناها يدل على وحدة الوجود •

ولم يرض شيوخ السنة عن آراء ابن عربي ، فاتهموه بالكفر والالحاد ، وطالبوا بقتله ، واضطهد ابن عربي عقب ذلك وتجادل شيوخ الفقه حول آرائه وحقيقة إيمانه ، ولقد دخل ابن عربي من قبل مع فقهاء الشرق والغرب في مجادلات حول آرائه وأفكاره ، ومن حسن حظ ابن عربي أن الملك العادل الأيوبي لم يستمع الى نداءات الفقهاء بسجنه والتخلص منه •

ولم يؤثر هذا الاضطهاد على المذهب الصوفي لابن عربي ، بل زادت حماسته ، ولم يلبث أن غادر القاهرة الى الاسكندرية ، ومنها ذهب الى مكة ، وظل بها حتى سنة ٦٠٤ هـ — ١٢٠٧ م ، لكن السماء — كما يقول — نادته وأمرته بالسياسة الى قونية ، وكانت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، واتصل بالسلطان كيكاوس الأول سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م ، وأنزله السلطان السلجوقي في دار نليق به ، وأقام فيها بعض الوقت ، وأهداها ابن عربي صدقة الى أحد السائلين ، وفي هذه الفترة الهائلة من حياة ابن عربي ، استأنف التأليف والتصنيف ، فكتب كتابين هما : « مشاهد الأسرار » و « رسالة الأنوار فيها يمنح صاحب الخلوة من الأسرار » ، وفي أوقات فراغه كان يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانقناع بتعاليمه والاقتداء به ، وكان له تلاميذ يشهدون له بالولاية ،

ويقولون بأن ابن عربي كانت تظهر له تجليات سماوية للأرواح النبوية ، على هيئة جسمية ، أو تتحد بروح ابن عربي في مشاهد وجدانية خارقة ، وشاهد الناس كراماته فأمنوا به واعتقدوا فيه .

استأنف ابن عربي رحلته في آسيا الصغرى وأرمينية وفي خلال رحلاته اتصل بالصوفية ، وفي سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ م عاد الى بغداد للاتصال بالصوفي الشهير شهاب الدين عمر السهروردي وكان صاحب مدرسة في الوعظ والمجاهدات الصوفية ، وشيخ مشايخ الصوفية ، وذاع صيت ابن عربي في بغداد حتى التف حوله الصوفية ، وكان يمشي في شوارع بغداد محاطا بتلاميذه ومريديه حتى علت مكانته على مكانة الخليفة الناصر .

وعاد ابن عربي الى مكة في سنة ٦١١ هـ — ١٢١٤ م ، وعكف على العبادة المعتادة في الكعبة ، وكتب شرحه على « ترجمان الألسواق » وقد رد في هذا الكتاب على مزاعم الفقهاء الذين هاجموا بعض أشعاره لما فيها من لهجة حسية شهوانية تشيع في قصائده دون أن يدركوا معانيها الصوفية . وعاد الى آسيا الصغرى وتنبأ بانتصار كيكافوس في أنطاكية في قصيدة كتبها للسلطان جاء فيها :

قصدت بلاد الكفر نبغى فتوحها
فابشر ، فإن الروم فيك لفي خسر
رأيت لكم رؤيا تبدل على النصر
وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
إذا جاء نصر الله والفتح فلتجد
بصالك من خير على العسر واليسر

وقد لقي ابن عربي الحفاوة والتكريم من سلاطين وملوك عصره مثل الملك الظاهر — صاحب حلب — ووضع كل ثقته في ابن عربي ، وأفرد لابن عربي بيتا خاصا ، وكان أهل حلب يوسطونه لدى الملك في قضاء حوائجهم ، والملك لا يرد له طابا وزاد نفوذه على نفوذ كبار رجال الدولة

والفقهاء ، ودارت بينه وبين الفقهاء مجادلات كثيرة حول التصوف •

وكان ابن عربى يحصل من أسد الدين شيركوه — سلطان حمص — سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م كل يوم على مائة درهم ، فكان يتصدق بها •

كتب ابن عربى أكثر من أربعمئة كتاب ، ولم تكن هذه الكتب تتمسّى مع العقل والمنطق ، لأنه لم يستطع التخلص من تأثير النوحى الإلهى الذى كان يملئ عليه ما يجب أن يكتبه أو لا يكتبه •

واشتد به المرض نتيجة كثرة أسفاره ، وإقامته فى بعض الاوقات فى بلاد شديدة البرودة ، ومجاهداته الروحية ، وفى مرضه صنف كتاب « الحكمة الإلهية » وهذا الكتاب على نمط كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى • وقد مرض فى أثناء تأليفه لهذا الكتاب ، ولم يسمح له مرضه بالتفكير أثناء وضع الكتاب فى المسائل الطبيعية ، فألهمه الله حلها دون تفكير ولا تأمل ولا نظر ، وفى سنة ٦٢٠ هـ — ١٢٢٣ م استقر ابن عربى فى دمشق وكان فى الستين من عمره ، ولم يغادرها حتى وفاته • وبالف الملك المعظم ابن الملك الكامل فى إكرامه ، وكانت صلته بابن عربى صلة المريد بالشيخ ، وقد تعددت تجلياته فى السنوات الأخيرة من حياته ، وانقطع فترة فى صحراء خارج دمشق • ويقول ابن عربى : بأن النبى ظهر له سنة ٦٢٧ هـ ، وسلمه كتابا سماه « فصوص الحكم » وأمره بإذاعته ونشره بين الناس لما فيه من كمال صوفى ويعرض فى هذا الكتاب أغرب نظرياته فى وحدة الوجود على هيئة الهامات يعزوها إلى التوالى إلى تعليم السبعة وعشرين نبيا للرئيسيين بين الأنبياء الذين يعتز بهم الإسلام ابتداء من آدم وانتهاء بمحمد ، وأقبل طلاب ابن عربى على دراسة هذا الكتاب والتعليق عليه •

ويعتقد أنه ألف كتاب « الديوان » بعد سنة ٦٣١ هـ — ١١٣٢ م وتتجلى فى قصائده فى الديوان لهجته عن الوجد الصوفى • ويعتقد أن

(١١) انظر الرسالة القيمة التى كتبها الدكتور عبد الرحمن بدوى من

ابن عربى •

ابن عربى أتم فى تلك الفترة كتابه الاكبر « الفتوحات المكية » وقد استغرق تأليفه بضع سنين ، وهذا الكتاب خلاصه شاملة لكل مؤلفاته بما فى ذلك قضائده الشعرية ، وقد وضع هذا الكتاب بعد أن زار القدس والمدينة ، وزار مكة لأول مرة ، وفتح الله عليه عند طوافه بيئته الحرام ، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والمكية » ويذكر فى مقدمة كتابه أن الرسول ظهر له فى المنام ، ولقنه خطبة طويلة من وحي الروح القدس •

وقد شرح الصوفية هذا الكتاب ، ونال شهرة واسعة بينهم ، واعتقدوا بما فيها من آراء وأفكار صوفية ، وه نكتب ابن عربى فى التفسير كتاب « تفسير الكبير » ولم يتمكن من اتمامه ، ثم كتابه المعروف « تفسير الشيخ الاكبر » وهو تفسير رمزى صوفى للقرآن وأطلق فيه العنان لتأويل الرمزى المستور ، وله رسائل لأهل الطريق ، توضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه •

وعاش ابن عربى فى هدوء شديد فى دمشق فى أيامه الأخيرة مع أسرته ، وكان موضع تقدير الناس حكما ومحكومين ، وكان الملك الأنسرف ابن الملك العادل يحضر دروسه ، وتلقى الاجازة منه برواية كتبه ، وكان قاضى الشافعية يخدمه خدمة العبيد تقديرا واجلالا له ، وقام القاضى ابن زكى بترتيب معاشه فى دمشق ، ثلاثين درهما كل يوم ، وأنزله فى منزله •

وعاش ابن عربى فى شيخوخته يصنف مصنفاته حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ — ١٢٤٠ م وقد اقترب من الثمانين ، ودفن قرب دمشق فى قرية الصالحية على سفح جبل قاسيون ، يعتقد الناس ، أن الأنبياء زاروه خصوصا الخضر •

وقد ظلت شهرته بعد وفاته قائمة ، ونسب اليه الصوفية وأتباعه الكرامات والأساطير ، وأمر السلطان سليم الثانى سنة ١٥٧٩ م ببناء مسجد باسمه ، ومدرسة كبيرة على ضريحه ورتب الأوقاف عليهما •

ولا تزال كتب ابن عربي حتى يومنا هذا في المكتبات العربية ،
ويقبل على قراءتها ودراستها الصوفية والدارسون ، وانطرق
الصوفية في الشرق الاسلامى تستلهم القواعد العمليه والنظرية في
تصوف ابن عربي •

ومن أهم آراء ابن عربي ، وحده الوجود : ويفسرها الدكتور
بلاثيوس (١) بقوله : اذا كان العالم يصدر عن الله ، والمخلوقات هي
علامات وآثار وتجليات له ، واذا كان الجوهر أو الحقيقة العددية
للكون واحدة ، هي الحقيقة الالهية ، واذا كان لا يوجد خارجها غير
ظواهر هي بمثابة أعراض لها ، فمن الواضح أن ادراك هذه الوحدة
في الوجود ينبغي أن يكون المطلب الأسمى للتصوف : فالنفس ، بعودة
مثالية ترجع الى الاتحاد بالله الذي صدرت عنه • ويقول ابن عربي في
نظريته بأن الحلول (وحدة الوجود) ليس سببها بوصول الجسم
بالجسم ، أو العرض بالعرض أو العلم بالمعلوم ، أو الفعل بالمفعول ،
بله الاتحاد أو الوصول متخيلا أكثر منه حقيقا ، ويشاهد الصوفي
محبوبه بالقرب منه على نحو كأنه يشاهده بعينه ، ويسعر بلذة
الوصول بتجربة ألطف وأعذب من الوصال الجسماني ، لأن الله روح
محض فلا يمكن للإنسان أن يتصل به الا عن طريق التخييل •

(١) ابن عربي حياته ومذهبه ص ٢٥٢

الفضل السابع

مملكة غرناطة ونهاية الأندلس

مملكة غرناطة

أو دولة بنى الأحمر

كانت مملكة غرناطة البقية الباقية من ملك العرب في أسبانيا ، بعد أن فقد العرب أملاكهم في أسبانيا ، ودالت دولتهم ، واستولى الأسبان على بلدانهم ، البلدة تاو الأخرى ، وفيما بين ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) و ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) فتح فرديناند ملك قشتالة وجايم الأول — ملك أرغون — مدن يونسية وقرطبة واشبيلية ومرسية ، ولم يبق للعرب سوى غرناطة ، وقدر للعرب أن يستمروا في غرناطة قرنين ونصف قرن .

وكان للعرب في غرناطة جيش قوى ، واجتمع بهذه البقعة الحصينة المسلمون الذين فروا من المدن الأخرى التي استولى عليها النصارى ، وتجمعوا في غرناطة ، وتحصنوا بهذه البلاد التي يحيط بها انحدو من كل جانب ، وكانت غرناطة تؤدي اتاوة سنوية لملك قشتالة حتى تؤجل مصيرها المحتوم قدر استطاعتها .

أسس دولة بنى نصر في غرناطة ابن الأحمر — وهو عربى الأصل لشقرة فيه ، سمي بهذا الاسم ، وكان قوى الشكيمة شجاعا ، غير أنه لم يستطع مقاومة فردناند ، فدان له بالولاء وأدى له جزية سنوية ، واتبع هذه السياسة مع أبنة الفونسو ومضت فترة من الوقت ، ترك فيها النصارى هذه المملكة الإسلامية وشأنها ، وانصرفوا الى توطيد ملكهم ، وابعاد الدخلاء عن بلادهم .

ازدهرت العلوم والفنون في غرناطة في فترة الهدوء هذه وذاعت شهرة مهندسيها وبنائيتها في انحاء أوروبا ، وهم الذين سيدوا الحمراء (نسبة الى لون التربة التي أنشئت عليها) وأنشئ قصر الحمراء فوق أرض مرتفعة تحيط به قمم جبال عالية صعبة المنحدر ، وحصن القصر

بأسوار غطيت بالمرمر ، ونسجت عند كل مسافه حصون تشريف عليه .
وزينوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع ، وزينوها بالأنسكال المصبوبة
ذات الهندسة العربية الفائقة ، وتحيط بها البساتين والحدائق والجداول
مما يبعث فى انفس البهجة والمتعة ، وفى حدائقها أشجار الكروم والبرتقال .

وكان من العجيب أن يعيش العرب فى غرناطة قرنين من الزمان أو
أكثر ، والعدو يحيط بهم من كل جانب ، ولكنهم شعروا بقرب زوال دولتهم
فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر وازدادت قوة النصارى الاسبان
الاتحاد بين مملكتى قشتاله وأرغون بترويج فرديناند من ايزابيلا وكان هذا
الاتحاد نذير الخطر على بقاء المسلمين فى آخر معاقلهم بالأندلس ، وكان
يلى حكم غرناطة فى هذا الحين مولاى على أبو الحسن ، وكان شديد
البأس ، قوى الشكيمة ، وعقد العزم على محاربتهم مهما كانت التضحيات ،
ولم يأبه بما بلغاه من قوة ، ورفض دفع الأتاوة ، لفرديناند ، وهى التى
اعتاد أسلافه أداءها ، ورد فى كبرياء على رسالة فرديناند : ان دار
الضرب لا تطبع نقودا ، ولكنها تطبع سيوها ، وهذا الرد اشارة الى
استعداداته وتصميمه لحرب الأسبان . وشن غارة على المسيحيين فى قلعة
الصخرة فى ليلة شديدة البرودة وقد فزع أهلها من هول الغارة ، وساقهم
جميعا الى غرناطة كما يساق العبيد ، وأبقى بالمدينة والقلعة حراسا أشداء ،
ودخل غرناطة مزهوا بنصره ومحملا بالأسلاب والغنائم ، ودخل الأسرى
من الرجال والنساء والأطفال المدينة كما يدخلها قطيع البقر . ولكن هذا
الأمير بعماله هذا عجل بمصير بلاده المؤلم ، فكان لا بد للنصارى من
الانتقام ، وفعلوا استولى مركز قادس على حصن الحمة عنوة ، وبسبب هذا
الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية فى قلب بلاد المسلمين ،
وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها ، وحاول أبو الحسن عبثا استرداد
هذا الحصن . وكان هذا الحصن نذير الخطر وبداية النهاية لغرناطة .
وقال بعض المعاصرين ان مفتاح غرناطة فى أيدي الكفار . ومنذ ذلك الحين
أصبح هذا الحصن شوكة فى جبين ملوك العرب .

وتبادل الفريقان العرب والاسبان شن الغارات والأعمال التخريبية

في أراضيهم ، ولم يكن من نتيجتها سوى الدمار وتوقف النشاط الاقتصادي . وفي النهاية أعد النصارى جيشا كبيرا بزعامه مركزى قادس لمهاجمة غرناطة ، ولكن الزغل قائد العرب مزق جيشه كل ممزق ، وفر النصارى لا يلوون على دار وفي غضون ذلك اغتصب عبد الله ملك غرناطة من أبيه ، وشن غارة فائسله على النصارى ، وعادت فلول جيشه مهزومه الى غرناطة ففزع أهلها ، ودب في نفوسهم اليأس ، وقبض على أبى عبد الله في هذه الموقعة ، وسيق أسيرا الى قرطبة ، وعاد مولاي أبو الحسن الى ملكه ، ولكن دب فيه الضعف بسبب شيخوخته .

سقوط غرناطة :

كان أبو عبد الله مترددا شؤم الطالع ، وقد استغل النصارى ضعفه فأحسن فرديناند استقباله ، ودارت مفاوضات بين الرجلين حول خلع أبيه ، وفعلأ أطلق فرديناند سراح أبى عبد الله ، وعاد الى غرناطة لانتراع الملك من أبيه ، وتيسير استيلاء النصارى على بلاده ، وتحصن أبو عبد الله بحصن القصبة ، واتخذة قاعدة لشن الهجمات على أبيه ، وكان لهذا الموقف السيء أثره في سقوط غرناطة ، الابن يحارب أباه لصالح العدو ، وأصبح لغرناطة سلطانان ، أحدهما أبو عبد الله ، المنكود الحظ في ميدانى السياسة والحروب ، والبغيض الى العرب لأنه ألعبوبة في أيدي أعدائهم ، والثانى أبو الحسن ، أو هو على الأصح أخوه الزغل ، لأن السلطان قضى بقية أيامه في حزن بسبب موقف أبنة الانهزامى . وفقد بصره ثم مات .

وكان الزغل — آخر ملوك غرناطة الأقوياء — وقضى فترة من حكمه يحارب ابن أخيه أبا عبد الله ، وهكذا انقسم البيت الحاكم على نفسه وكان الأمراء يحاربون بعضهم بعضا ، ويستعينون في خصوماتهم بالعدو ، وقصرت فترة حكم السلاطين ، وكان أهل غرناطة يبقون على السلطان الذى يحارب ، ويعود محملا بالأسلاب والغنائم ، أما السلطان الذى ينهزم يعزلوه . وانتهاز النصارى فرصة ضعف غرناطة ، وضعف سلاطينها ، وما زالوا يشنون عليها الغارات وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم

الغربي من المملكة ، ونقصت أطراف غرناطة قليلا قليلا ، وسفط
الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يتحملوا كل هذه الهزائم ، ودعوا أبا عبد الله
مرة ثانية الى مدينتهم فلم يستطع النبات وحده أمام عمه الزغل ،
فاستعان عليه بالمسيحيين ودخل غرناطة ، وحكمها ، وحاول الزغل صد
المسيحيين عن مآلقه ، وكان البارود قد استخدم في الحروب في ذلك العصر ،
وواصل النصارى شن الهجمات على قلاع مآلقه الحصينة ، اجتمع الفرسان
الاسبان حول مآلقه وحضرت الملكة ايزابيلا بنفسها ، فأثار حضورها
حماس الفرسان والجنود .

وبعد حصار طويل ، قاس فيه أهل مآلقه الجوع والبؤس والحرمان ،
حتى استسلمت مآلقه ، وقد أذلهم الاسبان ، وطلبوهم بأن يفتدى كل
واحد نفسه بفدية كبيرة ، والا وقع في الأسر ، وأمهلوهم ثمانية أشهر ،
وأرسل الاسبان أهل مآلقه الى اشبيلية لخدمة الاسبان فيها ، حتى
انقضت الثمانية أشهر ، ومن لم يستطع وقع في الأسر . وبذلك أصبح
القسم الغربي من غرناطة في قبضة النصارى .

بقى الزغل يسيطر على بعض الأراضي والحصون ، ويواصل في الوقت
نفسه الجهاد ضد الاسبان ، ويشن الغارات على بلادهم ، ولكن فرديناند
استولى بعد حصار طويل وخسائر فادحة على حصونه ، وسقطت بلاد
الزغل في يد الأعداء ، وقبض عليه فرديناند ، فأقطعه أرضا ، ولكنه لم
يبق طويلا في هذه البلاد التي ذهب فيها مجده ، وولى ساطانه فباع أرضه ،
واجتاز البحر الى افريقية ، وهناك قبض عليه سلطان فاس ، فعذبه أشد
عذاب ، وسمل عينيه ، وقضى بقية أيامه في بؤس وشقاء . ولم يبق من
ملك المسلمين سوى غرناطة نفسها ، واستراح أبو عبد الله من نهاية الزغل ،
ولكن فاته أن فرديناند يتخذ أداة ، وأنه سيلقى نفس المصير ، فلا بقاء
لخباثين .

واستاء أهالي غرناطة من موقف أبي عبد الله ، ومن خيانتة لوطنه
وكان يسمع سبه بأذنه ، وكان سعيدا بزوال ملك عمه الزغل ، وبصداقته

لفرديناند • ولم يلبث أن تبين له أن فرديناند كان يستغله فقط للاستيلاء على ما تبقى من مملكة غرناطة ، فأرسل اليه يدعوه الى التسليم بالشروط التي حددها ، وبعثا حاول أبو عبد الله أرجاء هذا الأمر ، لذلك أعلن أبو عبد الله الجهاد ، وشن غارات على أراضي النصارى ، وأحرز بعض الانتصارات ، ولكن كل هذه المحاولات كانت يائسة ، فلم يعد هناك مفر من الاستسلام ، وفعلا خرج فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) للحرب الصليبية لآتى اعتادها كل عام ، وعزما ألا يعودا الا وغرناطة في قبضتيهما ، وكان جينس الملك يتكون من أربعين ألفا من المشاة وعشره آلاف من الفرسان • ورأى أهل غرناطة أن الموت في ساحة القتال أفضل من الاستسلام للعدو الذي يريد أن يستولى على أراضيهم ويزيلهم ، وقام فرسان العرب بأروع ضروب الشجاعة والاقدام ، واحرق الملك بساتين ومزارع العرب ، ولما لم يجد العرب فائدة من مقاومة العدو، أغلقوا أبواب مدينتهم ، وقاوم أهل المدينة المحاصرين الجوع ثمانين يوما حتى أهلكهم ، وتوسلوا الى السلطان أبي عبد الله بطلب الصلح وفي ٢٥ نوفمبر ١٤٩١ ، وقعت شروط التسليم ، وبمقتضاه تسلم المدينة الملكين بعد وقت معين ، ودخل الملك المدينة بجيوشه والحرب في حزن على ما أصابهم ، ونصب علم قشتالة وأراغون فوق قمة برج المدينة ، وسلم أبو عبد الله المدينة الى فرديناند وولى منطلقا الى الجبال وعاد الى افريقية هو وقومه وقضى بها ما تبقى له من العمر ، واتبع سقوط غرناطة حملة اضطهاد العرب ، لذلك ثار العرب ، وحملوا السلاح ، واستصدر فرديناند مرسوما يخير العرب بين التنصر أو مغادرة البلاد ، وأعقب هذا غلق المساجد واحراق المخطوطات والكتب النفيسة التي هي عصارة الفكر العربى عدة سنين ، وعذب المسلمون أشد العذاب • ويقول لين بول : اننا نلمس فضل العرب وعظم آثار مجدهم ، حينما نرى بأسبانيا الأراضي القاحلة التي كانت في أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار ، تتردهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية ، وحينما تذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء ، وحينما نشعر بالركود العام بعد الرقعة والازدهار •

وتلك الأيام نداولها بين الناس •

* * * * *

بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري ، وفيه ظهرت طائفة من كبار المفكرين والكتاب والشعراء ، الذين أنتجوا إنتاجا علميا بارزا في مجال العلم والأدب وكان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت في ميدان الأدب والفكر والسياسة والشعر والأدب ، ونبغ في مجالات مختلفة في الطب والفلسفة والشعر ، والدبلوماسية •

ينسب ابن الخطيب الى قبيلة يمنية ، وقدت الى الأندلس مع الفتح وولدا في مدينة لوشه بالأندلس سنة ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م ، ونشأ في بيت علم وفضل وجاء ، ونشأ ابن الخطيب في غرناطة وتعلم بها ، وتلقى بها دروسه ، وكانت غرناطة أعظم مركز للدراسات الاسلامية في المغرب الاسلامي ، ويجتمع بها حشد هائل من العلماء والأدباء ودرس لسان الدين الخطيب اللغة والشريعة والأدب في غرناطة ، وكان أبوه يشغل بعض المناصب الهامة في ديوان السلطان ، وبعد وفاته ، استدعى للخدمة مكان أبيه في ديوان الانشاء واستفاد من وظيفته ، وتعلم فن الكتابة ، ولم يلبث أن شغل منصب رئيس ديوان الانشاء بعد وفاة صاحبه سنة ٧٤٩ هـ — ١٣٤٩ م ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها ، وقد نال ثقة السلطان حتى جعله كاتم سره ولسانه ، في المكاتبات السلطانية وصدرت منه خلال تلك الفترة كتابات رائعة ، ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف ، خلفه السلطان أبو عبد الله محمد الغنى بالله واستمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب في منصبه معاوننا له • ونال ابن الخطيب ثقة السلطان الغنى بالله ، وأنعم عليه بلقب ذي الوزارتين ، لجمعه بين الكتابة والوزارة ، ولكن ابن الخطيب لم يلبث أن تبدلت أحواله ، وتعرض لمحنة ، ذلك أنه في سنة ٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م ، فقد الغنى بالله ملكه في انقلاب دبره ضده أخوه الأمير اسماعيل ، وارتاب السلطان الجديد في ولاء ابن الخطيب ، وقبض عليه بتحريض من خصومه ، وأمر بمصادرة أمواله وممتلكاته ، وبذلك فقد ابن الخطيب منصبه ونفوذه

وأمواله • على أن محنة ابن الخطيب لم تستمر طويلا • ولجأ ابن الخطيب في محنته الى بلاد المغرب ، وعاش ابن الخطيب في كنف وفي رعاية سلطان المغرب أبي سالم ، والتقى بابن خادون ، وكانت تجمع بين الرجلين على الرغم من فارق السن مشابهاة عديدة ، أدبية ومادية ، وكان ابن الخطيب في طور الشيخوخة ، وابن خادون في طور انتساب ، وكان كل منهما أستاذ عصره ورائدا في الفكر والكتابة ، وكان لكل منهما تأثير واضح في حوادث وسياسة العصر ، وكان كلاهما وزيرا مستبدا ومستشارا لأمرء عصره ، ومحرضا لهم أو عاينهم ، وكان ابن خادون يشغل في دول المغرب ما يشغله ابن الخطيب في الأندلس وجمعت بين الرجلين أواصر الصداقة في البداية ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويحله ، وترجم كل منهما للآخر ، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبدع الكتابات السياسية والأدبية في ذلك العصر • وأذن ملك المغرب لابن الخطيب في التجول في أقاليم دولته ، وأمر عماله بحسن استقباله ، وإكرام وفادته ، وقد وصف لنا ابن الخطيب هذه الرحلة في كتابه « تقاضة الجراب في علالة الأغتراب » وفقدت بعض فصول هذا الكتاب •

وتعتبر دولة بنى مرين من أعظم الدول المغربية أجالا للعلم وأهله • ومن أبرز مآثرهم حماية العلوم والآداب ، وإجلال العلماء والأدباء وحسن رعايتهم ، ومن أبرز علماء وشيوخ هذه الدولة ، ابن خادون وابن الخطيب ، وهما أكبر مفكرى القرن الثامن الهجرى •

وكان ابن الخطيب في منفاه في المغرب يتمتع بحياة ناعمة مترفة وكان وقت إقامته في سلا يعيش عيشة الأمرء في قصوره ودياره التى شيدها ، وكان السلطان يصدق عليه بصفة منتظمة وقد سعد ابن الخطيب باسترداد السلطان أبى عبد الله محمد ملكه وبعث اليه يهنئه بقصيدة جاء فيها :

الحسنى يعلو والباطل تسفل
والله عين أحسكاه لا يسفل

و اذ ا-استتحاتت حباله وثبتدت
فما لله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعند العسر موعود به
والصبر بالفرج القريب موكل

وشعر ابن الخطيب بعد عودة مليكه الى عرشه في غرناطة ، ضرورة
عودته الى بلاد الأندلس ، خصوصا وبلاد المغرب قد سادتها الفتن
والاضطرابات . وشجعه على ذلك أن السلطان محمد الغنى بالله كتب الى
وزيره المنفى ابن الخطيب رسالة يطلب منه العودة الى غرناطة . ونفذ
ابن الخطيب أمر سيده ، وعاد الى غرناطة سنة ٧٦٣ هـ ، وأكرم الملك
وفادته ، ونظم له استقبالا رائعا ، ولقبه ذى الوزارتين ، ومعنى ذلك
اضطلاع بمنصبى القيادة والوزارة أى الرئاسة العليا عموما ، ويغدو في
مرتبة الحاجب . وبمقتضى ذلك أصبح ابن الخطيب ينوب عن السلطان
أثناء الغزو في حكم البلاد ، وأن يتولى قيادة الحملات العسكرية أحيانا .
واستطاع ابن الخطيب التخلص من منافسه عثمان بن أبى يحيى ، الذى
كان يلقب بشيخ الغزاه ، لأنه عاون السلطان في استرداد ملكه . وما زال
ابن الخطيب يوغر صدر السلطان على منافسه حتى نكل به وأسرته .

وفي غضون ذلك وفد على الأندلس ، ابن خلدون ، بعد تضاعل نفوذ
في بلاط فاس ، فغادر المغرب الى الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، ولجأ الى غرناطة،
وكان ابن خلدون يقوم بخدمة السلطان الغنى بالله أثناء اقامته منفيا في
فاس ، لذلك كان ابن خلدون يتطلع الى نيل مكانة كبيرة في غرناطة من
السلطان الغنى بالله ، وقد أكرم السلطان ووزيره ابن الخطيب وفادة ابن
خلدون واختاره الغنى بالله ليكون سفيره لدى ملك قشتالة ، ليتم معه
الصالح بين غرناطة وقشتالة ، ونجح ابن خلدون في مهمته وبالح السلطان
في اكرامه ، وعاش المؤرخ في غرناطة في أمن ورعاية مع أسرته . ولكنه
شعر بتغير السلطان وابن الخطيب عليه . ويبدو أن ابن الخطيب قد
خشى على نفوذه في الدولة من ابن خلدون ، لأنه يعرف قدره وبراعته

السياسية والعلمية ومكانته التي نالها في الدولة ، وتقدير السلطان الكبير له فأوغر ابن الخطيب صدر السلطان على نفسه في السلطة ، ابن خلدون باعراض السلطان عنه ، وفي نفس الوقت تلقى دعوات من حكام المغرب بالمقدوم، فقرر العودة الى المغرب ، وأذن له السلطان ، وغمره بصلاته ، وودعه وشيحه معززا مكرما ، وعاد ابن خلدون الى بجاية •

أما ابن الخطيب فقد ضاق ذرعا بالحياة السياسية والعمل السياسي لذلك تطلع الى العودة الى حياة العزلة في سلا ببلاد المغرب •

وكان ابن الخطيب — على حسب قوله — هدفا لحملات خصومه ، ولم يكن يتمتع بحب الكثير من الناس ، لذلك سئم الحياة السلطانية والمسؤوليات السياسية ، ومظاهر الترف والنعيم ، ورغب في ازهد والعزلة ، وطلب من السلطان أن يأذن له في الحج وكان يفكر في مغادرة الأندلس نهائيا • وكان استبعاد ابن الخطيب بالنفوذ والسلطان في المملكة الأندلسية ، سببا في نفور الناس منه ، وسعى بعض رجال الدولة لدى السلطان بالنيل منه والتخلص منه وفعلا نجحت مساعيهم ، وتغير للسلطان منه ، وساء وضع ابن الخطيب سنة ٧٧٢ هـ ، وقد مهد ابن الخطيب سر المغادرة الأندلس ، والذهاب الى المغرب ، فاتصل بالسلطان المريثي عبد العزيز ، فأبدى هذا الأخير ترحيبا بمقدمه وكانت العلاقات بين مملكتي غرناطة وبنى مرين في فاس قد ساءت •

تحين ابن الخطيب الفرصة ، واستأذن السلطان الغني بالله بالرحيل الى المغرب لتفقد الثغور المغربية ، فأذن له وخرج من غرناطة مع واده على ، وكان من خاصة السلطان والمقربين اليه ، وفي قلة من الفرسان ، وسار في صحبه نحو الجنوب ، فلما وصل الى جبل طارق — وكانت يومئذ من أملاك بنى مرين — دخاها وأبرز الى عالمها المريثي عهد السلطان عبد العزيز ، فأكرم وفادته ، ونقله الى سبته وهناك استقبل بحفاوة بالغة سنة ٧٧٢ هـ ، وأرسل من هناك يعتذر الى مليكه الغني بالله ، ويطلب منه اعفائه من مهام منصبه حتى يخاد الى الراحة •

لم يابث ابن الخطيب أن غادر سبته الى تلمسان ، فأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، واستقر ابن الخطيب في تلمسان ثم انتقل الى فاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق في بناء المساكن ، واغتراس الجنات ، وكان الملك الطفل محمد السعيد قد خلف أباه عبد العزيز في الملك ، وقد استاء رجال الدولة من هذا العهد الجديد . ووضع ابن الخطيب في ذلك كتابا سماه « أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلال من ملوك الاسلام » وفيه أثبت أن العالم الاسلامي قد شهد ملوكا صغارا مثل هذا الملك ، وأن ذلك لا يخالف الدين في شيء . ويبدأ كتابه بسرد تاريخ الدولة المرينية منذ السلطان عبد العزيز ، وهو آخر كتاب وضعه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وفيه يروى كيفية مغادرته الأندلس ، والتجائه الى السلطان عبد العزيز ، ويحاول أن يبرر لنفسه تصرفه ، ويثبت حسن نواياه .

وكان ابن الخطيب يسعى الى تحسين العلاقات بينه وبين أمراء المغرب ، واستقر أخيرا في فاس ، بعيدا عن الأهل والوطن وكان يحتل في بلاط بني مرين مكانة لا تقل عن مكانته في الأندلس .

قضى ابن الخطيب شيخوخته في سلام وهدوء ، ولكن فرار ابن الخطيب من الأندلس ، لم يهدئ من ثورة خصومه ، بل استغلوا هذا الحدث للنيل منه ، ولو ثوا سمعته في الأندلس والمغرب ، واتهموه بالزندقة والكفر بالاسلام حتى يتخلصوا منه بسهولة ويسر ، وأولوا بعض كتاباته بحيث تتمشى مع مزاعمهم واتهاماتهم ، وخصوصا ما جاء في كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » وقالوا أن بعض عبارات هذا الكتاب تتضمن طعنا في النبي ، والقول بالحلول ، وسلوك مذاهب الفلاسفة الملحدين . ولم يقف خصوم ابن الخطيب عند هذا الحد من الاتهام بل تجاوزوه الى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى ، فقد زعموا أن مؤلفات ابن الخطيب التاريخية ، ولا سيما كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » وما اشتملت عليه من تراجم الأحياء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللها من الطعن والقذف ، في حق الكثير

منهم انما هي من قبيل الغيبة المحرمة ، وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه المزاعم ، وتولى صياغة الاتهام عدو ابن الخطيب اللدود ، القاضي ابن الحسن النباهي ، وأفتى بوجوب حرق كتبه ، التي تتناول العقائد والأخلاق ، وأحرقت هذه الكتب في غرناطة في منتصف سنة ٧٧٣ هـ في جمع من الفقهاء والعلماء ، ووجه القاضي أبو الحسن في نفس الوقت الى ابن الخطيب في المغرب ، رسالة شديدة يوجه اليه تهما شخصية وشرعية ، وفي رسالته يعدد عيوب ابن الخطيب ، وما يسند اليه من تهمة الانحاد والزندقة . ويوجه اليه القاضي أبو الحسن في غرناطة بعد احراق كتبه تهمة الانحاد والزندقة وصادق السلطان الغني بالله على حكمه ، وفرر بلاط غرناطة أن يبذل مساعيه لدى سلطان فاس لتنفيذ حكم الشرع في ابن الخطيب . فرفض السلطان المغربي هذه التهمة عن ابن الخطيب ومما زاد وضع ابن الخطيب سوءا ، أن ابن الخطيب حرض سلطان فاس المريني على غزو الأندلس ، لذلك زاد حنق السلطان الغني بالله عليه .

وأصبح واضحا الآن مصير ابن الخطيب ، ولما اثبتت الحال ، وانتظر كارثة قد تقع به ، وكان الغني بالله قد ساعد السلطان على الوصول الى ملك فاس مقابل تسليمه ابن الخطيب ولم تمض أيام قلائل على دخول السلطان الجديد فاس ، حتى حرضه وزيره سليمان ابن داود على اعتقال ابن الخطيب ، فقبض عليه ، وزجه في السجن ، وأرسل الى الغني بالله الخبر ، فبعث الغني بالله وزيره أبا عبيد بن زمرك — تلميذ ابن الخطيب — ليقوم في الظاهر بتهنئة السلطان الجديد ، وليعمل في الواقع على استلام ابن الخطيب واعادته الى الأندلس مقبوضا عليه لمحاكمته بها .

وعبثا حاول ابن الخطيب الاستغاثة بأصدقائه ، ولكن السلطان أحمد قرر محاكمته في فاس بالتهم التي وجهت اليه في غرناطة ، وأهمها الانحاد والزندقة ، وعقدت المحاكمة فعلا ، وزج في السجن ولكن

أنوزير ابن زهر ك حرض بعض خدمه بقتل ابن الخطيب بالسجن ، وأحرقت جثته وذلك فى سنة ٧٧٦ هـ •

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره ، كان ساعرا فذا وأديبا كبيرا ، ويكتب الشعر فى موضوعات متنوعة تناسب حياته المليئة بالأحداث والمحن • ومن أبرز كتاباته فى النثر المراسيم السلطانية ، التى أصدرها أيام توليه أنوزارة ومنها رسائل الى ملوك أسبانيا النصارى وسلاطين المغرب وسلاطين مصر ، وجمع ابن الخطيب عددا كبيرا من هذه الرسائل فى كتابه « ربحانة الكتاب ونجمة المنقاب » منها رسائل يصف فيها بعض الوقائع الحربية ورسائل يحث سلاطين المغرب ومصر على انضمامهم لمواجهه أعداء الاسلام ، وتعتبر رسائل ابن الخطيب السلطانية من اروع نماذج النثر الدبلوماسى فى الأندلس والمغرب الاسلامى بصفه عامة • فى كتابه « الأحاطة » نثر بعض الرسائل الخاصة التى أرسلها الى أصدقائه وزملائه ، وتتجلى فيها دقة العبارة وروعة الأسلوب •

وابن الخطيب مؤرخ بالدرجة الأولى ، ومؤرخ عصره بنوع خاص ، وله مؤلفات عديدة تتصل بتاريخ عصره ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة بنى الأحمر ، أبدى خان ابن الخطيب من كبار رجالها • وتعتبر هذه المؤلفات أهم مصادر هذه الفترة ويؤخذ عليه هجاؤه لأعدائه بأسلوب متطرف ، ريبا فى المدح والهجاء ، ولكنه بارع فى تحليله للشخصيات التاريخية والحكم عليها •

وتميز شعر ابن الخطيب بالترفع فى المدائح النبوية ومدح السلطان ، والزجل والتواشيح ، وكتب ابن الخطيب الكثير من الكتب فى الطب ، وكان طبيبا وفيلسوبا يكتب فى النفس والمساعر الانسانية ، والواقع أن ابن الخطيب كان قطب الشعر والنثر فى عصره ، ومصدر النشاط الأدبى فى عصره • ويعتبر أعظم كاتب كتب عن تاريخ وجغرافية غرناطة وأوصاف حياتها الاجتماعية وترك تراثا فكريا كبيرا فى النثر والشعر والتاريخ

والجغرافيا والرحلات والبلاغة والشريعة والعلوم والأخلاق والدين والنبات والطب والبيطرة والموسيقى والفن الحربى والسياسة ، ويظهر فى هذه المؤلفات العمق وأصالة التفكير والابتكار .

ويتميز منهج ابن الخطيب فى الكتابة التاريخية بأنه لا يقتصر على التاريخ السياسى ، إنما يكتب عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنظم وجغرافية الأقليم ، ويموت ابن الخطيب انحدرت الحركة الفكرية فى الأندلس . وقد نبغ فى مختلف الدراسات حتى أصبح أعظم مؤرخ وأكبر كاتب وأفضل شاعر فى عصره . ويمثل التاريخ أعظم وأجل وأكثر مؤلفاته ومن أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وكتاب « انتمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية » و « طريقة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر » و « رقم الحذل فى نظم الدول » و « أعمال الأعلام فىمن بويغ قبل الاحتلال » ر « انكبية الكامنة فى أدباء المائة الثامنة » و « ونفاضة الجواب فى علالة الاغتراب » وكتاب « ربحانه الكتاب » ويتضمن رسائل تاريخية ودباوماسية .

ومعظم هذه الكتب تتضمن تاريخ العصر الذى عاشه وترجمه للأعلام من الشعراء والكتاب وقادة الفكر المعاصرين أو القريبين من عصره ، ولكن قلة من هذه الكتب مثل « الاحاطة » وأعمال الأعلام » تتضمن تاريخا لعصور سابقة .

ويتضمن بعض كتب ابن الخطيب معلومات جغرافية هامة ، مثل حديثه فى « الاحاطة » عن جغرافية غرناطة ، وله رسالتان فى الأدب الجغرافى الأولى « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والآثار » ويصف فيها على لسان شيخ رحالة بعض مشاهداته فى الأندلس . والثانية رسالة عنوانها « مفاخرة بين مالقه وسلا » وهى عبارة عن مقامة مسجعة يفارن فيها ابن الخطيب بين الثغرين الأندلسى والمغربى .

وترك ابن الخطيب تراثا فكريا كبيرا فى مختلف فروع العلم ، وأن كان الكثير من كتبه قد أحرق فى غرناطة ، حينما وجهت اليه تهمة الإلحاد والزندقة ، والواقع أنه وضع الكثير من كتبه أثناء منفاه فى المغرب حيث كان لديه متسع من الوقت .

ومن أهم كتبه التاريخية « الاحاطة في أخبار غرناطة » وكتاب « التاج المحلى في مساجلة انقدح المطى » وهو يحتوى على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ انشائها على أيدي بنى نصر وتراجم أعيانها في القرن الثامن الهجرى ، ويترجم ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، وله كتاب « انكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الفامنة » وكتاب « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » وهو مختصر تاريخ بنى نصر ملوك غرناطة حتى سنة ٧٦٥ هـ ، وكتاب « رقم الحل في نظم الدول » وهو تاريخ منظوم للدول الاسلامية وكتاب « نفاضة الجواب في علاقة الاغتراب » وقد أشرنا اليه فيما سبق . وكتاب أعمال الأعلام وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل موته ، وكتاب « طرفه العصر في تاريخ بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة النصرية . هذه أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية .

ومن أهم الكتب الأدبية لابن الخطيب « ريحانة الكتاب ونجعة المنتخب » وكتاب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » وكتاب « معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار » وكتاب « مفاضلة بين مالقه وسلا » وكتاب « خطرة الصيف في رحلة الشتاء والصيف » يصف فيه رحلة قام بها السلطان يوسف أبو الحجاج في الأندلس وزار فيها عددا من مدن الأندلس . وله الكثير من الرسائل الأدبية تتجلى فيها أفكاره الفلسفية وآراؤه في التصوف وفي السياسة ومناقشات بين ابن الخطيب وأهل الطريقة وفي البحث على الجهاد ، وله رسائل في الموسيقى والقضاء والحرب وأهل المحن والحرف وطوائف الشعب . ورسائل في الرد على بعض خصومه .

ولابن الخطيب دواوين في الشعر مثل ديوان « الصيب والجهام والماضى والكهام » و « الحل المرقومة في اللمع المنظومة » وهى أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه ، و « السحر والشعر » وهو مجموعة مختارة من شعره . و « جيش التواشيح » وجمع فيه أعظم وأجمل تواشيح عصره . وله مؤلفات تضمنت أشعار كبار الشعراء ، وكذلك صنف في العروض .

لابن الخطيب مؤلفات في الطب ، منها كتاب « عمل من طب لمن حب » ويتناول هذا الكتاب مختلف الأمراض ، وأسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظام الغذاء الذي يناسبه ويصف مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها .

ولابن الخطيب أرجوزة في الطب ، تقع في ١٦٠٠ بيت ، وذكر للأمراض المختلفة وطرق علاجها وأسبابها ، وله كتاب « وجز في الأغذية » ويقع في نحو ١٢٠٠ بيت ، ويذكر في الكتاب الأغذية مرتبة حسب حروف المعجم وطبائعها ومنافعها ومضارها وأصلاخ خللها ، وله كتاب « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » كتاب في علاج السموم ، بالإضافة الى رسائل عديدة في الطب .

من هنا نرى أن ابن الخطيب كان دائرة معارف ، وعالمًا ومفكرًا موسوعيًا ، صنف في مختلف أنواع المعرفة ، كتب في الأدب والشعر والفقه والتاريخ والتراجم والفلسفة والطب ، وترجم لحياته في خاتمة كتاب الاحاطة ، وهذه المؤلفات العديدة وهذا الانتاج العلمي الغزير يتجلى فيه عمق التفكير ، وقوة البيان وسعة الاطلاع ، وكتب التاريخ لأنه عاصر الأحداث أو كان قريبًا منها . ويعتبر ابن الخطيب خلاصة ما وصل اليه الفكر الأندلسي من قوة وازدهار ، وفي نفس الوقت تضاعف الفكر الاسلامي في الأندلس بعد ابن الخطيب حتى انكمش نهائيًا .



يقول صاحب كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر : فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة سمعوا ما فيها واطمأنوا اليها وانتقادوا لطاعته كتبوا بيعتهم وأرسلوها الى فرديناند صاحب قشتاله وسمحوا له في الدخول الى مدينة الحمراء والى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخلت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة أقبل الملك فرديناند بجيوشه حتى

قرب من البلد وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية
الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر وكان طلب من أهل البلد
حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من أهل البلد ليطمئن بذلك
فاعطوا خمسمائة رجل منهم واقعدهم بمحلته فحينئذ قدم كما ذكرنا
فلما أطمأن من أهل البلد ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلد
والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلد وأشحن الحمراء
بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائدا من قواده وأنصرف
راجعا إلى محله وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والفارغات وأنواع الطعام
والعدة وما يحتاج اليه وقدم في البلد فوادا وحكاما وبوابين وما يحتاج اليه
اليه من الامر وصار المسلمون يختفون الى المحلة للبيع والشراء والنصارى
كذلك ولما سمع أهل النيسرة أن أهل عريضة دخلت تحت ذمة النصارى
أرسلوا بيعتهم إلى ملك النصارى ودخلوا في دمه ولم يبق للمسلمين
موضع بالاندلس « غانا لله وأنا اليه راجعون » •

ثم أن الملك فرديناند سرح الناس الذين كانوا عنده مرتعنين ومؤمنين
في أموالهم وأنفسهم مكرمين وأقبل في جيوشه حين أطمأن فدخل مدينة
الحمراء في بعض حواصيه وبقي الجند خارج البلد وبقي يتنزّه في الحمراء
في القصور والمنازل المسيدة الى آخر النهار ثم خرج بجنوده وصار الى
محله وأخذ في بناء الحمراء وبسيدها وأطمأن في البلد وصرح
لهم الجواز وأتاهم بالمراكب الى الساحل فصار كل من أراد الجواز
يبيع ماله ودوره وشرع في تحصينها وإصلاح أسائها وفتح طرقها
وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل فلم يزل كذلك
إلى أن أطمأنت نفسه من غدر المسلمين فحينئذ دخل البلد ودار ميه
نفر من قومه وحشمه فلما أطمأن في البلد صرح لهم بالجواز وأتاهم
بالمراكب الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره
فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة أو واسعة المعتبرة بالثمن القليل
وكذلك يبيع جناحه وأرض حرثه وكرمه وفدائه بأقل من ثمن الخلة التي
كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم

من اشتراه منه النصراني وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، وأمرهم بالمسير إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصراني في البحر محترمين مكرمين مؤمنين .

وكان الملك فرديناند قد أظهر "مسلمين في هذه المدة العنيفة والاخترام حتى كان النصراني يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ما كنا اعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل فيه منه وثيدا فيعدهم بذلك وليمنعهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وطبوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعه وعزموا على الجلوس مع النصراني .

ثم إن الملك فرديناند أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من سرنطة إلى قرية اندرشن قرى البصرة فارتحل الأمير محمد بعياله وحمله وأمواله وأتباعه فنزل قرية اندرشن وأقام بها ينتظر ما يؤمن به ، ثم أن الطاغية ظهر له أن ينصرف الأمير محمد إلى العدو فأمره بالجوار وبمراكب تأتي لمسي عذرة واجتمع معه حاق كثير من أراد الجوار فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصراني وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ثم ارتحل إلى مدينة فاس حرسها الله وكان من قدر الله تعالى لما جاز الأمير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فاخبروا بتلك الشدة فقهر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الإقامة والدجن ولم يجوز النصراني أحدا بعد ذلك إلا بالكراء والمخرم وعشر المال .

فلما رأى الملك فرديناند أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها وزالت حرمة

المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الاذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارياض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرهم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النوافيس في صوامعها بعد الاذان في مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكلم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعدورين ، لم يقدروا على الهجرة والالحاق باخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للاوثان ، يأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخيائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعمهم ، ولا على نهيمهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، قبالها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها ، وظامة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا والله على كل شئ قدير •

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية وتجن والبشرة وأندرش ويلفيق فهجم عليهم الملك فرديناند بجموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدتهم ، الا أن ناسا في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل منيع فاحتكموا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه وردة على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجاله وفرسان وأجناد •

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الامان ويجوزهم

لعدوة المغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك إلا أنه لا يسرح لهم سعيًا من أموالهم
غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا عليه، ولم
يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى
والبلدان ، وانطفئ من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا فليكن
الباكون وينتخب المنتخبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك في
الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، لاراد لأمره ، ولا حول
ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم تسليما الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين •

نهاية الاندلس،

بعد أن سلم أبو عبد الله مدينته غرناطة لفرديناند ، ودعها وترك هذه المدينة بأبراجها الحمراء وبساتينها الخضراء وزرعها النضير ، وكل ما بها من جمال وعظمة ، بدأ عصر جديد من الحزن والاستبداد والبؤس للمسلمين في الأندلس واتضح منذ اللحظة الأولى أن الأسباب أن يلتزموا بما عاهدوا المسلمين عليه . من اطلاق حربة العبادلة لهم ، ومعاملتهم بالتسامح والعدل ، وقدم إلى غرناطة في سنة ١٤٩٩ رسولا من قبل الملكة ، وأرغم في يوم واحد ثلاثة آلاف من العرب على التنصر ، وفي زعمه انقاذ هؤلاء الموحدين وكانت الملكة ايزابيلا بمعصية ، واعتقدت أن التسامح مع المسلمين ، يبعدها عن الله ، لذلك أمرت باضطهاد العرب . نار المسلمون ضد هذا التعصب ، وهاجسوا المسلمين الذين ارتدوا خوفا وضعفا وتقربا إلى السلطات الحاكمة . لذلك أصدرت الملكة مرسوما ، بأن يخير المسلمون بين التنصر أو مصادرة الممتلكات ، لأنه في زعمها لا مكان للموحدين في ديارها ، وجاء في هذا المرسوم : أن أسلافهم كانوا مسيحيين ، وأن الكنيسة تعدهم وهم من سلائقهم مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهروا دينهم الموروث ، وعلى أثر ذلك أمرت الملكة باغلاق المساجد ، واحراق المخطوطات والكتب النفيسة ، التي يتجلى فيها مدى ما بلغه الفكر العربي من رقى وتقدم ، واضطهدت حاكم غرناطة المسلمين . وسامهم سوء العذاب ، لارغامهم على التقاضي من دينهم ، واستدباب لئلا الاضطهاد المستضعفون ، وارتدوا عن دينهم ، وحوالوا إلى البصرانية ، حتى واصلوا حياتهم المسيحية في ديارهم ، وخشوا من السدد في بدائع الأرض في جهل لا يدركون مصيرهم فيها . وبقيت منهم جماعة من النجباء ، وأعتوا الددة لمقاومة بطش الملكين الظالمين ، وأعدوا العدة للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل الدين الحنيف ، ولكن السلطات الحاكمة أمعنّت في اضطهاد المسلمين ، حتى هدمت مسجدا

على من فيه من الرجال والنساء والأطفال ، ممن لا مأوى لهم ، واضطر من أراد الفرار بدينه الى هجرة الوطن والدار ، واستقر بهم المقام في بلاد المغرب ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة واضطر بعض المسلمين الى التظاهر بالنصرانية ، فكانوا يؤدون شعائرهم الدينية سرا ، واذا عقد زواج أحدهم ، طبقا للطقوس المسيحية ، عاد سرا الى بيته ، وجمع أقاربه من المسلمين ، وعقد الزواج طبقا للشريعة الاسلاميه ، وكرد فعل ، لما عاناه المسلمون من البطش والاضطهاد ، ساعدوا قراصنة البحر على الهجوم على شواطئ اسبانيا ، واختطاف أطفال النصارى •

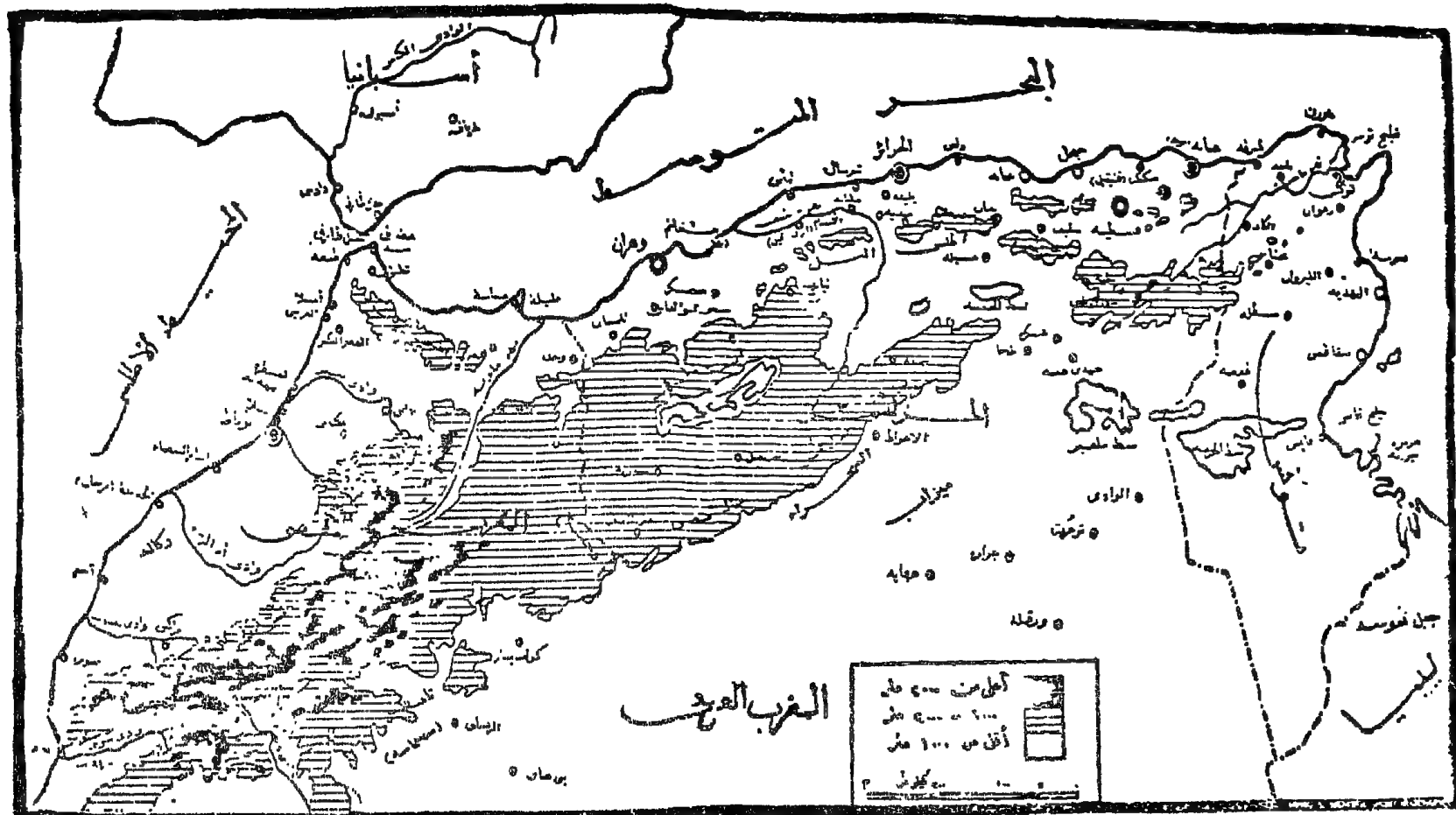
لكن السلطات الحاكمة حرصت على ازالة كل أثر للإسلام ، فأرغموا المسلمين على ارتداء ملابس النصارى وقبعاتهم وسراويلهم ، واتخذوا عن لغتهم وأسمائهم وتقاليدهم •

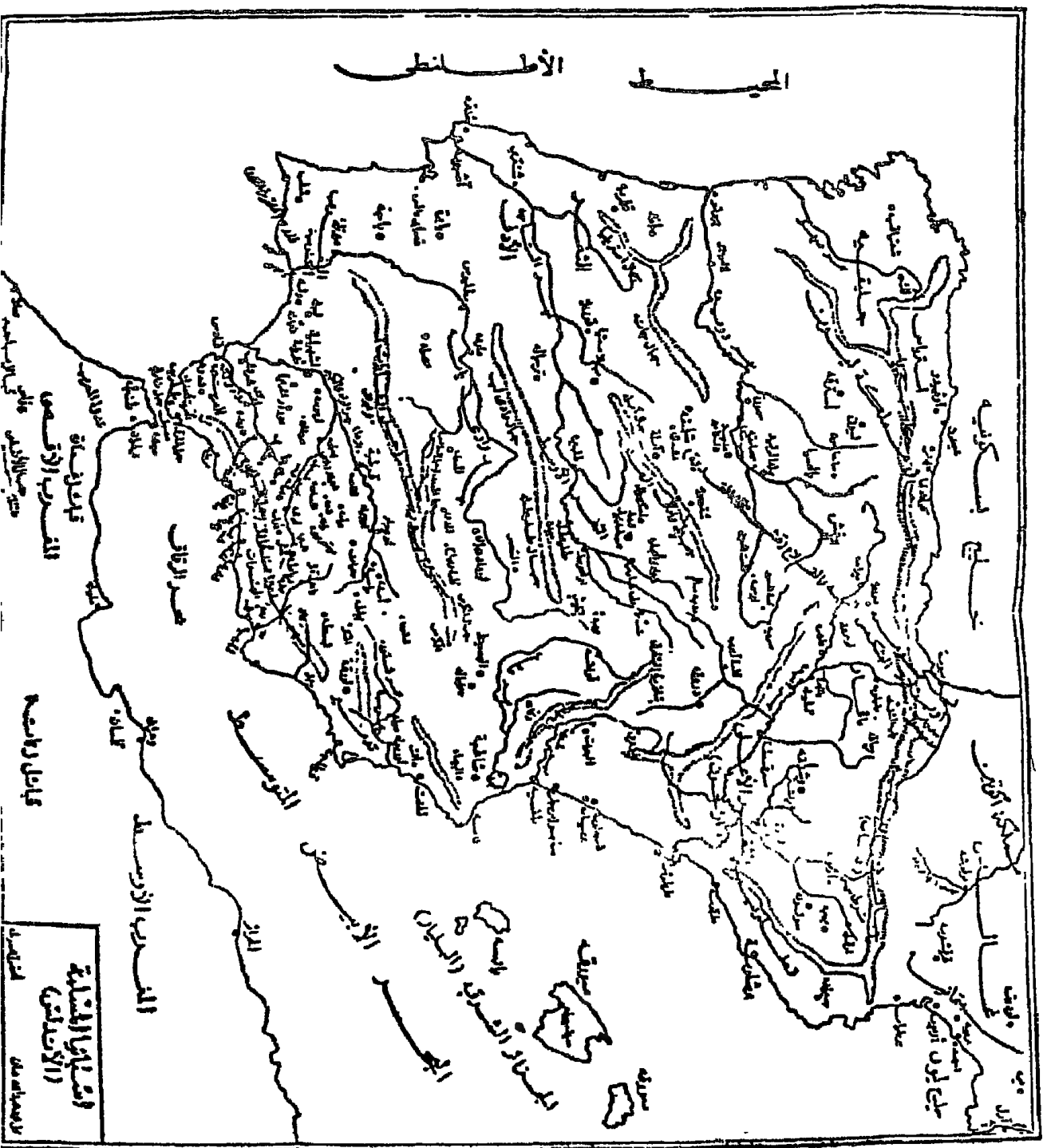
ولم يقبل المسلمون في غرناطة التخلي عن قوميتهم وتقاليدهم ولغتهم ودينهم ، لذلك ثارت الحمية في نفوسهم ، والتفوا حول أحد زعمائهم ، ويسمى محمد بن أميه من نسل خلفاء قرطبة ، وثاروا في منطقة البشرات الحصينة سنة ١٥٦٨ م وكانت هذه الثورة عنيفة تجلت فيها الكراهية المتبادلة بين الفريقين ، وكان المسلمون يهاجمون النصارى في بأس واستماتة وكانت هذه الثورة آخر محاولة لهم للتعبير عن الظلم الذي لحق بهم ، لذلك قتلوا النصارى والقساوسة ، ولطفوا الكنائس بالأقذار • ولكن السلطات الحاكمة في غرناطة قمعت هذه الثورة بعنف وضراوة ، وذبخوا من المسلمين الكثير ، وحولوا مراكز الثوار الى بحار من الدماء ، وانتهت الثورة حوالى سنة ١٥٧٠ م بعد أن أحرقوا ألفرى العربيه ومنعوا من التجأ الى الكهوف من مغادرتها ، فدفنوا فيها أحياء ومن نجا من هذه البؤس استرق أو نفى • وقد قتل في الثورة أكثر من عشرين ألف مسام • وقد نفى من أسبانيا ما يقدر بثلاثة ملايين مسلم ، لجأ بعضهم الى المغرب ، وعاشوا في شتلف من العيش • وبعضهم مات في الطريق ضعفا وكهدا ، ولجأ بعضهم الى فرنسا •

وضياع الأندلس من المسلمين والعرب يوقع المؤرخ في حيرة شديدة -
هل حقيقة العرب مسؤولون مسؤولية كاملة عن فقدانهم للأندلس ، كم
هو الحال في فلسطين ؟؟ الصراع بين الإسلام والنصرانية صراع طويل
مرير ، وأقصد بين المسلمين في الشرق والنصارى في الغرب . لقد أحرز
المسلمون الانتصارات الرائعة على النصارى ، وانتزعوا منهم الامبراطورية
البيزنطية التي كانت تسيطر على مصر والشام والمغرب وآسيا الصغرى .
كما أن المسلمين والعرب لم يمتكنوا الصليبيين من الاستمرار في أرض العرب
والإسلام ، بل عادوا الى بلادهم بعد قرنين من الزمان ولكن العرب ظلوا
في الأندلس أكثر من سبعة قرون وأدت الحضارة الإسلامية دورها الكبير
في هذه الأرض الأوروبية التي لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا وفي نفس
الوقت فشل الاستعمار الأوربي في الاستمرار في أرضنا العربية الإسلامية .
معنى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب . أى أن الشرقيين لا يمكنهم
البقاء في أرض غربية باستمرار . وفي نفس الوقت لا يستطيع الغربيون
البقاء في العالم العربي والإسلامي .

ولكن المحزن أن تضيق أرضنا من ديار الإسلام مثل الأندلس . ولعب
العرب دورا كبيرا ورئيسيا في ضياع هذا الملك العتيد . وكان المسلمون
في الغرب في ضعف أمام النصارى في الوقت الذي كان فيه الأتراك
العثمانيون يجتاحون أوروبا حتى وصلوا الى أبواب فيينا ، وكانوا في أوج
عظمتهم ، وفي أبهى انتصاراتهم . ولكن على الأرجح بعد المسامة ،
وانقطاع الأخبار ، وعدم وضوحها جعل من الصعب بل ومن المستحيل على
العثمانيين انقاذ اخوانهم في الدين في الأندلس .

وهكذا فقد العرب اسبانيا — هذه مأساة المسلمين والعرب رقم ١ —
يليهما فلسطين — المأساة رقم ٢ ، يليها لبنان التي تتمزق أمام أعيننا الآن —
يليهما أفغانستان جلبوا العدو الى بلادهم ليمزق شملهم ، ويفرق وحدتهم
والحرب بين العراق وايران — حضارة تتمزق أمامنا ، والعدو يعمل على
توسيع نطاقها حتى يرى بنفسه المسلمين في ضعف وهوان ، وحتى يروج
لأسلحته ، ويفرض سيطرته على دول الخليج بحجة حماية البترول .
والكويت تتمزق وتتهار بأيدي عربية إسلامية .





المملكة العثمانية

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

البحر الأحمر

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

هل حقيقة أن العرب والمسلمين لا يميزون بين العدو والصدى ؟؟
قدرون الأخطار المحيطة بهم من كل مكان • اننا فى شدة الحاجة الى
ذه والتضامن والعمل بكتاب الله حتى نستطيع أن نواجه كل هذه
أار وحتى لا نخرب وندمر بيوتنا بأيدينا •

يقول بدر الدين الجارم :

أمامك قصه عن مجد قوم تقشع عن سمائم السحاب
مناصل ان دعوا للحرب لبو وان نودوا لمكرمة أجابوا
نجوم ما بدت الا لتخفى كما يطو على الماء الحباب
سلوا التاريخ عنها ان أردتم ففى صفحاته حط الجواب

والله أعلم •

ثبت المراجع

١ - المراجع العربية

- ١ — ابن الأباد (أبو عبد الله محمد ، القضاءى البلبسى) • ت ٦٥٨
— ١٢٦٠ م
- (أ) كتاب التكملة لكتاب الصلة ٢ ج ، الخامس والسادس من
مجموعه المكتبة الأندلسية • نشر كودبرا مدريد ١٨٨٧ م •
(ب) المعجم • المكتبة الأندلسية مدريد ١٨٨٦ م •
- ٢ — ابن أبى زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) •
ت ٢٢٦ هـ — ١٣٣٥ م •
الأنس المطرب بروض القرطاس فى أحبار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس ، ٢ ج • إيطاليا ١٨٤٣ •
- ٣ — ابن الأبر (أبو الحسن على بن أبى الكرم) ت ٣١٠ هـ
الكامل فى التاريخ ، ١٠ ح • بولاق •
- ٤ — ابن الأحمر (الأمير أبو انولىد اسماعيل بن يوسف النصرى)
ت ٨١٠ هـ ، ١٤٠٧ م •
- (أ) نذر الجمان فى شعر من نظمى وایاه الزمان • مخطوط دار
الكتب المصریة رقم ١٨٥٣ أدب •
- (ب) روضة التفرین فى ماوك بنى مرین نسرہ الأستاذان مارسیه
وبولی باریس ١٩١٧ م •
- ٥ — ابن بسام (أبو الحسن على السنقرینى) ت ٥٤٢ هـ •
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة • القاهرة ١٩٤٥ م •
- ٦ — ابن بسکوال (أبو القاسم حلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨ هـ ، ١١٨٣ م •
كتاب الصلة فى تاریخ أئمة الأندلس • مدريد ١٨٨٣ •

- ٧ — ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد عبدالله الطنجي) ت ٧٧٩ هـ ، ١٣٧٧ م
نحلة الأنظار في عرائب الأفكار وعجائب الأسفار ، ٢ ج ، القاهرة
١٩٣٨ م •
- ٨ — ابن حجر العسقلاني (نهاب الدين أحمد بن علي) ت ٨٥٢ هـ ،
١٤٨٨ م •
الدرر الكامنة في أعيان المائة المائة ؛ ج • الهند ١٣٥٠ هـ •
- ٩ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد) • عاس في الفرس الرابع الهجري
كتاب صورة الأرض ، ٢ ج ، لندن ١٩٣٩ م •
- ١٠ — ابن الخطيب (الورير محمد لسان الدين) • ت ٧٧٦ هـ ، ١٤٨٥ م •
(١) الاحاطة في أخبار غرناطة ، ٢ ج ، القاهرة ١٣١٩ هـ •
(ب) أعمال الاعلام ممن بوع قبل الاختلام من ملوك الاسلام •
رباط الفتح ١٩٣٤ م ، حققه ليفي بروقنسال ، بيروت ١٩٥٦ م •
(ج) اللامحة البدرية في الدولة الصرية : القاهرة ١٣٤٧ هـ •
- ١١ — ابن خلدون (أبو ركبنا بن محمد) ب ٧٨٠ هـ ، ١٣٧٩ م بغية الرواد
في ذكر الملوك من بني عبد الواد • نشر وترجمه للفرنسية الفرديل ،
الجزائر ١٩٠٣ م •
- ١٢ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ •
العبر وديوان المبتدأ والخبر • بولاق ١٢٨٤ هـ •
- ١٣ — ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم)
ت ٦٨١ هـ •
وفيات الأعيان وأنباء الزمان •
- ١٤ — ابن المزيير (أبو جعفر أحمد) ت ٧١٨ هـ ، ١٣٠٨ م •
صله الصلة ، نشره ليفي بروقنسال • رباط ١٩٣٨ م •
- ١٥ — ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن علي النيعمرى) ت ٧٩٩ هـ ،
١٣٩٦ م •
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ١٣٣٩ هـ •

- ١٦ — ابن عذارى المراكشى •
اليبيان المغرب • فارس ١٩٣٠ م •
- ١٧ — ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي)
ت ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م •
تاريخ علماء الأندلس ، مدريد ، ١٨٩١ م •
- ١٨ — أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول • مدريد ١٨٦٧ م •
- ١٩ — الادريسي (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوسي) ت ٦٤٩ هـ •
صفه المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس — أبدين ١٨٩٤ م •
- ٢٠ — التبتكى (أبو العباس أحمد بابا)
نيل الابتهاج بتطريز الدبباج • كتب على هامس كتاب الديباج
المذهب لابن فرحون • القاهرة ١٣٢٩ هـ •
- ٢١ — المقرئ (سهاب الدين محمد بن التامساني) نفح الطيب من عصف
الأندلس الرطيب • القاهرة ١٩٤٠ م •
- ٢٢ — النحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمعزم) ت ٨٦٦ هـ •
صفه جزيرة الأندلس • منتخبه من كتاب الروض المعطار • القاهرة
- ٢٣ — حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دولة المرابطين، صفحه مسرقة
من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ م •
- ٢٤ — زكى محمد حسن (الدكتور) ت ١٩٥٧ م •
الترحالة المسلمون في العصور الوسطى • القاهرة ١٩٤٥ م •
- ٢٥ — زيادة (الدكتور محمد مصطفى) •
رحلة ابن جبير وابن بطوطه • لجنة التأليف والترجمة والنشر •
القاهرة ١٩٣٩ م •
- ٢٦ — السلاوى : (سهاب الدين محمد بن خالد الناصرى) ت ١٣١٩ هـ ،
١٩٠١ م •
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ ج ، القاهرة ١٨٩٤ م •

— السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر محمد)
ت ٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م .

(أ) تاريخ الحلفاء أمراء المؤمنين • القاهرة ١٣٥١ هـ .
(ب) حس المحاصره فى أخبار مصر والقاهرة • القاهرة ١٣٣٧ هـ .

• الطبرى : (الامام أبى جعفر محمد بن جرير)
تاريخ الأمم والملوك • القاهرة ١٩٣٩ م .

• العبادى (عبد الحميد) .

(أ) صور من التاريخ الاسلامى ، ٢ ج (١٩٤٨ — ١٩٥٣) .
(ب) حديث الفقيه المغروبن من أهل لسبونه • مجله النفاذ
١٩٣٧ م .

— العبادى (أحمد مختار • دكتور) .

(أ) الصقالبه فى أسبابا — لحه عن أصانهم ونسأتهم وعلاقنهم
(ب) لسان الدين بن الخطيب وبرعاته الاقتصادية •
(مجله لسان الدين الجزء التاسع والعاسر — سبتمبر —
مقامه للعيد لأبى عبد الله الأدرى (صحيفه المعهد المصرى
١٩٥٤ م) •

مساهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعه من رسائله)
الاسكندرية ١٩٥٨ م .

٢ — لين بول •

العرب فى أسبابا ، ترجمه على الجارم •

٢ — على محمد حمودة •

الاسلام فى الأندلس • القاهرة ١٩٥٣ م

- ٣٣ — محمد عبد الله عنان • ترجمه عى المؤرخ الألمانى يوسف أسبناح •
(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطى والموحدين • القاهرة
• ١٩٤٠ م
- (ب) نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المصرى • القاهرة ١٩٤٩ م •
(ج) تاريخ العرب فى أسبابها • القاهرة •
- ٣٤ — مؤنس (حسن — دكتور) •
(١) الثغر الأعلى الأندلس فى عصر المرابطين • مجلة كلية الآداب
— جامعة القاهرة ج ٢ ، ١٩٤٩ م •
(ب) السيد القبيطور وعلاقاته بالمسلمين • مجلة كايه الآداب
القاهرة العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠ م •
- ٣٥ — النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الماقي) ت ٧٧٦ هـ •
المرتبة العليا فبمن بسنحى المصاء والفتيا • القاهرة ١٩٤٨ •
- ٣٦ — النويرى (سهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن
عبد الدائم) •
نهاية الأرب • غرناطة ١٩١٩ م •

ب - المراجع الأجنبية

- 1 Altamera :
 - a) Spain (1031 - 1248), London 1949.
 - b) Cambridge Medieval History, vol VI, Ch XII.
- 2 Bel, A. :

Ency. of Islam, Arts., Almoravides & Ah Ben Youssof.
3. Dozy, R., :
 - a) Histoire des Muslmans d'Espagne, 3 vols, (ed. Levi-Provençal) Leyde, 1932
 - b) Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1946
 - c) Recherches sur l'Histoire et Literature de l'Espagne Pendant le Monyen âge, Leyde, 1881 (2 vols)
- 4 Gayangos (P.) .

The History of the Mohammadan Dynasties in Spain, (Extracted from the Nafhu-t-tib), 2 vols, London 1840.
5. Levi Provençal :
 - a) Un Manuel Hispanique de Hisba sur la Surveillance des corporation et la repression des froudes en Espagne Musulmane, Paris 1931.
 - b) Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.
 - c) Seville Musulmane au debut du Xlle Siecle la Traité d'Ibn Abdun, Paris 1970.
 - d) La Mora, Zaida femme d'Alphonse VI (en) Hesper is 1934, t. XVII.
 - e) Ency of Islam, Arts. Le Cid & Sons.

للؤلف

- ١ — كتاب « تاريخ الاسلام في العصر التركي » .
- ٢ — « الحواصر الاسلاميه الكبرى » .
- ٣ — « بلاد الجزيرة في اواخر العصر العباسي » .
- ٤ — « اليمن في ظل الاسلام » .
- ٥ — « الهند في العصر الاسلامي » .
- ٦ — « الاسلام وعالم الفكر » .
- ٧ — « الدول الاسلاميه المستقلة في الشرق » .
- ٨ — « الدوله العباسيه » .
- ٩ — « تاريخ المغرب والاندلس » .
- ١٠ — « الدوله الاسلاميه وحضارتها » .
- ١١ — « معالم الفكر الاسلامي » .
- ١٢ — « الحركة الفكرية في بلاد اليمن في عصر بني رسول » .

شارك في اعداد اطلس العالم الاسلامي يضاف الى ذلك العديد من
البحوث والدراسات في تاريخ الاسلام وحضارته .

د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى فى سطور

- أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامىة فى كلية الآداب —
جامعة القاهرة .
- ألقى العديد من المحاضرات فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامىة
فى جامعات مصر والسعودىة والىمن والجزائر والكويت .
- عضو فى العديد من الهيئات العلمىة .
- شارك فى العديد من المؤتمرات العلمىة .
- له بحوب عديدة فى المجالات العلمىة المخصصة والثقافىة .
- أشرف وشرم على رسائل الماجسفر والدكتوراه ، بحاول فى دراسىة
أمرار دور المسلمى فى الحضارة الانسانىة ، وحب المسلمى ونبىهم
الى الاستفادة من ماضىهم ، والسعى الى حاة أفضل ، واستعاده أمجادهم
ونبوتهم المكانة اللائقة بهم .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : التعريف ببلاد المغرب والاندلس	
أهميه دراسه تاريخ المغرب والاندلس	١١ .
نظرة عامة حول بلاد المغرب	١١ .
الفتح العربى للمغرب	١٦ .
حملة عقبة بن نافع الأولى على المغرب	١٧ .
الحمالات المتتالية على بلاد المغرب	١٩ .
سائج الفتح العربى لبلاد المغرب	٢٧ .
اسبابها قبل الفتح العربى	٣٠ . . .
الاندلس .. .	٢٣ .
الفتح العربى للاندلس	٢٦ .
سائج الفتح العربى للاندلس	٤٤ . . .
الفصل الثانى : عصر الولاة فى الاندلس	
بدء المحاولات الحديثة لفتح مرسى	٤٦ .
الفن والحروب الداخلية فى المغرب والاندلس	٥٥ .
ضعف الدولة الأموية ومدهورها	٥٩ .
الفصل الثالث : الامارة الأموية فى الاندلس	
عبد الرحمن الداخل	٦٠ .. .
السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموى	٦١ .
ثورة الساطمى	٦٤ .
ثورة عبد الغافر السحائى	٦٦ .. .
سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية	٦٧ . . .
موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل	٦٩ .
حصاره الاندلس فى عصر عبد الرحمن الداخل	٧٣ ..
هشام بن عبد الرحمن	٧٦ . . .
الموقف من نصارى الشمال	٧٧
مذهب مالك فى الاندلس	٧٨ . . .
الأمير الحكم الرضى	٨١
الفن والثورات الداخلية	٨١

الموضوع الصفحة

٨٢	ثورات المولدين
٨٦	العلاقات الخارجية
٨٩	الأمير عبد الرحمن الأوسط
٩٦	الثورات الداخلية
٩٧	عزابات الثورمان
١٠٠	فتنة المستعمرات المطرفين في مرطبه
١٠٢	العلاقات الدولية في عصر عبد الرحمن الأوسط
١٠٣	أعماله الإدارية والعمرانية
١٠٥	عصر دويلات الطوائف الأولى
١١٠	المملكة النصرانية في الشمال

الفصل الرابع : المغرب الإسلامي في العرس الثاني والثالث للحره

١١٨	المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالله
١٢١	دولة الأغالله في المغرب الأدنى
١٣٦	دولة الإدارية في فاس
١٤٠	تأسيس مدينة فاس
١٤٣	حركات الحوارج في المغرب
١٤٨	قيام الدولة الرسومية
١٦٠	دولة بني مدرار
١٦٤	الدولة الإسماعيلية الأولى في اليمن
١٨٥	الدولة الزييرية
١٩٠	سيرة بني هلال

الفصل الخامس : الخلافة الأموية بالأنطلس

١٩٢	عبد الرحمن الناصري
١٩٣	سياسة عبد الرحمن الناصري الداخلية
١٩٤	تحويل الإمارة إلى حلامه
٢٠٢	العلاقات الدبلوماسية بن الناصر وملوك أوربا
٢٠٤	الصقلية في عهد الناصر
٢٠٥	المنشآت المعمارية في عهد الناصر
٢٠٨	الحكم المستنصر
٢١٠	السياسة الخارجية
٢١١	الخطر النورماندي
٢١٢	موقف المستنصر نصارى الشمال

الموضوع	الصفحة
هشام الثاني	٢١٣
محمد بن عبد الله بن أبي عامر	٢١٤
خلفاء المنصور ..	٢٢٣
نهاية الدولة الأموية	٢٢٦
أس حرم	٢٢٧
الممالك النصرانية خلال القرن العاشر الميلادي	٢٣٨
اللغة العربية وآدابها في الأندلس	٢٤٢
الفصل السادس : المرابطون والموحدون	٢٤٩
المرابطون ..	٢٥١
الموحدون ..	٢٦٤
ازدهار الفكر الفلسفي في عصر المرين	.
أس طفيل	٢٧٦
أس رشيد	٢٨٠
ابن عربي	٢٨٥
الفصل السابع : مملكة غرناطة وبهاية الأندلس	٢٩٧
مملكة غرناطة - بطورها وسقوطها	٢٩٩
لسان الدين أس الحطيب	٣٠٤
المصادر والمراجع	٣٢٢
مهرس الكتاب	٣٣١

رسم الانداع ٨٦١٠ / ١٩٩٠

المطبعة الجارية الحديثة
٢٢ شارع ادرس راغب - الطاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة

Бібліотека Академії наук
України



0307889



To: www.al-mostafa.com